



الشعب المختار

الأسطورة التى شكلت إنجلترا وأمريكا

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم

الجزء الثالث

"إنشقاق" البحر الأحمر فى وقت الخروج من مصر

هـذا الكتـاب

★ يتـحـدث هذا الكتـاب عن أسطورة «الشعب المـختـار» التى شكلت ثقافة الأنجلوساكسون (انجلترا وأمريكا) لعدة قرون.

★ فـداخليـا، بعـثت على هجـرة البيـوريتـانز لأمـريكا، ثم حـرب الاستقلال، بل والحرب الأهلية.

★ أما خارجيًا، فهى تارة حمل الرجل الأبيض لتمدين آسيا وأفريقيا بالاستعمار، وتارة أخرى استعباد الزنوج للإنعام عليهم بالمسيحية وحضارة الرجل الأبيض.

★ ويبدو أن لتلك الأسطورة ظلالا فيما نعانيه الآن فى الشرق الأوسط من فرض القيم والحياة الأمريكيـة، سواء كان ذلك على أسس من الصهيونية (المسيحية واليهودية)، أو على أسس من الرأسمالية والداروينيـة الشاملة (فكريًا واقتصاديًا وماليًا وعسكريًا)، وما يتبع ذلك من تأمين المصالح، أو على أسس من الدين الأمريكى المدنى، الذى هو خليط من كل ماسبق، مع ليبـراليـة انتـقـائيـة، تختـار قضاياها ومجالات تطبيقها.

كليفورد لونجلى

★ مؤلف وصحافى وإذاعى بريطانى معروف، يكتب عموده الأسبوعى فى الصحافة الإنجليزية (جريدة التايمز وجريدة ديلى تلجراف) منذ حوالى ٣٠ سنة.

★ كذلك يكتب لأسبوعيـة (الكاثوليك الرومان) والتابلت، وهو متزوج من أمريكية.

❊ ❊ ❊

الشعب المختار

الجزء الثالث

هذه ترجمة لكتاب

Chosen People
the big idea that shaped England and America

ومؤلفه كليفورد لونجلى

الصادر بالإنجليزية عن دار نشر:

Hodder & Stoughton

فى لندن عام ٢٠٠٢م وأعيد طبعه عام ٢٠٠٣م

الطبعة العربية الأولى

١٤٢٤هـ ــ نوفمبر ٢٠٠٣م



شارع الفتح ـ أبراج عثمان أمام المريلاند ـ روكسى ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ ـ ٢٥٦٥٩٢٩ ـ تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: shoroukintl @ hotmail. com

shoroukintl @ yahoo.com

الشعب المختار

أسطورة الفكر الأنجلو أمريكى

الجزء الثالث

كليفورد لونجلى

ترجمة: دكتور قاسم عبده قاسم



مقدمة

أسطورة الشعب المختار

قد لا تكون هناك أسطورة فى تاريخ البشرية لها ذلك التأثير مثل أسطورة «الشعب المختار»..

وبينما تحمل الفكرة معنى تكليفيًا بأن يقوم ذلك «المختار» بتبليغ رسالة إلهية، وضرب النموذج والمثل البشرية، فقد حملها البعض على أنها تفضيل إلهى له، بصرف النظر عما يقول ويفعل، وينظر إلى «الآخر» من علٍ، فهو ذلك «المرفوض» أو «المستبعد».

وسببت تلك الأسطورة عند بعض اليهود تكبّرا على «الآخر» واحتقارًا له واستهانة بحقوقه.. فكان رد فعل ذلك «الآخر» كراهية ونفورًا من الشعوب(*)، مع مصادرة الأموال، بل والأرواح.. تكررت تلك الدورة فى أوروبا عدة مرات على مدى قرون طويلة..

كذلك اعتنق الأنجلوساكسون تلك الأسطورة.. فكانت البروتستانتية هى «المختار» من الكاثوليكية.. وأصبحت الكاثوليكية هى بابل العاهرة.. أو مصر و فرعونها.. ثم انشق البيوريتانز عن انجلترا، فأصبحوا هم إسرائيل «المختار» وانجلترا هى بابل العاهرة، ومصر وفرعونها.. ثم أصبحت الولايات المتحدة ـ فى حرب استقلالها عن بريطانيا ـ هى إسرائيل «المختار» وبريطانيا وملكها بابل العاهرة ومصر وفرعونها.

(*) فى معظم فترات تاريخ اليهود، كانوا على صلات وثيقة بالحكومات فى معظم أنحاء العالم، بينما كانوا فى حالة «الجيتو» مع الشعوب.

ونظر الأنجلوساكسون لبقية العالم - آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية - على أنهم ذلك «المرفوض»، وعلى «المختار» حمل وعبء «الرجل الأبيض» في تمدين وتحضير ذلك الآخر «المرفوض». وبالطبع كان للمصالح الاقتصادية دورها ودافعها لتبني تلك الأسطورة، خاصة مع ضعف ذلك الآخر - آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية - مقارنة ببقية دول أوروبا..

وبجانب تلك الأسطورة، هناك قناعة عند البعض الآخر في أوروبا وأمريكا بالداروينية الشاملة.. أي البقاء للأصلح، في كل المجالات.. الثقافة، القوة العسكرية، القوة الاقتصادية والمالية...

ويعتنق البعض الثالث ليبرالية انتقائية .. تظهر في مناسبات وتختفي في مناسبات.. تنطبق على البعض، ولا تنطبق على البعض الآخر..

تتنازع تلك الاتجاهات الرئيسية - من بين اتجاهات ودوافع أخرى - السيادة في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، وبين اليهود.. ونرى حصيلة ذلك في الشرق الأوسط.. أو قل ندفع ثمن ذلك في الشرق الأوسط..

وفي هذا الكتاب.. يستعرض الصحافي الإنجليزي الكاثوليكي «كليفورد لونجلي» تلك الأسطورة التي يرى أنها شكلت انجلترا وأمريكا.

وتباع النسخة الإنجليزية من هذا الكتاب - الذي طبع مرتين - بسبعة جنيهات وتسع وتسعين پنس إنجليزي، أي ما يزيد عن ثمانين جنيهًا مصريًا، وطبعتنا المصرية في أجزائها الثلاثة تباع بـ٢٧ جنيهًا فقط، أي أكثر قليلا من جنيهين استرليني.

عادل المعلم

(٧)

الإمبراطورية والإرسالية والحرب

كانت الظاهرة التى عرفناها بأنها خصائص وأعراض الشعب المختار عاملاً فى التاريخ الإنجليزى بقدر ما كانت عاملاً فى التاريخ الأمريكى. وجنبًا إلى جنب مع التوسع التجارى والعسكرى قدمت قوة رائعة لتأسيس ما سمى فيما بعد بالإمبراطورية البريطانية الثانية؛ إذ كانت الإمبراطورية الأولى هى التى قامت فى أمريكا الشمالية (والتى لم تبق منها سوى كندا ونوڤا سكوشيا). كانت القوة الدافعة إلى تأسيس الإمبراطورية الأولى دينية إلى حد كبير - تمثلت فى رغبة البيوريتان فى امتلاك أراض يمكنهم فيها ممارسة معتقداتهم دونما إزعاج - وكذلك كانت الإمبراطورية الثانية وإن كانت أسبابها مختلفة تمامًا. ومثلما حدث مع الإمبراطورية الأولى، اختلطت الدوافع العليا بالدوافع الأدنى، المثالية مع السعى وراء الربح، واللتان أمكن التوفيق بينهما تحت مبدأ «أن الرب يساعد من يساعدون أنفسهم»، أو بمصطلحات أكثر كالڤينية: «إن الله يغدق نعمته على أولئك الذين يعملون بإرادته». بيد أن البيوريتان كان لديهم اعتقاد كالڤينى بالمصير المقرر سلفًا - أى أن الرب قد قدر سلفًا من سيكونون الشعب المختار الذى سيذهب إلى السماء [أى المكتوب أو المقدّر]. وعلى الرغم من أن الإنجيليين فى القرن الثامن عشر كانت لهم جذور قوية فى المذهب الكالڤينى، فإنهم اختلفوا بشكل عام حول هذه النقطة.

وكان المبشر الإنجيلى الذى يمثل النموذج الأصلى هو چورچ هوايتفيلد، وهو قس أنجليكانى وجهت عظاته الصحوة الكبرى الأولى فى كل من انجلترا وأمريكا الشمالية فى منتصف القرن الثامن عشر. وكان متحالفًا بشكل وثيق مع چون

وتشارلز ويسلى، وكان اهتمامه الأساسى مثلهما موجهًا إلى التبشير الحماسى بالإنجيل وليس إلى القواعد الكنسية. وقد كسروا القواعد حيثما كانت هناك ضرورة لذلك ـ فقد أدى قرار چون ويسلى بترسيم القساوسة للكنيسة الأمريكية إلى قطيعة محددة مع السلطات الأنجليكانية، وإلى ظهور فرقة منشقة عرفت باسم الميثودية (المنهجية). ويبدو أن أحدًا من الإنجيليين الأوائل لم يتخذ خطًا كالڤينيًا صارمًا يتعدى القدرية؛ وعلى الرغم من أن «هوايتفيلد» سمى نفسه كالڤينيًا، ولم يفعل چون وتشارلز ويسلى ذلك؛ إذ إنهما مالا تجاه الكالڤينية المعدّلة لـ«جاكوبويس أرمينيوس»، الذى كان معاصرًا تقريبًا لكالڤن الذى أراد أن يؤكد على دور الإرادة الحرة فى عملية الخلاص.

وكانت الأرمينية فى طريقها لأن تصبح الانشقاق القياسى عن الكالڤينية الصارمة فى المذهب الأنجليكانى فى ذلك الوقت، وكانت بمثابة حل لمعضلة أن القدرية الخالصة بدت وكأنها تدين وتردى إلى الجحيم بكثير جدًا من الناس الذين لم يكن لديهم خيار فى المسألة، وهو ما بدا دعاية سيئة لحب الرب. وكان هوايتفيلد وويسلى والإنجيليون يعتقدون أن الرب يحب كل روح بشرية ويرغب فى خلاص الجميع، وليس مجرد قلة مختارة. وهذا الخلاص يمكن كسبه بالإيمان، والذى يتجلى معظمه فى لحظة معينة من الزمن، وهى لحظة اعتناق الدين، حينما تستجيب الروح بشكل جذرى للتبشير بكلمة الرب. فى هذه اللحظة كانت الروح (كما لو أنها) وُلدت من جديد، أو وُلدت مجددًا على حسب وصفهم هم. وهكذا فإنهم جميعًا وضعوا الأهمية على اجتماعات الصلاة العامة المشحونة عاطفيًا، حيث يكون هناك مبشر بارز يناضل هناك فى تلك اللحظة؛ لكى «يكسب الأرواح من أجل المسيح» بقوة فصاحته. وكان جوناثان إدواردز هو المثال الأمريكى الرائد على هذا النمط، وعلى الرغم من أنه لم يتخل أبدًا عن القدرية بشكل كامل فقد طورها إلى مفهوم أكثر تفاؤلاً. إذ كان إدواردز، بقدر ما كان مبشرًا مؤثرًا، فيلسوفًا ولاهوتيًا عظيمًا أيضًا، وعيّن رئيسًا لجامعة پرنستون قبل موته بوقت قصير.

وفى زمن الصحوة الأولى كان الفرق بين أرمينية ويسلى المعدّلة وكالڤينية

هوايتفيلد وإدواردز المعدّلة قد بات نظريًا أكثر منه عمليّا. وفى كل من الحالتين كانت النظرية هى أن ما يهم هو استجابة الفرد إلى التبشير بكلمة الرب. وسواء كان مقدرًا له أن يقوم بهذه الاستجابة، أو أنه قام بها بدافع من اختياره الحر، فإن ذلك لم يحدث سوى فرق قليل فى المحصلة العملية؛ إذ إنه كان ينتقل، أى يتحول، صوب الإيمان. وكانت أهمية هذه الفكرة هائلة؛ لأنها كانت تعنى أن الفرصة للخلاص متاحة لكل واحد. وكانت المسيحية البروتستانتية قد صارت طريقًا عالميًا إلى الخلاص، ولم تعد قاصرة على نخبة مقدرة سلفًا، وكان يمكن التبشير بها فى أوساط «الهنود الحمر المتوحشين»، كما كان يمكن التبشير بها بين العبيد الأفريقيين، ولم يعد الخلاص محفوظًا للرجل الأبيض نظريًا. وفى عملية الخلاص مرّ مفهوم الشعب المختار بثورة، بيد أنها كانت أبطأ كثيرًا مما كان ينبغى لها؛ لأن العادات القديمة ماتت بصعوبة فى هذه المنطقة مثلما يحدث فى أى مجال آخر. والتوسع النظرى لمفهوم الشعب المختار باعتناق المسيحية لم يغير عادة اعتبار الاختيار أساسًا، حقًا محفوظًا للجنس الأبيض.

والواقع أنه، كما حدث غالبًا قبل التاريخ المسيحى، كانت هناك فكرتان متصارعتان، هما فى هذه الحالة القدرية والأرمينية «نسبة إلى جاكوبوس أرمينيوس» تعيشان جنبًا إلى جنب، بل إنهما تتطابقان أحيانًا داخل الشخص نفسه. من الأسهل التعامل مع الناس المنطقيين، ولكنهم غالبًا ما يضمرون أفكارًا لا يمكن التوفيق بينها بصورة تبادلية وبرباطة جأش (ولكنهم لا يتسرعون أبدًا فى توجيه الشكر إلى الشخص الذى يبرز هذا). وفكرة أن «المختارين» يشكلون كل المؤمنين فى جميع أنحاء العالم كانت تتعايش مع الفكرة (التى لا يمكن التوافق معها فنيًا) القائلة بأن المختارين هم الأمة الإنجليزية أو الجنس الأبيض، ولا سيما ذلك الجزء من الجنس الأبيض الذى ينتمى إلى الطبقات الوسطى والعليا. وكان هذا يميل بالحتم تجاه وضعية من الدرجة الأولى و وضعية من الدرجة الثانية بين من ينالهم الخلاص - كان أصحاب الدرجة الأولى أفرادًا مختارين داخل الأمة المختارة. وكان ذلك زمنًا كان فيه التدرج الدقيق فى المكانة الاجتماعية يلقى قبولاً عامًا باعتباره جزءًا من النظام الطبيعى. إذ لم تكن هناك فقط عربات سكك حديدية

من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، ولكن معظم الناس كانوا يعرفون بالغريزة أية طبقة تناسبهم، وكان لا يريحهم السفر فى الدرجة الخطأ، سواء كانت عالية أو متدنية بالنسبة لهم. ولهذا كان التميز فى الواقع بين الكنيسة المحلية المنشقة - التى تعنى الخارجين ولا سيما الميثودية - والتى تشغل مكانة اجتماعية أدنى «الكنيسة» التى كانت تعنى الأنجليكان. وفى الدين مثلما هو الحال فى كثير غيرها، كانت المكانة الاجتماعية تقاس ضمنًا فى انجلترا بمدى «المسافة من التاج»، والذى كان من يرتديه، تحديداً، هو قمة الهرم الطبقى.

لقد كان لا بد لشعب العهد القديم أن يولدوا فيه؛ لكى يكونوا هم الشعب المختار. وكان من الممكن أن يصير المرء يهوديًا إذا ما اعتنق اليهودية، بيد أن ذلك لم يكن أمرًا سهلاً وكان نادرًا للغاية. وفى ظل الانصهار الكامل بين الكنيسة والدولة بعد «هنرى الثامن»، كان كل مواطن إنجليزى يفترض أنه مسيحى أنجليكانى فى عرف قانون البلاد. وفى هذا الصدد لم تكن مكانة غير الإنجليزى واضحة بالمرة. ففى أيرلندا مثلاً، كانت عضوية كنيسة انجلترا - التى أعيدت تسميتها الآن كنيسة أيرلندا - تكاد تكون محصورة تمامًا فى نطاق أولئك الذين ينحدرون من أصول إنجليزية. ولم يخطر أبدًا ببال «كرومويل» أن يحول الكاثوليك فى دروغيدا أو ويكسفورد إلى الأنجليكانية بدلاً من اغتيالهم: فقد كانوا فى نظره مثل الكنعانيين الذين اغتالهم بنو إسرائيل القدماء. وفى كل من ويلز وأيرلندا تم تأسيس الفرع المحلى من كنيسة انجلترا بالقانون، وهو ما كان يعنى أن من واجب كل المواطنين أن يدفعوا الضرائب الكنسية لها - أى العشور - أيًا كانت معتقداتهم الدينية. ولم يحدث فى أيرلندا أو فى ويلز أن كان لكنيسة انجلترا أتباع كثيرون. وتم تأسيس كنيسة أيرلندا سنة ١٨٧١م كجزء من عملية التخفيف عن الكاثوليك، كما كان تأسيس الكنيسة الأنجليكانية فى ويلز سنة ١٩٢٠م كجزء من عملية مشابهة تحاول التخفيف عن المنشقين (والميثوديين بصفة رئيسية). والكنيسة الأبسكوبية الاسكتلندية كنيسة أنجليكانية، ولكنها ليست مؤسسة وليست لها روابط مع كنيسة اسكتلندا وهى كنيسة بريسبتارية (ولكنها مؤسسة).

وإلى أن جاء الإنجيليون بمذهبهم البروتستانتى الذى يصلح عالميّا، لم يكن الأنجليكان أو البيوريتان (ولا الأنجليكان البيوريتان فى الواقع) قد أظهروا اهتماماً كثيراً فى العمل التبشيرى. والواقع أن عملية تنصير الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية كانت حتى ذلك الحين قاصرة إلى حد كبير على البعثات التبشيرية الفرنسية والإسپانية الكاثوليكية، ولم يكن هناك ما يعادل سلسلة محطات البعثات التبشيرية الكاثوليكية التى كانت تمتد على ساحل كاليفورنيا، والتى أسسها المبشرون الفرنسيسكان الإسپان فى القرن الثامن عشر (ولا تزال ذكراها عالقة فى أسماء سان فرانسيسكو، ولوس أنجلوس، وسكرامنتو، و سان دييجو، وسانتا بربارا، وسانتا كلارا، وسانتا ماريا، وما إلى ذلك).

ولم يكن الاختلاف مجرد مسألة أسلوب أو شخصية؛ إذ إن البروتستانتية ذاتها كانت تمر بثورة شاملة، كانت أصولها متنوعة وغامضة إلى حد ما. وكان التحول فى التركيز من القدرية على الإرادة الحرة مجرد جزء منها فقط، بل إن الأكثر أهمية كان هو التحول من العهد القديم إلى العهد الجديد. ومعها ذهب اهتمام أكبر وتأكيد أكثر على الأهمية الخلاصية للمسيح نفسه. وربما لا تكون مصادفة بحتة أن أول ما ألهم «چون نيوتن» فى اتجاه المسيحية الإنجيلية هى قراءته فى كتاب « Immitation Of Christ» ؛ إذ كان دعوة لقدسية الحياة، وهى دعوة صارت من خصائص المذهب الإنجيلى لا سيما فى شكله الميثودى، ولكنها دعوة خلبت لب ويلبرفورس إلى حد كبير أيضًا. ومع الاهتمام المتجدد بالمسيح تدهور الاهتمام بالعهد القديم، مع تحول تجاه الطريقة الكاثوليكية القديمة التى عرفتها العصور الوسطى، فى قراءة العهد القديم باعتباره نبوءة بقدوم المسيح نفسه، بدلاً من التبشير بالحوادث السياسية فى حياة الأمم.

وتنسب «بربارا توخمان» فى كتابها «Bible and Sword» إلى البيوريتان الإنجليز فضل إرساء أسس اثنين من المبادئ الرئيسية للمجتمع الغربى الحديث، الحكومة البرلمانية والحق فى حرية العبادة. لكن الواقع أكثر ضآلة مما تشير إليه- فقد كان البيوريتان هم الذين شنقوا الكويكرز وجلدوا المعمودين، وكان

«كرومويل» هو الذى أمر رجاله المسلحين بالدخول إلى قاعة البرلمان لحله بالقوة، وهو پيوريتانى فى الأساس! . ونبذ الپيوريتان الرحمة والعفو لصالح الخصائص الأكثر حربية فى العهد القديم: ولكنهم أيضًا مثل الإسرائيليين، حسبما تقول «توخمان»: كانوا يحاربون ضد الأغراب؛ لكى يؤسسوا أسلوبًا جديدًا للحياة. وهى تقتبس من مؤرخ القرن التاسع عشر الاقتصادى «وليم كننجهام» الذى قال فى كتابه «Growth of English Industry and Commerce» سنة ١٨٩٦م إن «الاتجاه العام للپيوريتانية كان نبذ الأخلاق المسيحية وإحلال العادات اليهودية محلها». ويستمر فى القول بأن الپيوريتان اتبعوا «خطاب قانون قديم بدلاً من الثقة فيما ينطق به الضمير الذى توجهه المسيحية. . وكان هناك بالتداعى تراجع إلى نمط أدنى من الأخلاقيات التى أظهرت نفسها فى الوطن وفى خارجه».

وتستمر «توخمان» فى القول: «على الرغم من أن الپيوريتان لم يرفضوا العهد الجديد بأية حال، فإن بعض المتطرفين بينهم يرفضون ألوهية يسوع. وحتى الپيوريتان المعتدلون ضمنوا فى التماسهم الألفى إلى جيمس الأول كأحد مطالبهم ألا يطلب منهم بعد ذلك فى الكنيسة أن ينحنوا عند ذكر المسيح. وفى جهدهم لتطهير الدين من الملابس والطقوس والشعائر وما إلى ذلك، عاد المتطرفون إلى الاعتقاد فى الرب الذى لا يمكن أن يشاركه أحد ألوهيته، وهو نفس الاعتقاد الذى يعبّر عنه فى المعبد اليهودى: «اسمعى يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد».

كذلك ذكر «ماثيو أرنولد» فى كتابه «Culture and Anarchy»، أن المذهب الپيوريتانى كان إحياءً للروح العبرانية كرد فعل للروح الإغريقية التى حركت النهضة. وكان أثرها الدائم على الأمة الإنجليزية هو «إعطاءها نصيبًا قويًا من ثبات وإصرار وقوة العبرانيين. هذا التحول أوضح نفسه فى المذهب الپيوريتانى، وكان له نصيب كبير فى تشكيل تاريخنا على مدى المائتى سنة الأخيرتين».

وليس هناك شك فى أن العهد القديم مفتوح على القدرية أكثر من العهد الجديد. ولكن كون المرء إسرائيليًا كان يعنى بالضرورة أنه من المقربين إذا ما قورن بواحد من الوثنيين. ويكون المرء إسرائيليًا بالميلاد. ولا يختار المرء أن يولد

هكذا، فقد كان ذلك اختياراً لصالحه ولم يكن اختياره. وهنا كان الاعتقاد اليهودى قريبًا من القدرية الكالفينية. ولم يكن هناك مبشرون يهود، كما كان الذين اعتنقوا اليهودية قلة قليلة. ولكن هناك دائمًا يهود مارقون.

ولكن البروتستانتية الجديدة فيما بعد الپيوريتانية، والتى نادى بها هوايتفيلد ونيوتن و ويسلى و ويلبرفورس قدمت إعادة اكتشاف للعهد الجديد. ومعها فكرة المذهب الإنجيلى - أى نشر الكلمة عن طريق التبشير بها، والبحث عن متنصرين جدد أينما يكونوا. وصارت الحدود المغلقة حتى ذلك الحين للشعب المختار مثل خيمة إبراهيم فى الصحراء مفتوحة من كل الجوانب للترحيب بالأغراب. وكان التبشير حتى ذلك الحين يتم أكثر بمصطلحات التحذير من الأشياء المرعبة التى سوف يفعلها الرب إذا لم يحسن الناس سلوكهم. ولم يكن هناك قدر كبير من الحب فيه، أو ما أطلق عليه الإنجيليون المحدثون فيما بعد «المنتهى».

ومن ثم فإن أهمية المذهب الإنجيلى الذى نادى به هوايتفيلد و ويسلى كانت هائلة بالنسبة لمستقبل الإمبراطورية البريطانية. فبدون إعدادهم، لما كان لـ«ويلبرفورس» وطائفة الكافلام مثل هذا التأثير. لقد كان انتصار الإنجيليين الأنجليكان على الرق فى بداية القرن التاسع عشر هو الذى فتح حقًا أبواب التبشير المغلقة؛ إذ إن منع تجارة الرقيق صار بمثابة نقطة القفز للتوسع الثانى للإمبراطورية. فقد رأى البريطانيون أنفسهم كشعب نبيل بالقدر الذى جعلهم يحرّمون التجارة فى الرقيق، وأنهم شرفاء بحيث استمروا فى عملية حصار بحرى لهذا الغرض على مدى أربعين سنة أخرى، وأنهم يضحون لدرجة أنهم فعلوا هذين الأمرين على نحو كبدهم نفقات جسيمة، وخلصوا من هذا إلى أنهم مناسبون بالتأكيد لحكم العالم وتعليمه ديانتهم. والواقع أن مثل هذه الكلمات ـ نبيل، وشريف، ومستعد للتضحية ـ كانت هى بالضبط الدوافع النابعة من الضمير لأولئك الذين قاموا بالتوسع، واستوطنوا وحكموا الإمبراطورية. وفوق هذا وذاك كان ثمة إحساس بالواجب. وكان الأمر كما لو أن الإنجليز أحسوا بقناعة أنهم محظوظون؛ لأنهم من ذلك الجنس وتلك الأمة التى يدينون لها بدين، وكان هذا الدين كبيراً بحيث لا يمكن

الوفاء به مهما فعلوا، على الرغم من أنه تعين عليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم. ولذلك كان الموت فى سبيل القضية لا يعد شيئًا استثنائيًا: فالواقع أن كثيرين منهم تحدثوا عنه كما لو كان امتيازًا.

وحقيقة أن بعضهم أيضًا كوّنوا ثروات كبيرة أثناء العملية، وأنهم كانوا جميعًا على قناعة تامة بالتفوق الإنجليزى ـ دونما جهد ـ على كل جنس آخر. ويقول داڤيد إدواردز فى كتابه «Christian England»: «فى النهاية، ساعدت الهيبة التى تحققت بواسطة هذه الانتصارات الأخلاقية الكبيرة ويلبرفورس ورفاقه الإنجيليين على فتح أفريقيا والهند أمام العمل التبشيرى المسيحى، الذى فُهم على أنه نوع آخر من التحرير. وكان عليهم أن يركزوا فى البداية على سيراليون، التى أسسوها سنة ١٧٧٨م مستعمرة على الشاطئ، لمساعدة العبيد العتقاء ـ الذين يواجهون الفقر والإملاق أو الجريمة فى انجلترا ـ على الاستقرار فى أفريقيا كفلاحين وتجار. وكانت المستعمرة الصغيرة حول فريتاون تعانى مصائب عديدة، وتعرضت للتدمير الفعلى على أيدى فرقة عسكرية فرنسية سنة ١٧٩٤م، لكى يعاد بناؤها على يد «زخارى ماكولى» الذى كان على استعداد لأن يمضى خمس سنوات هناك حاكمًا. وبقى الإنجيليون جامدين فى دعمهم حتى حدث أخيرًا سنة ١٨٠٨م أن برهن العمل التبشيرى على أنه دائم وتم تأسيسه ـ ومع استخدام نهر عظيم هو ريو بونجاس ـ وفى السنة نفسها استولى التاج على المستعمرة. وتدريجيًا انتشرت القناعة بأن البيض يدينون بشىء ما «للقارة الداكنة» بعد كل صنوف الرعب التى تسببت فيها تجارة الرقيق، وأن الإنجيل المسيحى كان من بين البركات التى تخص الرجل الأبيض، والتى ينبغى أن يشارك فيها الأفريقيون على الرغم من العنف الذى غالبًا ما يواجههم، وعلى الرغم من المهانة التى خلفتها التجارة فى اللحم البشرى، وعلى الرغم من الأمراض القاتلة بما فيها الملاريا. وهذه البعثة التبشيرية قد زُرعت على التربة الأفريقية أثناء الحرب الكبرى ضد نابوليون».

والإصرار على المثل العليا وراء الجهد الاستعمارى البريطانى فى أفريقيا، تم توضيحه على يد الدكتور «ديڤيد ليڤينجستون»، أعظم مستكشف وتبشيرى فى

زمانه، وهو الذى كان يشارك الإنجيليين تمامًا احتقارهم للرق. فقد كان واحدًا من أشهر الرجال فى جيله، وهو مكتشف أعالى النيل، ومكتشف شلالات ڤيكتوريا وهو الذى أطلق عليها هذا الاسم؛ إذ إنه كان رجلاً أحب أفريقيا والأفريقيين وكان محبوبًا فى المقابل. لقد كان يريد أن يدخل بأفريقيا مضمار الحضارة، ولكنه لم يكن يريد غزوها. ولم يكن ليريد لها أن تُستغل وتُستنزف، ومع هذا فإنه كان مسئولاً بصفة رئيسية عن حقيقية أن ذلك كان مصيرها. وقد أعلن فى خطاب له بجامعة كامبريدچ سنة ١٨٥٧م: «إننى أتوسل إليكم لتوجيه انتباهكم إلى أفريقيا. إننى أعلم أننى فى غضون سنوات قليلة سوف أكون معزولا فى تلك البلاد المفتوحة الآن، فلا تتركوها لكى تغلق مرة أخرى. إننى أعود إلى أفريقيا لكى أحاول أن أصنع ممرًا مفتوحًا للتجارة والمسيحية، فهل ستنجزون العمل الذى بدأته...».

ورحلة ليڤينجستون الاستكشافية كانت مدفوعة بعاطفة لنشر الإنجيل وإنهاء تجارة الرقيق ـ وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا تربيته الكالڤينية الاسكتلندية الصارمة، فربما تكون كلمة «مُساقة» أقرب لوصف الرحلة. فقد اكتشف بسرعة، بغض النظر عن الإلغاء البريطانى للرق، أن الممارسة كانت منتشرة انتشارًا واسعًا، بل كانت مرضًا مستوطنًا فى الواقع، وقد أطلق عليها وصف «جرح العالم المفتوح». وكان تجار الرقيق عادة من العرب والسواحليين، وكانوا يجمعون حصيلتهم من العبيد باصطيادهم ببساطة(*). كانت بعثة اصطياد الرقيق تقوم بدورة خلال الريف الأفريقى بحيث تأسر من يصلح وتقتل من لا يصلح، ثم يساق العبيد الذين تم القبض عليهم باتجاه الشمال أو إلى ميناء مناسب على الساحل. وفى بعض

(*) هناك دراسات عديدة عن قيام السفن الأوروبية بغارات على سواحل أفريقيا الغربية لخطف العبيد وشحنهم على سفن أوروبية إلى أمريكا الشمالية للعمل فى المزارع لا سيما مزارع الجنوب. ولا يمكن تبرئة تجار الرقيق العرب من دورهم فى منطقة القرن الأفريقى والشواطئ الشرقية للقارة السوداء، ولكن الدور الأكبر لتجارة الرقيق بأعداد ضخمة كان من نصيب الحركة الاستعمارية الأوروبية والأمريكية ـ ولمن أراد الاستزادة يمكنه قراءة «العبودية فى إفريقيا» تأليف عايدة العزب موسى، مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٣ ـ المترجم.

الأحيـان لاحظ «ليـڤينجستـون» أن الريف الذى كـان يسافر خلاله مع الحمـالين العاملين فى خدمته، كان خاليًا بشكل يثير الدهشة، ومن الواضح أنه قد تم إخلاؤه منذ وقت قريب ـ لأن الناس المحليين قد فرّوا للاختباء فى الغابات، مفترضين أنه لم يكن سوى واحد آخر من صائدى العبيد. أو تقوم قبيلة بالإغارة على أراضى قبيلة أخرى، وتأسر العبيد الذين تكون على استعداد لبيعهم إلى تجار الرقيق حينما يفدون فى المرة التالية. وقد اقتنع «ليڤينجستون» بأن الرق لم يكن مجرد لعنة على القارة، فقد كان أيضًا مهمًا من الناحية الاقتصادية باعتباره مصدرًا للثروة والدخل. ومن ثم فإن القضاء على تجارة الرقيق يحتاج إلى اقتصاد بديل.

وقـد تخيل أن الكلمات الثلاث الإنجليزية التى تبدأ بحرف C وهى التـجارة والمسيحية والحضارة «Commerce, Christianity, Civilization»، يمكن أن تكون ذلك البـديل. بيـد أنه لم يكن بعيـد النظر بالقـدر الذى يكفى لأن يرى أن التجارة تعنى الاستكشاف والمتاجرة، التى تعنى السيطرة آجلاً أو عاجلاً، وكانت السيطرة بدورها تعنى الغزو. وفى النهاية كانت الطريقة الوحيدة لضمان القضاء على تجارة الرقيق هى جعلها تجارة غير قانونية وفرض القانون. وكان هذا يعنى الاستعمار.

ولكن حتى موت «ليڤينجستون» سنة ١٨٧٣م ظلت أفريقيا قارة مغلقة، القارة السوداء، أرض ملؤها صنوف من الرعب لا اسم له ووحوش خرافية. ولكن بدأت هناك فجأة وبصورة غامضة آنذاك ما يسمى «التدافع صوب أفريقيا» (وهى عبارة صُكّت سنة ١٨٨٤م على ما يبدو) عندما قررت كل الأمم الأوروپية الكبرى، فى الوقت نفسه تقريبًا، أن يكون لها نصيبها. ولكن أيًا منها لم تكن أكثر اقتناعًا من البريطانيين بمهمتهم الإلهية. وكما يصفها «توماس باكنهام»:

«فى بريطانيا أخـذ التدافع صوب أفريقيـا بهدوء فى البداية. ثم كان هناك استياء متـزايد تجاه المتطفلين. إذ كـانت بريطانيا رائدة الاستكشـاف والتنصير فى أفريقـيا الوسطى، وأحست بأن لهـا حق ملكية على معظم القارة. وعـلاوة على ذلك، كانت هناك مصـالح حيوية لبـريطانيا فى مـهب الخطر. وبوصفهـا القوة البـحرية العظمى

الوحيدة، فقد كانت بحاجة إلى منع منافسيها من عرقلة طريق البواخر إلى الشرق عن طريق السويس ورأس الرجاء الصالح. وكان هذا يعنى العمل على كل من طرفى أفريقيا.

وكان فى بريطانيا البروتستانتية، حيث بدا أن الرب وشيطان الجشع قد وجدا ليخدم كل منهما الآخر، إن كلمات ليڤينجستون ضربت أعمق الأوتار. إن الكلمات الثلاث التى تبدأ بحرف C هى التى كانت ستشفى أفريقيا».

ولكن أفريقيا لم تكن كافية، إذ كان الإنجيليون يسلطون أنظارهم على الهند منذ زمن طويل. وحتى أواخر القرن الثامن عشر، حسبما يقول «ديڤيد إدواردز»، كان من المفترض أن الإنجليز كانوا فى الهند - ببساطة - لجمع المال. والكلمة الإنجليزية «loot» (ومعناها غنيمة أو سلب) تأتى من الهند. كان الوجود البريطانى فى الهند قد حقق بالفعل لحظات من المجد. ولكن هذا تغير عندما صار جمع المال فى شبه القارة أكثر صعوبة. وشركة الهند الشرقية الإنجليزية، التى كانت بمثابة الحاكم النائب عن بريطانيا، حققت خسائر وبرهنت أنها غير قادرة على المنافسة، وحامت حولها شكوك كثيرة بالفساد (وهو الذى كان الرجال الإنجليز من أصحاب العقول السامية حتى ذلك الحين يظنون أنه نشاط قاصر على الأجانب). وقرب نهاية القرن الثامن عشر - إذ إن المحاكمة استغرقت عقداً من الزمان - كان الحاكم العام على إقليم البنغال، وارين هاستنجز، قد اتهم أمام البرلمان بالفساد، وكان معارضه الرئيسى هو إدموند بوركى أشهر برلمانى فى زمانه. وقد فشل الادّعاء، ولكن فى أثناء المحاكمة تصاعد الاهتمام فى بريطانيا بمستويات الإدارة البريطانية فى الهند (التى تدار عن طريق شركة الهند الشرقية)، وهى الإدارة التى ظهرت بصورة رثة تماماً، ومن ثم فإنه بنهاية القرن كان البريطانيون فى حالة تدعوهم إلى رفع النغمة الأخلاقية فى حضورهم ونفوذهم. وكانت سياسة هاستنجز تقوم على ألا يتدخل فى العادات والثقافات المحلية، على الرغم من أنه كان قد أتاح الفرصة لمن يريدون المقاييس الإنجليزية للعدالة. هذا الرفض المتعمد للرقى العقلى فى الهند سرعان ما واجه تحدياً من الإنجيليين الذين

قادهم مرة أخرى «ويلبرفورس» الذى كان الرقى العقلى بالنسبة له يلى الإيمان بالرب. ويكتب «إدواردز»:

«إن الاعتقاد بأن الإنجليز كانوا فى الهند لممارسة وصاية وضعتها العناية الإلهية فى أيديهم بطريقة غامضة بدأ يسود الآن. وقد لقى تشجيعًا كبيرًا من الإنجيليين الذين توغلوا فى حكومة الهند الجديدة. وكان أكثر هؤلاء تأثيرًا هو «تشارلز جرانت»، الذى كان قد توجه إلى الهند سنة ١٧٦٧م ومرّ بتجربة اعتناق المذهب الإنجيلى فى غمرة أحزانه بسبب وفاة ابنتيه الشابتين.. وصار ابنه المدرب جيدًا روبرت حاكمًا على بومباى، والروح التى حكم بها السير روبرت جرانت الهنود تتضح فى كتابته ترنيمة عنوانها: «فلتعبدوا الملك المجيد فى الأعالى»، والمقطعان الأولان منها كما يلى:

فلتعبدوا الملك

المجيد فى الأعالى

ولتنشدوا بامتنان

بقوته وحبه

درعنا وحامينا

قديم الوجود

سرادقه سناء

ويطوقه الثناء

فلتحدثوا عن عظمته

وتغنوا برحمته

فثوبه الضياء

وعرشه الفضاء

وعربات غضبه

هى السحابات الرعدية الكثيفة

وممره مظلم

على أجنحة العاصفة

وليس هناك تسجيل لتأثير ذلك على السكان المحليين. وقد سار إداريون كبار آخرون على النهج نفسه؛ فالحاكم العام اللورد «تيجنماوث» «لم يكن يخفى قناعاته الدينية» على حد قول إدواردز. وخليفته اللورد ويلسلى أعلن بوضوح أن انجلترا لها «وصاية مقدسة» تبرر ضم أو «إعلان الحماية» على جزء كبير من شبه القارة الهندية. وفى الوقت نفسه كان التصميم البريطانى على إصلاح المجتمع الهندى والأخلاقيات الهندية قد تزايد؛ بسبب القصص المتداولة عن دعارة المعابد، والمركبة الضخمة التى تسمى چوجرنوت التى كان المؤمنون بالإله كريشنا يلقون بأنفسهم تحتها لتسحقهم، وأنشطة «الثوجيس ـ Thuggees» الذين كانوا يشنقون المسافرين قربانًا للإله «كالى»، وفوق هذا كله عادة «الساتى ـ Sati» المرعبة، أى الطقس الذى تحرق فيه الأرملة حية فى جنازة زوجها الراحل.

كانت هناك صرخة عندما رفضت شركة الهند الشرقية ـ التى كانت هى المسيطرة رسميًا ـ التدخل، على أساس أن هذا التدخل يمكن أن يؤثر على أرباحها. وليست بنا حاجة إلى القول: إن النزعات الإنسانية للإنجيليين تشابكت بطريقة دقيقة مع رغبتهم فى نشر المسيحية الإنجيلية وإحساسهم بالتفوق والسمو على البشر الأدنى منهم. وهذا كله، فى زمن كانت انجلترا تنزلق فيه بعيدًا عن النزعة الدينية السائدة فى عصر الوصاية على العرش، إلى العصر الڤيكتورى الأكثر تطهرًا، والإنجيليون يتربعون فوق القمة فى خيلاء وغرور.

وحتى ذلك الحين، كان نشاط الإرساليات التبشيرية البروتستانتية فى الهند قد تُرك بشكل أساسى إلى اللوثريين الألمان، تشرف عليهم الجمعية الأنجليكانية لتحسين المعرفة الإنجليزية، كما كانت مرتبات القساوسة تدفع من شركة الهند

الشرقية. وفيما عدا هذا لم تكن الشركة ترى نفسها رأس معبر مسيحى إلى الهند الهندوسية، كما أن موظفيها لم يكونوا يريدون أن يعظهم أحد بشأن أخلاقياتهم وعاداتهم. وصارت العلاقات الجنسية غير المنتظمة مع البنات المحليات أمراً معتاداً؛ مما أدى على مر الأجيال إلى جمهرة متزايدة من الناس من أصول مختلطة عرقيّا، لم يكونوا يعتبرون هنوداً حقّا ولا إنجليزاً خالصين.

ولكن حينذاك اقتربت سنة ١٨١٣م، حينما حان وقت مراجعة ميثاق شركة الهند الشرقية؛ ورأى الإنجيليون بقيادة «ويلبرفورس» فرصتهم فى ذلك. ويستمر «إدواردز» فى سرد القصة:

«وإذا كان ذلك متوقعًا، قام أحد قساوسة الشركة، وهو كلاوديوس بوشانان، بتكريس نفسه للدعاية لصالح كل من العمل التبشيرى و «مؤسسة كنسية هندية» أكبر كثيراً لتحويل الإنجليز الذين ليس لهم رب، وعندما جاءت سنة ١٨١٣م اغتنم الإنجيليون الفرصة لضمان حق الدخول إلى الهند، ليس فقط للتجار الذين ليسوا أعضاء فى الشركة، وإنما أيضًا للأشخاص الذين يرغبون فى دخولها «بغرض تنوير الهنود وإصلاحهم» . . . ولكى يقود القساوسة الذين كانت شركة الهند الشرقية ما تزال تعينهم، ولممارسة نفوذ غير محدود على أية بعثات تبشيرية أخرى، كان لا بد من تعيين أسقف فى كلكتا ومعه ميزانية وافية قدرها خمسة آلاف جنيه استرلينى فى السنة، مع ثلاثة من المعاونين».

وقد تم تعديل الميثاق نفسه لكى يعطى الوجود البريطانى فى الهند الغرض الأخلاقى السامى الذى اضطرت الشركة إلى الاعتراف به بإعلانها: «إنه واجب على بلادنا أن تحسّن مصالح وسعادة السكان الوطنيين فى الممتلكات البريطانية بالهند، ومثل هذه الوسائل ينبغى أن تكون مستخدمة بقصد تقديم المعرفة المفيدة والتحسن الدينى والأخلاقى لهم».

وأعلن ويلبرفورس وهو يخاطب مجلس العموم فى جدل حول الميثاق الجديد أن «المسرحية تفترض شخصيتها الحقيقية. . . عندما تتولى حماية أولئك الفقراء المحرومين الذين تنظر إليهم الفلسفة من عليائها بازدراء». ووعد بأن النشاط

التبشيرى مستقبلاً فى الهند لن يحاول أن ينشر الإنجيل بالقوة. «الإجبار والمسيحية؟ لماذا يختلف هذان المصطلحان بالذات كل منهما مع الآخر؟ لأنه لا يمكن التوفيق بين الفكرتين. وفى لغة الإلهام نفسها، تمت تسمية المسيحية قانون الحرية».

هكذا كانت شخصية الإمبراطورية الرومانية الجديدة التى تأسست عند بداية القرن الذى صعدت فيه وازدهرت بحيث وصلت القمة، على حين صارت الهند جوهرة التاج الإمبراطورى. وكان «الراچ»، وهو الاسم الذى صارت الإدارة البريطانية فى العهد الڤيكتورى تُعرف به، له جاذبية إنجليزية خاصة. وكان هناك استياء، بل وكان هناك فى الواقع عصيان مسلح فى الجيش سنة ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨م عندما بدا أن الإصلاحات الغربية (وبعضها بوحى من المسيحية) قد باتت تشكل خطراً شاملاً على الثقافة الهندية. بيد أن العلاقة كانت لها جوانب إيجابية كثيرة من وجهة النظر الهندية. فقد كان المثقفون الهنود على نحو خاص مشدودين إلى دراسة القانون الإنجليزى. وحقيقة أن الإنجليز كانوا مسيحيين ـ اسميًا على الأقل ـ لم تؤد إلى الانتشار الواسع للديانة، ولكنها كانت تعنى بالفعل أن الإنجليز البروتستانت كانوا مجهزين جيدًا للسيطرة على الحلبة فى كثير من النزاعات المختلفة بين القبائل والديانات فى الهند ـ الهندوس والبوذيين والمسلمين والسيخ واليهود واليانسيين والمسيحيين السوريان وغيرهم ـ وهى نزاعات كانت دائمًا حبلى باحتمالات العنف.

وعلى وجه الإجمال كان المسلمون يفضلون حكومة بريطانية للهند عن حكومة هندوسية، والعكس صحيح تمامًا. ومع هذا فإن الحياة فى الهند كانت تبدو وكأنها فقط تشجع فى الإنجليز أنفسهم إحساسًا بتفوقهم، وهو إحساس كان يظهر بين الحين والحين فى تجليات عنصرية مشبعة بالاحتقار والازدراء. وكان هذا وثيق الصلة بوعى طبقى متطرف كان يناسب تمامًا النظام الطبقى الهندوسى، وهو نظام كان ـ لأسباب لا علاقة لها بالعنصرية الأوروبية البيضاء ـ يضع أصحاب البشرة الفاتحة فوق قمة هيراركية دينية واجتماعية، على حين يضع ذوى البشرة الداكنة فى قاعها.

والانحيازات التى تسمى الآن عنصرية كان لا بد وأن تبدو لأولئك الذين تمسكوا بها مجرد جزء صحيح من الوعى الطبقى. وكان لا بد للإنجليز فى ذلك الزمان من أن يعتبروا الجنس نظامًا يحل محل الطبقة، وكلاهما لا بد أن يكون محكومًا بالافتراضات عن العرق والدم. وقد أعطى هذا موضوعية ودوامًا للتدرج الطبقى ـ وكانت تلك صيغة مُعدّلة من القدرية. فإن يكن المرء «طيب المولد» فهذا يعنى أن يكون مباركًا فى الحياة بشخصية أخلاقية يمكن أن يعترف بها الآخرون ممن نعموا بـ «حسن المولد». ولم يكن الفقراء فقراءً فقط؛ لأن الرب أراد أن تكون لهم هذه المكانة: وإنما ولدوا لكى يكونوا فقراءً، ولم يولدوا لكى يكونوا من الطبقة الراقية. لقد كان ذلك فى دمائهم. (ليس هناك بطبيعة الحال أساس علمى لهذا؛ لأن دماء الطبقة الراقية هى دماء الطبقة الدنيا نفسها). ويحفل الأدب الڤيكتورى بأمثلة حيث يتفوق المولد الحسن على النقائض الاجتماعية، وأشهرها رواية «أوليڤر تويست» لـ «تشارلز ديكنز». وحتى فى القرن الواحد والعشرين، فإن عدم حب الطبقة العاملة الإنجليزية لأولئك الذين «يتعالون على مكانتهم» لم يختف تمامًا؛ إذ إن الإنجليز ما يزالون يمايزون فيما بين أنفسهم على أساس اللهجة، مثلاً، التى هى أكثر ما ينبئ عن العلامات المميزة للطبقة بطرق عديدة أقوى من الجنس كثيراً. ومفهوم «الدم» إلى جانب مفهوم «الأصل» قد برهنا على أنهما راسخان بدرجة مدهشة، على الرغم من حقيقة أن أى اقتراح بشأن الأساس الحقيقى لهما قد صار منذ زمن طويل مهجوراً.

والجماعات المغتربة تكون محافظة بالضرورة. وكان الإنجليز تحت حكم الراج رجعيين بدرجة خطيرة، كما أن سلوكهم تجاه السكان المحليين ـ السخرية التى كانوا يكنونها تجاه الهنود «الذين حاولوا أن يكونوا إنجليزًا» كانت لا تصدق ـ تسبب فى درجة من الاستياء بحيث إنها فى النهاية أطاحت بالإدارة الإنجليزية (الراج) تمامًا. وأحد الأفعال الطائشة الأخيرة ـ ولكنها ليست الأكثر طيشًا، للغطرسة التى مورست على الجمهور الهندى الذى كان حنقه وجموحه يتصاعدان ـ كان ذلك الذى أعقب مذبحة أرميستار سنة ١٩١٩م، وقد يصلح تلخيصًا لمواقف البريطانيين طوال عصر الراج، الذى كان قد تحجر آنذاك.

إذ إن اضطرابًا وطنيًا خطيرًا فى أرميستار - وهى مدينة فى إقليم البنجاب - استمر عدة أيام عندما قام الجنرال «ماچور داير»، القائد البريطانى المحلى، بإصدار الأوامر إلى قواته بفتح النار على جمهور كبير من المتظاهرين، فقتلوا ما بين خمسمائة وألف شخص، وكان تكتيكه بغرض إظهار الصرامة البريطانية تجاه الهنود المهيجين؛ والواقع أن أساليبه تلك أظهرت الاحتقار البريطانى للهنود بشكل عام. وفى الأحداث التى سبقت هذه المجزرة، كانت مبشرة مسيحية، اسمها «مارشيا شيروود»، كان قد تم توقيفها من جانب جماعة من الغوغاء يصيحون: «اقتلوها، إنها إنجليزية» وأسقطوها من على دراجتها. وعلى الرغم من أن صيحة واحدة من الحشد انطلقت «لا، إنها واحدة من شعب الله المختار تعلم أطفالنا وتؤدى عمل الرب»، فإن الهجمات عليها ازدادت جنونًا بحيث باتت حياتها معرضة للهلاك. وفى نهاية الأمر تم إنقاذها على أيدى الهنود الأصدقاء، وتم إخفاؤها عن الغوغاء، ونقلها بعد الظلام إلى مكان آمن.

وإذ سمع الجنرال «داير» بهذه الإهانة التى لحقت بامرأة إنجليزية بريئة، أعلن أن الحارة التى حدث فيها الهجوم ستكون أرضًا مقدسة. ولكى يفرض على الجماهير الهندية أهمية احترام النساء البيض أمر الحراس البريطانيين - والحراب مثبتة فى بنادقهم - أن يقوموا بدوريات فى الحارة التى وقع فيها الهجوم، ثم أعلن أن أى هندى يريد أن يمر من الحارة - التى كان طولها حوالى مائة وخمسين ياردة - عليه أن يزحف على بطنه فى التراب (وكانت قذرة جدًا مع الكميات الكبيرة من مخلفات الناس). هذه المهانة لحقت بمئات من الهنود الأبرياء، وبينهم عدد ممن ساعدوا على إنقاذ حياة الآنسة «شيروود». وتمت إقامة تصليبة خشبية فى المنتصف، وحوكم ستة من الشباب - ربما كانوا وربما لم يكونوا من الغوغاء الذين هاجموا المرأة - وتم جلدهم علنًا، وصارت حكاية «حارة الزحف» شائعة فى كل أنحاء الهند وجميع أرجاء الدنيا، وكان بسببها وكذلك بسبب إطلاق النار بشكل متهور على المتظاهرين أن أعفى «داير» من منصبه بأوامر من حكومة لندن. وكانت الجمهرة الإنجليزية فى الهند متضامنة فى تأييدها له واستشاطوا غضبًا لطرده، فقد كانوا يظنون أن فكرة «حارة الزحف» فكرة صائبة بشكل فريد.

هكذا سخر الراج فى النهاية من حلم ويلبرفورس الإنجيلى بـ «هند» مسيحية إنسانية، وربما كان إخفاق هذا الحلم راجعًا إلى أحد تفاصيل حياة ويلبرفورس نفسه لم يمارس بشأنها النقد الذاتى بشكل كاف - وهو إيمانه بالامتياز والثروة والحسب والنسب - باعتبارها جوانب مقدرة من الرب فى البناء الاجتماعى الطبقى الإنجليزى. ومثلها مثل أى شىء، أدت هذه الرذائل الإنجليزية الكبرى إلى سقوط الراج، مثلما أدت بالفعل إلى تحويل السكان المحليين الوطنيين ضد المستوطنين البيض وحكامهم الاستعماريين فى جميع أنحاء أفريقيا وفى كل مكان آخر. وربما يرضى شعب ذو كبرياء بأن يُحكم، ولكنه لا يرضى أن يكون الثمن الإهانة والتحقير.

ومع هذا فإن الهند جنت الكثير من الوجود البريطانى، وراقت لها اللغة الإنجليزية، وحققت الديموقراطية البرلمانية، وأعجبتها لعبة الكريكيت، كما حققت حكم القانون الذى استمر وازدهر، على الرغم من الصعوبات الهائلة فى بعض الأحيان. وسيكون من المستحيل تحديد «هوية هندية» لم تأخذ فى اعتبارها تمامًا هذا الميراث البريطانى - ولا سيما اللغة الإنجليزية أساسًا - بما فى ذلك التجربة التكوينية المتمثلة فى خلع ذلك النير الاستعمارى فى خضم معركة أخلاقية أساسًا، كسبها الجانب الذى كانت لديه الأسلحة الأفضل. وقد تمت إلى حد كبير دونما إراقة الدماء (على الرغم من أن دماء كثيرة أريقت فى الصراع المرير بين المسلمين والهندوس فى زمن الاستقلال). وإلى حد كبير تخلوا عن (أو كانوا مجبرين على التخلى عن) الملامح الأكثر بربرية فى المجتمع الهندوسى التى كانت جرس إنذار للڤيكتوريين الأوائل، مثل حرق الأرامل (الساتى). وعلى الرغم من أن المسيحية كديانة رسمية لم تحقق سوى نجاح قليل، فإن كثيراً من القيم التى استمدها الاستعماريون من المسيحية وطبقوها فى الهند تم استيعابها بنجاح. وكانت المدارس المسيحية ناجحة بشكل خاص فى أوساط الطبقات العليا من الهندوس. وربما كان ويلبرفورس أكثر نجاحًا مما كان يبدو فى البداية؛ إذ إنه أصلح السلوك الهندى. كما أن الديانة الهندوسية - فى الوقت نفسه - قد برهنت مرة أخرى على عبقريتها فى التعلم من الاتصال مع الثقافات والنظم الأخرى، محافظة على أصولها الجوهرية على حين توائم ممارساتها.

وكان الاقتناع بأن الحضارة الإنجليزية تسمو فوق أية حضارة أخرى مرتبطًا بشكل وثيق مع فكرة أن الإنجليز هم شعب الله المختار. ففى الشئون الدولية كان لهذا جانبان؛ فقد كانت حالة «إن من يتحدى الرب يتحدى انجلترا» أو حالة «إن من يتحدى انجلترا إنما يتحدى الرب». وكانت الحروب النابوليونية مثالاً صارخًا على الحالة الثانية؛ إذ إن انجلترا وجدت نفسها الأمة القائدة التى لديها نموذج ملكى وأرستقراطى للمجتمع، وهو نموذج رفضه الفرنسيون باعتبار النظام القديم. وكان هدف نابوليون أن ينشر الأفكار الثورية الفرنسية فى جميع أمم أوروبا من خلال النفوذ السياسى، ومن خلال الإرهاب العسكرى ومن خلال الغزو. ولأن الاعتقاد كان سائدًا بأن العناية الإلهية حاسمة فى مثل هذه الأمور، فإنه كان ينبغى لبريطانيا أن يكون الرب فى جانبها لكى تتمكن من هزيمة نابوليون. وقد أحست انجلترا أن عليها واجبًا يقضى بأن تستخدم قوتها العسكرية فى الدفاع عن شكل من الحكومة يعتبره الإنجليز شكلاً قدّره الرب. هذه هى الحجة التى أشرنا إليها من قبل والتى استخدمها أسقف «دورهام» للقضاء على تجارة الرقيق، وكانت تستخدم بانتظام فى سياقات أخرى.

والمبدأ المقابل «إن من يتحدى الرب يتحدى انجلترا» - كان أحد العوامل التى تسببت فى نشوب حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦م) التى وضعت بريطانيا وفرنسا والإمبراطورية العثمانية ضد روسيا من أجل السيطرة على موانئ البحر الأسود. وكانت المسألة الرئيسية هى الرغبة الروسية فى أن تصبح حامية الحقوق الدينية للمسيحيين، والأرثوذكس خاصة، من رعايا الدولة العثمانية (المسلمة). وكان هذا يعنى أن روسيا ستكون القوة المهيمنة فى الأراضى المقدسة، وسيكون بمقدورها أن تسيطر على الأماكن المقدسة، والمواقع والمزارات التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس وليس فقط تلك الموجودة فى القدس، وهو ما كان بمثابة إنذار للبريطانيين البروتستانت.

ولأن روسيا كانت تعارض المصالح البريطانية على اتساع العالم، وأيضًا لأن الفكرة الشائعة عنها أنها كانت متخلفة وخاضعة لحكم مستبد، كانت هى البطة

السوداء المفضلة لدى الصحافة البريطانية . إذ كان التهديد الروسى بالسيطرة على فلسطين، أو على الأقل تلك الأجزاء والأماكن التى تخص المسيحيين فى فلسطين، يُعتبر تهديداً مباشراً للمصالح البريطانية، التى كانت بداهة بالنسبة للرجل الإنجليزى فى منتصف القرن التاسع عشر، هى مصالح الرب. ومن الغريب أنهم لم يهتموا كثيراً بأن بلداً مسلماً يحكم فلسطين، كما أن فرنسا، برغم كونها كاثوليكية، كانت مقبولة حارسة للأماكن المقدسة أكثر من روسيا (ولم يكن هذا يعنى أن الإنجليز قد صاروا متساهلين مع المذهب الكاثوليكى، فقد كانوا أبعد ما يكونون عن ذلك). ولكن البريطانيين كانوا يتوددون بلطف إلى الحكّام العثمانيين، واضعين نصب أعينهم الاستيلاء تدريجيّا على فلسطين (كما كانوا قد استولوا على مصر تدريجيّا). ولم تكن روسيا جزءاً فى خطة مثل هذه.

ثم حدث فى زمن أقرب إلى العصر الحالى، أن كان الصراع غالبًا ما ينشب بين الطائفتين المسيحيتين اللتين اعتبرتا أنفسهما مسئولتين عن حماية الأماكن المقدسة - الروم الأرثوذكس واللاتين الكاثوليك. واندلعت منازعات كبيرة، على حين كانت المجادلات بشن الأحقية والأسبقية تتحول إلى العنف أحيانًا. وبعض الأماكن ذات القداسة فى الأرض المقدسة مثل الضريح المقدس الذى يقال إن يسوع قد دُفن فيه ما بين الصلب والقيامة كانت تحت إدارة مشتركة، والبعض الآخر مثل كنيسة المهد كانت أرثوذكسية أساسًا، وبعضها كانت تحت السيطرة الكاثوليكية - وكان الرهبان الفرنسيسكان يعينون من قبل البابا. (ومع نهاية القرن التاسع عشر، وبفضل الخرائط البصرية التى أعدها الچنرال جوردون، صار للپروتستانت واحد على الأقل من الأماكن المقدسة التى تخصهم، وهى ما تسمى «مقبرة الحديقة» التى زعم «جوردون» أنه اكتشفها بملاحظة أن أحد الخطوط الكنتورية على خريطة القدس كان يبدو وكأنه على شكل جمجمة. وبحيلة غريبة، صار الجيش البريطانى هو المسئول رسميّا عن وضع خرائط فلسطين تحت الحكم التركى. وإذ كانت تبدو مقبرة أشبه بالكتاب المصور منها بالضريح الواضح، كانت تحظى بشعبية خاصة لدى السائحين الأمريكيين. كان «جوردون» پروتستانتيّا مخلصًا، وكان نجاحه فى الكشف عن «المقبرة الحقيقية»، بالنسبة للإنجيليين فى العصر

الڤيكتورى، هو الدليل الذى كانوا بحاجة إليه على موافقة الرب عليه وعلى الأمة البريطانية).

وهكذا فإن السماح للروس بأن يتولوا مسئولية الإشراف على فلسطين كان سيشكل تهديداً خطيراً على الرهبان الفرنسيسكان، الذين كان البريطانيون يفضلونهم فى هذه المناسبة. وحسبما تقول بربارا توخمان فى كتابها «Bible and Sword» : «كان النزاع على الأماكن المقدسة الذى تسبب فى حرب القرم من أكثر الأسباب سخافة فى نشوب حرب كبرى على مر التاريخ». ولكن حسبما توضح هى أيضًا، فإنه يدخل ضمن السياق الأكبر للخطط البريطانية طويلة المدى فى فلسطين لكى تساعد على ترحيل اليهود إليها، وهى رغبة بلغت ذروتها فى إعلان بلفور ١٩١٧م والانتداب البريطانى بعد ذلك بوقت غير طويل.

كان وريث التراث الإنجيلى لـ «وليام ويلبرفورس» هو اللورد «شافتسبرى»، المعروف فى الجزء الأول من حياته باسم اللورد «آشلى». وكان واحداً من أكثر السياسيين تأثيراً فى زمانه ـ وقيل إن الأساقفة كانوا غالبًا ما يعينون بناء على مجرد توصية شخصية منه إلى رئيس الوزراء. وشن حملات بلا كلل لمعارضة الحركة الأنجلو ـ كاثوليكية فى كنيسة انجلترا، بل إنه جعل البرلمان يجرّم بعض الممارسات الطقوسية مثل رسم علامة الصليب، والتى كانت مرتبطة حتى ذلك الحين بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وكانت قناعته بأن الإنجليز هم شعب الله المختار راسخة قوية، كما أنه تأثر بالتصاعد فى التوقعات الألفية ـ بين الإنجيليين الإنجليز فى الجزء الأخير من العصر الڤيكتورى، وهى مزيج حاذق من نبوءات مختلفة مأخوذة من سفر دانيال ورؤيا يوحنا وغيرهما، وكان الشائع على نطاق واسع أنها تحدد شروطًا بعينها ستكون ضرورية قبل حدوث الحادثة الألفية ـ أى عودة المسيح.

ويرجع اهتمام البروتستانت بتنصير اليهود إلى القرن السابع عشر، حينما قابل المنفيون البيوريتان الإنجليز اليهود فى أمستردام، وتأثروا بإخلاصهم فى أسلوب حياتهم لتعاليم العهد القديم. وتحت حكم «أوليڤر كرومويل» تم رفع المرسوم

الذى صدر فى العصور الوسطى بمنع اليهود من دخول انجلترا، وشوهدت أول مجموعة صغيرة من اليهود فى لندن. وحتى فى ذلك الوقت، كان أحد الأسباب فى تشجيع اليهود على القدوم إلى انجلترا هو تنصيرهم، وذلك تلبية لأحد الشروط الضرورية للمجىء الثانى المسيح.

وكان «شافتسبرى» يشارك فى هذه الرغبة، بل إنه كان يلبس خاتمًا ذهبيًا منقوشًا عليه كلمات تقول: «صلوا من أجل سلام القدس». ولكنه كان يرى الأمرين ـ عودة اليهود إلى فلسطين، وتحويل اليهود إلى المسيحية ـ يحدثان سويًا. ومن ثم فإن رغبته المضطرمة فى أن تفرض السياسة الخارجية البريطانية عودة اليهود، ودعمه القوى أيضًا لفكرة إقامة أسقفية فى القدس، حيث يمكن لكنيسة انجلترا أن تقوم بتنصير اليهود. كان هذا هو الامتداد المنطقى لجمعية «نشر المسيحية بين اليهود» التى أقامها الإنجيليون فى لندن، والتى يرجع تاريخها إلى زمن «ويلبرفورس».

وتقول «بربارا توخمان» عنه : «مثل كل الرجال الذين تستحوذ عليهم عقيدة مكثفة، أحس اللورد شافتسبرى بلمسة الرب القوى على كتفيه، بأنها توصية بأن يعمل هو شخصيًا من أجل «الحادث العظيم». وبصحبة ڤيكتوريين كبار آخرين لم يساوره الشك أبدًا فى أن الأدوات البشرية يمكن أن تحقق الأغراض الإلهية. . .

فقد كان الشك الذى ميّز القرن الثامن عشر قد أفسح الطريق أمام التدين الڤيكتورى، وعادت عقلانية القرن الثامن عشر تستسلم من جديد أمام الوحى. وكضرورة لازمة لعودة النزعة العبرانية، نجد اللورد «شافتسبرى» يؤيد إقامة إسرائيل... وعندما يرجع المسيحيون إلى سلطة العهد القديم كانوا يجدون أنه يتنبأ بعودة شعبه إلى القدس، ويجدون أن من الواجب عليهم المساعدة فى تحقيق هذه النبوءة».

والواقع أن العهد القديم، والعهد الجديد يتنبآن بهذا. وهكذا، فإن نقطة كون انجلترا الشعب المختار لم تكن تعنى فقط أن لديهم حضارة أسمى وديانة أرقى جعلتهم يشعرون أن من واجبهم أن يشركوا فيها من هم أقل حظًا؛ وإنما كانت أيضًا بالنسبة للإنجيليين الذين كان لهم نفوذهم فى السياسات الإنجليزية، أمرًا لا يقل عن

تحقيق نهاية الزمان وبداية حكم الرب. وربما تكون إسرائيل القديمة عصا الخلاص في الأيّام الباكرة قبل المسيح، بيد أن هذه العصا مودعة الآن في لندن بالتأكيد.

ترى ماذا كانت تلك النبوءات التي أثرت على الأحداث بمثل هذه القوة؟ إذا ما وضعنا في اعتبارنا أنها كانت أدوات استخدمت في إعادة اليهود إلى أرض تسمى الآن إسرائيل من جديد، فإن هذه النبوءات تستحق دراسة أكثر تأنيًا - حتى على الرغم من أن البحوث والدراسات المسيحية الحديثة - خارج نطاق دوائر الأصولية الأمريكية الضيقة التي تستوعب ذاتها.

وكل من العهد القديم والعهد الجديد غنيان في المادة التي تتنبأ بنهاية العالم، ومن ثم، فإن هناك مزيجًا لا يستهلك من نصوص النبوءات التي يمكن استحضارها سويا للتنبؤ بشيء في المستقبل. ولا بد أن قرّاء الكتاب المقدس في القرن التاسع عشر كانوا سيستطيعون أن يميزوا هذه النصوص على الأقل، حتى ولو لم يفهموها تمامًا:

«وفي أيّام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبدًا وملكها لا يُترك لشعب آخر وتسحق وتفني كل هذه الممالك، وهي تثبت إلى الأبد» (دانيال ٢ : ٤٤).

«والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قديسي العلي. ملكوته ملكوت أبدي وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون» (دانيال ٧ : ٢٧).

«وفي ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت، وفي ذلك الوقت ينجي شعبك كل من يوجد مكتوبًا في السفر. وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور.

أما أنت يا دانيال فاخف الكلام واختم السفر إلى وقت النهاية. كثيرون يتصفحونه والمعرفة تزداد» (دانيال ١٢ : ١-٤).

«ويكرز ببشارة الملكوت هذه فى كل المسكونة شهادة لجميع الأمم . ثم يأتى المنتهى ، فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس . ليفهم القارئ» (إنجيل متى ٢٤ : ١٤ـ١٥) .

«فإنى لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا هذا السر . لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء . إن القساوة قد حصلت جزئيًا لإسرائيل إلى أن يدخل ملؤ الأمم . وهكذا سيخلص جميع إسرائيل كما هو مكتوب سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب . وهذا هو العهد من قبلى لهم متى نزعت خطاياهم» (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١١ : ٢٥ـ٢٧) .

«وتكون علامات فى الشمس والقمر والنجوم . وعلى الأرض كرب أمم بحيرة . البحر والأمواج تضج . والناس يغشى عليهم من خوف وانتظار ما يأتى على المسكونة ؛ لأن قوات السموات تتزعزع . وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتيًا فى سحابة بقوة ومجد كثير . ومتى ابتدأت هذه تكون فانتصبوا وارفعوا رءوسكم لأن نجاتكم تقترب» (إنجيل لوقا ٢١ : ٢٥ـ٢٨) .

«ورأيت ملاكًا نازلاً من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده . فقبض على التنين الحية القديمة الذى هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة وطرحه فى الهاوية وأغلق عليه وختم عليه حتى لا يُضل الأمم فيما بعد حتى تتم الألف سنة وبعد ذلك لا بد أن يحلّ زمانًا يسيرًا .

ورأيت عروشًا فجلسوا عليها وأعطوا حكمًا ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة» (رؤيا يوحنا اللاهوتى ٢٠ : ١ـ٤) .

[وهذا هو مصدر كلمة «الألفية» التى لم تكن تشير أصلاً إلى تواريخ بأرقام ذات ثلاثة أصفار ، ولكن إلى حكم الألف سنة للمسيح بعد مجيئه الثانى] .

وهكذا حشد «شافتسبرى» التأييد لعودة اليهود إلى إسرائيل. وتلخص «بربارا

توخمان» طموحاته على أنها كانت من أجل «إسرائيل أنجليكانية تعيد بناءها انجلترا البروتستانتية، وفى ضربة واحدة تزعج البابوية وتحقق النبوءة، وتضمن خلاص البشرية».

وليس هذا إيحاء بأن كل سكان انجلترا كانوا أسرى هذه الفكرة. فالواقع أن شافتسبرى وتابعيه الإنجيليين كان يُنظر إليهم، فى الدوائر الفكرية فى لندن بالتأكيد، على أنهم رجعيون معادون للتقدم بهم مس من الفانتازيا. فمن بين اهتمامات شافتسبرى الإنسانية العديدة كان اهتمامه بإصلاح القوانين الخاصة بالأمراض العقلية، التى كانت تسمى الجنون آنذاك. وكما هو الحال فى مجالات أخرى عديدة للإصلاح استحوذت على اهتمامه العاطفى، نجح فى أن يضفى لمسة إنسانية على التشريع القاسى الأخرق الذى كان يعامل المرضى عقليّا باعتبارهم موضوعات للاحتقار أو للسخرية. وباعتباره الرائد فى هذا المجال، كان رئيس «لجنة الجنون» الرسمية، التى كان مهمتها أن تحدد مَن المجنون ومن السليم عقليّا. وفى أحد الأيام جاءت أمامه حالة امرأة، قيل عنها لإثبات جنونها: إنها تؤيد «جمعية تنصير اليهود»، وردّ عليهم «شافتسبرى»: «هل أنتم مدركون أننى رئيس هذه الجمعية؟». ولا بد أنه كان يعرف أن الإنجيليين الذين كان هو رئيسهم كانوا يعتبرون بشكل عام عصبة سخيفة من المتحمسين. إذ كانوا هم، على أية حال، الذين أعطوا العصر الڤيكتورى سمعته فى الحشمة والتطهر، وهم الذين ألهبوا غضب المعادين للدين من أمثال «توماس هكسلى».

وقد عاشت أفكار شافتسبرى عن عودة اليهود بعد موته. وتصف بربارا توخمان فى كتاب «Bible and Sword» كيف أن هذه الأفكار كانت فى خلفية السياسة الخارجية البريطانية فى الشرق الأوسط على مدى جيل، بينما كانت بريطانيا تتلوى وتلتف بطريقتها التقليدية ؛ لكى تستخرج شيئًا لنفسها من الصراعات الإقليمية، ولا سيما بين الروس والإمبراطورية العثمانية ولكن مع وجود ألمانيا وفرنسا أيضًا كلاعبين مهمين. وقد كان واضحًا أن نهاية السيطرة العثمانية على مناطق خارج تركيا نفسها ليست بعيدة: فقد كان ينظر إليها بالفعل على أنها «رجل أوروبا

المريض». وظهر عدم الاستقرار هذا فرصة، ولكن فرصة لماذا؟ العودة اليهودية إلى فلسطين لم تكن هى النتيجة المحتملة آنذاك. وكان واضحًا أن اليهود أنفسهم لم يكونوا مهتمين بهذا: واليهود البريطانيون على وجه الخصوص لم يعجبهم إعلان بلفور سنة ١٩١٧م وحاولوا إيقافه.

ولكن مجموعة من العوامل كانت قائمة بحيث تجعل منه أمرًا معقولاً، وفيها تأييد شافتسبرى، والوقت الذى أمضاه فى إدارة السياسة الخارجية البريطانية بصفته وزير الخارجية فى حكومة دزرائيلى، وهو ما كان عاملاً ذا أهمية كبرى؛ لأنه فى تلك الأثناء كانت معاداة السامية تتصاعد بشكل واضح، ليست فقط بما صحبها من فتن وقلاقل فى روسيا والقلق والاضطراب فى پولندا، حيث كانت الجماعات اليهودية المحافظة تعيش حياة تقليدية تكاد تكون قبلية، ولكن أيضًا فى فرنسا وألمانيا حيث كانت الأفكار اليهودية الأكثر تحرراً عن الذوبان فى المجتمعات كحل لمعاداة السامية موضع اختبار - وتعانى الفشل. وهكذا، كانت قطاعات كبيرة من الرأى فى أوروبا - فالمعادون للسامية فى الكنيسة والدولة، واليهود الليبراليون والتقليديون، والمسيحيون الإنجيليون المتعاطفون مع اليهود، والديپلوماسيون البريطانيون المتطلعون إلى إبعاد روسيا وألمانيا - قد صارت مدركة «للمشكلة اليهودية» بطريقة لم تحدث من قبل.

وفى الوقت نفسه فإن الرأى الدينى اليهودى الذى كان حتى ذلك الحين يأخذ بوجهة النظر القائلة بأن أية عودة إلى الأرض الموعودة إنما هى بيد الرب وحده، بدأ ينفتح على إمكانية تناول النبوءة الخلاصية على أساس مبدأ «افعلها بنفسك». فربما أمكن المساعدة فى تحديد المصير اليهودى بقدر بسيط من التنظيم. ولهذا تم إقناع الحكومة العثمانية بأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين ربما تكون فى صالح الاقتصاد المحلى. ومن كل هذه العوامل، بالإضافة إلى حلم سياسى من لدنهم، بنى مؤسسو الصهيونية حركة سياسية كانت تهدف من ناحية إلى تنظيم ورعاية الاستيطان اليهودى فى فلسطين (عن طريق شراء الأراضى إلى حد كبير)، ومن ناحية أخرى، التطلع إلى بناء وطن يهودى. وعند هذه النقطة كانت الصهيونية

حركة علمانية، وكان ذلك راجعًا بدرجة كبيرة إلى أن الرأى الدينى اليهودى كان ما زال يرى «الانتظار اعتمادًا على العناية الإلهية». ولذلك لم يكن هناك هدف أيديولوچى واضح للجمع بين الشعب اليهودى المختار والأرض الموعودة لليهود سوى من جانب الجيل التالى لـ «شافتسبرى» من الإنجيليين الذين كانوا يشغلون مناصب عليا فى المؤسسة البريطانية. فقد كانت لهم أچندتهم الخاصة، التى لم تكن يهودية بالمرة بحفز المجىء الثانى للمسيح عن طريق إعادة اليهود إلى إسرائيل وتحويلهم إلى المسيحية. وكانت تلك أچندة لشعب بروتستانتى إنجليزى مختار، ولم تكن لشعب يهودى.

بيد أن الإنجليز لم يكونوا وحدهم ؛ إذ إن الچنرال «چان سموتس» ، على الرغم من أنه حارب إلى جانب البوير ضد البريطانيين فى جنوب أفريقيا ، قد دُعى إلى دمج الإسهامات الإمبراطورية وإسهامات الكومنولث فى المجهود الحربى البريطانى فى الحرب العالمية الأولى ، بل إنه صار عضواً فى وزارة الحرب الداخلية المصغرة برئاسة لويد چورچ ، كان يوجّه الحملة . ومن ثم كان له نفوذ عظيم على القرارات التى تؤثر على السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط ، وفى مرحلة ما ، دُعى إلى قيادة القوات البريطانية فى المنطقة .

كانت السياسة الوطنية للبوير قائمة على أساس المبادئ الكالڤينية الصارمة ، وكانت لها صيغتها الخاصة من أسطورة الشعب المختار . ففى ثلاثينيات القرن التاسع عشر انطلق البوير فى مسيرتهم العظمى على الأقدام عبر مئات الأميال فى بلاد ليست لها خارطة ليهربوا من البريطانيين ، وعندئذ وفيما بعد رأوا أنفسهم مثل بنى إسرائيل القدماء الذين قادهم موسى هربًا من ظلم فرعون (أى البريطانيين) الذين كانوا محاصرين بالكنعانيين (الأهالى السود) من كل الجوانب حتى وصلوا إلى الأرض الموعودة (الترنسفال).

ويقرر «ديڤيد فرومكين» فى كتابه «A peace to End All Peace» :

«وباعتباره من البوير العارفين بالكتاب المقدس، أيد «سموتس» بقوة الفكرة الصهيونية حينما أثيرت فى الوزارة. وحسبما أوضح هو فيما بعد، كان الناس فى

جنوب أفريقيا ولا سيما السكان الهولنديون الأقدم قد تربوا بشكل يكاد يكون تامّا على التراث اليهودى. وكان العهد القديم.. قد صار هو العمود الفقرى للثقافة الهولندية هنا فى جنوب أفريقيا». فهو مثل لويد چورچ قد تربى على الاعتقاد بأنه «سوف يأتى اليوم الذى تتحقق فيه كلمات الأنبياء وستعود إسرائيل إلى أرضها». وكان يوافق لويد چورچ تمامًا على أن الوطن اليهودى يجب تأسيسه فى فلسطين تحت الرعاية البريطانية».

هناك علامتان فاصلتان أمامنا؛ وعد بلفور فى نهاية سنة ١٩١٧م، والذى وعد بالتأييد البريطانى لإقامة وطن يهودى، وثانيتهما الانتصار العسكرى البريطانى على الجيش التركى تحت قيادة الچنرال «اللنبى» سنة ١٩١٨م، وهو الذى وضع فلسطين تحت السيطرة العسكرية البريطانية، ومن ثم أعطى البريطانيين الفرصة التى لم تكن فى الحسبان لتضع إعلان بلفور موضع التنفيذ. وكان للإعلان آباءٌ كثرٌ - فحتى الرئيس الأمريكى «وودرو ويلسون» استشاره «سموتس» فى مسودة الإعلان - ولكن الرجل الذى حمل اسمه وحده كان وزير الخارجية البريطانى (ورئيس الوزراء السابق) فى الحكومة الائتلافية زمن الحرب التى رأسها «لويد چورچ». وتقول بربارا توخمان عن دوره:

«فى بلفور كان الدافع من الكتاب المقدس أكثر من كونه إمپرياليًا. وإذا كان يمكن القول بأن ثقافة انجلترا المستمدة من الكتاب المقدس لها أى معنى فى تخليص انجلترا لفلسطين من حكم الإسلام، فإن هذه الثقافة يمكن تلخيصها فى بلفور. وعلى الرغم من أنه كان عكس اللورد شافتسبرى، ولم يكن متحمسًا وإنما شكاكًا، ولم يكن متحمسًا دينيًا ولكنه كان متشائمًا فلسفيًا، ومع هذا فإنه كان متشربًا بقوة، مثل الإنجيليين والپيوريتان، لعبرانية الكتاب المقدس. شعر بلفور الذى كان منغمسًا فى الكتاب المقدس منذ الطفولة، باهتمام خاص بـ «أهل الكتاب». وحسبما تقول ابنة أخته ورفيقته وكاتبة سيرته، مسز دوجدّال، كان ذلك اهتمامًا على مدى الحياة يرجع بأصوله إلى تدريب أمه له على العهد القديم ونشأته الاسكتلندية. وعندما شب عن الطوق نما أيضًا إعجابه الفكرى بجوانب معينة من الفلسفة والثقافة

اليهودية وبدت له مشكلة اليهود فى العالم الحـديث ذات أهمية بالغة. وكان دائمًا ما يتـحدث عن هذا بشـغف، وأنا أتذكر فى الطفـولة أننى تشـربت منه فكرة أن الديانة المسـيحيـة والحضارة الـمسيـحية تدين لليـهودية بدين لا يقـدر، وتم رد الدين لها بشكل سيئ وعلى نحو يدعو للخجل».

ولم تكن دوافعه ألفية بالتالى؛ إذ إنه لم يكن يفكر فى القدوم الثانى للمسيح، وإنما كان يسدد دينًا فحسب. كما أن إعلانه (وعد بلفور) لم يكن جهدًا للتخفيف من نقص الأسيتون و«حاييم وايزمان»، الزعيم الصهيونى الذى كان أيضًا باحثًا كيميائيًا بارزًا (حسبما اقترح لويد چورچ فى مذكراته). كما أن ذلك لم يكن فى الحقيقة زلفى إلى الرأى العام اليهودى الأمريكى، الذى كان فى ذلك الوقت معاديًا للمشروع الصهيونى برمته. وبالنسبة لـ «بربارا توخمان» كان الدافع الأكثر ترجيحًا على الجانب البريطانى كان يقترب من القدس. وكانت بريطانيا فى حاجة إلى قصة مقنعة فيما يتعلق بما سوف تفعله بالأرض المقدسة التى كانت على وشك أن تغزوها (أو تحررها):

«إعلان أن بريطانيا سوف تدخل فلسطين كوصية من أجل أصحابها الذين ذكرهم العهد القديم، سوف يحقق هذا الغرض بشكل يدعو إلى الإعجاب. هذه الحركة، وهى أبعد ما تكون عن الزيف والسخرية، كانت أساسية للضمير البريطانى. إذ لم يكن هناك أى تقدم فى مسيرة بريطانيا الإمبراطورية دونما قضية أخلاقية، حتى ولو كانت الذريعة مجرد اغتيال مبشر أو إهانة وجّهَهَا أحد السكان المحليين إلى ممثل التاج. كما كانت هناك ضرورة أكبر لقضية أخلاقية عندما كان الأمر يتعلق بالأرض المقدسة، التى كانت من بين كل الأماكن على الأرض هى التى ترتبط بأثمن الروابط وأغلاها فى ذهن الناس. إن غزو فلسطين سوف يكون الأكثر دقة وخروجًا على العادة بين الإنجازات الإمبراطورية، وحسبما أشار «اللنبى» حينما ترجّل عن فرسه عند بوابة دمشق لكى يدخل المدينة المقدسة ماشيا».

وفى ذلك الحين كان إعلان بلفور قد صدر. وقُيِّض له أن يكون الأساس

الواضح للانتداب الذى فرضته عصبة الأمم سنة ١٩٢٢م، والذى أدارت بريطانيا بمقتضاه الأراضى الفلسطينية حتى أعادت الانتداب ثانية إلى الأمم المتحدة التى خلفت عصبة الأمم، عند إعلان مولد إسرائيل دولة مستقلة سنة ١٩٤٨م. وقد تمثلت الصعوبة فى أن البريطانيين كانوا قد أظهروا شيئًا مختلفًا للعرب، ولم يكن بوسعهم أن يبقوا مخلصين لكل من الجانبين (على الرغم من أن الإعلان كان قد أشار إلى هذا الاتجاه) ويقول الإعلان:

«إن حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين، وسوف تبذل ما فى وسعها لتسهيل إنجاز هذا الهدف؛ إذ إن من المفهوم تمامًا أنه لن يتم فعل شىء يضر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية فى فلسطين، أو الحقوق والمكانة السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد آخر».

وربما تكون القضية هى أن الخطوات النهائية تجاه الإعلان وتبنى الانتداب على فلسطين قد اتخذت لأسباب أخلاقية وليس لأسباب ألفية - أى أسباب بلفور وليست أسباب شافتسبرى. ولكن بدون مناورات الأخير لتحريك السياسة الخارجية إلى حيث كانت فى نهاية القرن، فإن الظروف ستكون مختلفة لدرجة أن مثل هذا الإعلان سيكون غير مقنع (أو عبثيًا). ومكانة بلفور لا تتلو مكانة شافتسبرى فى الزمن فقط، ولكن الأول صار هو الشرط الأولى للثانى. **وفى خيال الإنجليز، كان الرب ما يزال له غرض لصالح الأمة باعتبارها قوة حضارية وشرطيًا فى العالم، تقوم بدور من يصحح أخطاء الآخر، ومن يحمل ما أسماه روديارد كيبلينج بطريقة نصف ساخرة «عبء الرجل الأبيض». وسواء كانت ستحفز فى النهاية القدوم الثانى للمسيح أم لا، فإن إعادة اليهود إلى إسرائيل كانت عملاً مناسبًا للإنجليز.**

وفى كتابه «The Church of England and the First World War» يسجل «آلان ويلكنسون» أن:

«كانت حرب القرم هى آخر حرب إنجليزية تبدأ بإعلان الصيام العام، فأثناء الحرب أدت الكوارث العسكرية إلى القيام بصيام عام آخر. وتم إعلان رأيين فى

الأهمية الروحية للحـرب من جانب القساوسة: أن الحرب كانت واجبًا مهـيبًا فرضه الرب على الأمة؛ وأنها كانت عقابًا إلهيًا على عدة خطايا قومية متنوعة. وعلى الرغم من المواعظ والخطب فى معظمـها كانت تعلن أن الحرب عادلة، فإنهـا كانت تؤكد أيضًا على شرور الحـرب والمعاناة الناجمة عنها. وفى الدوائر والأوسـاط الإنجيلية كان الاعتـقاد منتشرًا أن انجلترا قد حلّت مـحل اليهود كشعب الله المـختار وأداته. وكانت الـهزائم أو الانتصـارات فى الحرب تفـسر كـثيـرًا بمصطلحـات الثواب أو العقـاب الإلهى. وبينما اسـتمرت الحـرب، وصار من الأصعب تقـديمهـا على أنها حملة صليبية، تحول رجال الكنيسـة إلى تصويرها على أنها حماقة إنسانية يمكن أن يستخدمها الرب لأغراضه، كأن ينتشل انجلترا مثلاً من أنانيتها».

وبمنتصف القرن التاسع عشر كان للإنجيليين حضور قوى فى الحياة سواء فى البلاد أو فى البرلمان. ولكن على الرغم من أن «ألفريد تنيسون» الذى كان فى ذلك الوقت قد حظى باعتراف عالمى بأنه أحسن شعراء انجلترا، قد شارك فى بعض هذه المشاعر الوطنية فإنه لم يكن إنجيليًا. إذ كانت توجهاته صوب أسلوب واسع متحرر من الكنيسة الأنجيلكانية أقرب إلى كينجسلى منه إلى شافتسبرى. والربط الدقيق بين انجلترا والشعب المختار ربما يكون قاصرًا على أولئك الذين ما يزالون يعتبرون الكتاب المقدس مرشدًا مفيدًا فى السياسات المعاصرة. بيد أن إحساسًا أكثر غموضًا وعمومية بأن انجلترا كانت أمة خاصة ذات دور خاص، وأن هذه الخصوصية تحظى بموافقة إلهية ضمنية بشكل ما، كان منتشرا على نطاق أوسع كثيرًا، ومن الواضح أن تنيسون كان يشارك فيه. والواقع أنه صار السمة الرئيسية للعصر الفيكتورى. وهذه هى الكيفية التى وصف بها الشاعر، فى الجزء الثالث من قصيدته المشهورة «Maud»، كيف تعرف على واجبه و واجب أمته فى الذهاب إلى الحرب فى سبيل الحق:

من أجل السلام الذى أتخيله لا سلام تم إرساؤه

والآن على جانب البحر الأسود أو بحر البلطيق

والأفواه المميتة الطاحنة فى اللهب الآتى من القلعة

وزهرة الحرب الحمراء بلون الدم لها قلب من نار

دعها تلتهب أو تخبو، والحرب تتدحرج مثل الريح

فقد برهنا على أننا نملك شجاعة الدفاع عن قضية، وأننا نبلاء ما زلنا

واستيقظت أنا، كما يبدو، بعقل أفضل

إنه من الأفضل أن تحارب من أجل الخير بدلاً من أن توبّخ الشر

لقد شعرت بأرض وطنى، إننى واحد مع نوعى

إننى أحتضن غرض الرب والقضاء المحتوم

وفيما بعد، تسببت حرب البوير، والتى نشبت ضد المستوطنين الهولنديين من أجل السيطرة على جنوب أفريقيا (١٨٩٩ - ١٩٠٢م)، فى انقسام مرير فى الرأى العام البريطانى. على الرغم من أن كلا الجانبين كان يصوغ مجادلاته فى مصطلحات دينية. وبعض الاشتراكيين المسيحيين ممن تبرأوا من الحرب هللوا لأخبار الانكسارات البريطانية فى ميدان القتال باعتبارها عقابًا إلهيًا على الغطرسة الإمبراطورية البريطانية. وهناك أكثر من تلميح إلى أيديولوچية الشعب المختار يكمن وراء مثل هذه الآراء. وكان هناك آخرون يؤيدون هذه الحرب، على أساس أن الإمبريالية تمثل فضائل الأخوة والخدمة؛ بينما امتدح البروفيسور «بيڤان - H.E.J. Bevan» فى خطبة شهيرة الحرب باعتبارها وسيلة يمكن لبريطانيا أن تصبح نبيلة مرة أخرى - وهذه مجددا لمحة إلى فكرة الشعب المختار:

«لا يعطى التاريخ سوى تأييد ضئيل لنظرية أن أمة عظمى تكون بالضرورة مجردة من الأخلاق بسبب حرب مثل هذه. بل إنها تثير وتوقظ النزعة الوطنية من غفوتها، وتستدعى المواطنين من الاستمتاع بترف السلام، ومن المصالح الأنانية والدنيا، إلى التضحيات وإنكار الذات من أجل قضية عامة. وهى توقظ فى الكثيرين ضميرًا حيًا و وعيًا بإمكانية الهلاك وعدم الأمان فى الشئون الإنسانية، وتدمر الحواجز الاصطناعية بين طبقة وطبقة، وتُعلّم الكثيرين الصلاة.

كانت هذه ما تزال إلى حد كبير هى الحالة عندما ذهبت بريطانيا إلى الحرب سنة

١٩١٤م. ولكن الكنائس، وكنيسة انجلترا بصفة خاصة، كان فى ذهنها أيضًا الدرس المهم الذى استخلصته من تاريخ الخلاص الذى يرويه العهد القديم - أن سوء العاقبة يلحق بالأمة التى خسرت عطف الرب. ومن ثم لم تكن الحرب مجرد متابعة لتسميتهم رجال الرب، ولكن أيضًا باعتبارهم وطنيين إنجليزًا يرغبون فى النصر بميدان المعركة مما جعل زعماء الكنيسة يبدأون فى القلق بشأن النغمة الأخلاقية للأمة كلما تطورت الحرب العظمى. كما أن هذه لم تكن ببساطة مسألة إنتاج طبقة أفضل من الجنود الذين سيحاربون بجد ومثابرة؛ إذ إن الرب يسيطر على تلك الأشياء الخارجة عن نطاق سيطرة الإنسان، والتى غالبًا ما يتوقف عليها النصر فى ميدان المعركة - الطقس، والمصادفات السعيدة، والتخمينات المحظوظة، وكون القوات فى المكان الصحيح وفى الزمن المناسب، وما إلى ذلك. وهذه كلها فى متناول العناية الإلهية - بشرط أن تكون العناية الإلهية مهيأة جيدا. وعندما لم «تنته الحرب بحلول عيد الميلاد»، كما كان متوقعًا على نطاق واسع، عندما انطلقت القوة العسكرية البريطانية فى بداية الأمر إلى فرنسا فى ذلك الصيف، كان ما تستطيعه الكنيسة للمساعدة هو دعوة الأمة للصلاة والتوبة؛ لكى تضمن أن الرب سوف يحارب إلى جانب بريطانيا.

ويكتب ويلكنسون أنه عند اندلاع الحرب كان هناك توقع على نطاق واسع، بحدوث إحياء دينى وطنى؛ والواقع أنه فى بداية الأمر بدا أن الحضور فى الكنائس قد تزايد. ولكن بحلول سنة ١٩١٥م لم يحدث أى إحياء، وعقد كبير أساقفة كانتربورى الدكتور راندال داڤيدسون لجنة؛ لكى يستشيرها فى «الدعوة الروحية للأمة والكنيسة، حول ما تحدثه الحرب وما يمكن عمله». وأوصت ببعثة وطنية، هدفها شحذ الإحياء الدينى الذى كان يُظن آنذاك أنه قد تأخر عن موعده. وإذ استهلت اللجنة بيانها بفقرة من الإصحاح الثلاثين فى سفر التثنية (١٥ - ١٦) تقول: «انظر قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير والموت والشر. بما أنى أوصيتك اليوم أن تحب الرب وتسلك فى طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه». أعلنت أن الرب له غرض لصالح الأمة ولكن الأمة تجاهلت الرب:

«إن انشقاقنا الاجتماعى الكبير ونزاعنا الصناعى العظيم يوضحان أن هناك خطأ

جذريًا في حياتنا الوطنية؛ إذ إن لدينا قضية عادلة فى الحرب العظمى؛ ولكن الحرب الأهلية التى كانت تبدو وشيكة فى أيرلندا فى صيف ١٩١٤م والحرب الصناعية العظمى التى جرت الاستعدادات لها آنذاك، كانتا دليلين على أن هناك خطأ بيننا».

وليست هناك حاجة إلى القول بأن مثل هذه اللجنة لم تكن تسعى إلى الشفاء من هذا الاضطراب من خلال الاستجابة إلى الشكاوى العادلة للأيرلنديين أو بتأييد اتحادات التجارة فى نضالها الطويل لإعطاء العمال البريطانيين الأجور التى تعينهم على المعيشة. وقد قال أعضاء البعثة: إن الأمة يجب أن تكفّر عن خطاياها وتعود إلى الرب. فبالخطيئة، كما أوضحت حرفيًا المواعظ والخطب التى لا تحصى من جانب كل منبر ونمط أنجليكانى فى البلاد، كان رجال الكنيسة يعنون السكر، والزنا، والمقامرة، وتجاهل الحضور إلى الكنائس، وعدم الصلاة، وعدم إخضاع مصالح الذات لصالح المجموع، وكانت النقطة الأخيرة لها مضامين واضحة فى زمن كانت تبذل فيه جهود ضخمة لإعادة بناء قوة الجيش بالتجنيد التطوعى. وإحدى الطرق التى كان يمكن للشاب أن يكفّر بها عن خطاياه كانت الانضمام إلى الجيش أى الذهاب إلى الحرب، حسبما قال أحد القساوسة البارزين، والذى كان بحد ذاته بداية الاستسلام لمشيئة الرب.

كانت «المهمة الوطنية للتوبة والأمل» نجاحًا هائلاً من حيث إنها عملت على تعبئة كل عصب وعضلة لدى كنيسة انجلترا، وكل ذرة فى طاقتها، لقد كانت النسخة الروحية لحرب شاملة. وبالنسبة لمؤسسة اشتهرت بخمولها، كان مثل هذا الجهد أمرًا غيرعادى. بيد أنها كانت فاشلة فى كافة الجوانب الأخرى تقريبًا- فيما عدا أن البرلمان حدد الساعات التى يمكن فيها أن تبيع المحلات العمومية المشروبات الروحية. وبدا لرجال الكنيسة أن أولئك الذين توجههم الكنيسة كانوا هم أولئك الذين كانوا فى رحاب الكنيسة بالفعل، ولم تتصل برجل الشارع. بل إن الرسالة، التوبة والأمل، صارت مسئولية بقدر ما كانت ميزة، وبدأ محررو الصحف وكتّابها يتساءلون: لماذا ينبغى على بريطانيا أن تتوب، على أساس أن

الحرب لم تبدأ من جانب بريطانيا، ولكن بدأتها ألمانيا بعدوانها الوحشى الظالم ضد «بلچيكا الصغيرة المسكينة»؟، وبينما تزايدت أرقام الضحايا مع الحملات العسكرية سنة ١٩١٦م، والأخبار الواردة عن الكوارث على جبهة السوم بشكل خاص، صار الرأى العام البريطانى أقل تسامحًا تجاه مفهوم أن مواطنيه الذين يرتدون الزى العسكرى على الجبهة كانوا من الخُطاة المذنبين، وأن مصيرهم المرعب قدره الرب لهم على نحو ما عقابًا لهم. وثمة صمت محرج كتم التطبيق الصارم للأفكار البروتستانتية عن الخلاص - أن الجنود الذين ماتوا دون قبول المسيح مخلّصًا لهم سوف ينالون عقابًا أبديًا. وبدلاً من ذلك، كان يُنظر إلى الموت فى المعركة من أجل الملك والبلاد على أنه يساوى بشكل ما فعل الإيمان المسيحى، وهكذا ارتبطت قضية المسيح وقضية الأمة المختارة ببعضهما ارتباطًا وثيقًا.

وتم تقديم تفسيرات رسمية متسرعة لاختيار «التوبة» الفج فى عنوان المهمة - وكان أحد الاقتراحات هو أن الناس ينبغى أن يكفروا عن «خطايا الحضارة الأوروبية» التى أدت إلى الحرب - ولكن ذلك لم يستحوذ على خيال الأمة. فلماذا يجب أن يعاقب الرب البريطانيين على خطايا الألمان؟ وكانت نغمة خطاب كبير أساقفة يورك كوزمولاند نمطية دالة على إخفاقات كثيرة مشابهة:

«لقد أسميناها مهمة وطنية للتوبة والأمل: التوبة لأننا مدعوون إلى أن نحض الرجال والنساء فى كل مكان على التوبة عن الخطايا التى وصمت حضارتنا وجلبت عليها حكم الرب الظاهر، والأمل لأنه أثناء الفترة الأخيرة من هذه المحنة المرعبة وفى خضم الكبح المتزايد والتضحية والأسى المتصاعد، سيكون شعبنا بحاجة إلى الأمل، وفى تلك الأيّام الصعبة القادمة، حينما يكون النظام القديم قد انتهى وسيكون من واجب الأمة أن تبحث عن نظام جديد فى عالم جديد، يجب أن نضع أمام عقول الأمة الأمل الواحد، المسيح، عقله وروحه، لإعادة بناء العالم الجديد».

وبنهاية سنة ١٩١٦م، حسبما يقرر «ويلكنسون»، صارت بعض الحقائق غير

المريحة واضحة جلية. «فى جميع أنحاء البلاد كان الذين حضروا الخدمات الكنسية الخاصة أقلية حقًا من خارج الكنائس، على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا يحضرون الاجتماعات العامة». ومن ناحية أخرى تلقت الحياة الداخلية فى الكنيسة حافزًا، ونتيجة لأن زعماء المهمة من رجال الكنيسة حصلوا على انطباع أكثر واقعية عن الفجوة التى كانت قد اتسعت بينهم وبين الرجل العادى. وهكذا فإن التوبة التى حثت اللجنة الأمة عليها لم تحدث حقًا سوى داخل الكنيسة نفسها، مع الكثير من ضرب الصدر (ندمًا) الذى تضمن تكوين ما لا يقل عن خمس لجان للتحقيق. ولكن كنيسة انجلترا أظهرت حينذاك، كما أظهرت منذ ذلك الوقت، قدرًا بالغًا من البكاء على الذات والواقع. إنها أبدت ما يكاد يكون اهتمامًا مزدوكيًا (تعذيب الذات) فى التعامل مع أخطائها، كما لو أن هناك راحة معاكسة يمكن الحصول عليها بهذه الإشارة إلى أن مذهب الفساد الكلى للإنسان - كان رجال الكنيسة كلهم من الرجال - قد برهن على صحته مرة أخرى.

كان التحدى الخاص لكنيسة انجلترا فى هذه الحرب، باعتبارها الكنيسة الوطنية الراسخة التى كان حاكمها الأسمى هو الملك، هو أنها لا تستطيع سوى أن تلقى بثقلها لمؤازرة الحرب. وبذلك كان كل خيار آخر - السلام، الحياد، التبرؤ من الحرب، النقد بالنبوءات، المعارضة، بل حتى التأييد الواعى جديًا - مغلقًا. وإذا ما كان العامة قد حكموا فى النهاية بأن الحرب كانت تستحق القيام بها، فإن كنيسة انجلترا حينئذ يمكنها أن تنعم بدفء أنها أثبتت كونها على حق. ولكن إذا ما كانت العاطفة الوطنية غير واثقة من جدارة الصراع، والطريقة التى تم بها فوق أى اعتبار آخر، فإن الكنيسة وما أظهرته بشكل لافت من تضامن مع الدولة كان من المحتمل أن يبرهن على أنه عبء ثقيل على كاهلها. وقد تبلور موقف الكنيسة العام تجاه الحرب فى المهمة الوطنية، التى كانت قد رفعت الرهان بشكل كبير، وربما كانت المقامرة مبررة، على الرغم من أن أولئك الذين أخذوا بها، الذين أساءوا الحكم على فرص النجاح لا يمكن أن تنسب إليهم الكثير من الشجاعة الأدبية لهذا. وثمة اقتباسان، أحدهما من سنة ١٩١٥م وثانيهما من سنة ١٩١٦م، يظهران زعماء الكنيسة يتبنون نغمة تبدو فيها إساءة التقدير بطريقة مدهشة؛ إذ إننا نعرف الآن كيف كان إحساس الناس عن الحرب بمجرد أن انتهت.

والاقتباس الأول من سنة ١٩١٥م، من أسقف لندن، الدكتور «إنجرام»، الذى يصفه ويلكنسون بأنه «الصوت الذى ارتفع فوق أصوات كل رجال الكنيسة الآخرين. وقد أعلن فيما كتبه فى صحيفة كنسية تسمى «الجارديان ـ Guardian».

«إننى أظن أن الكنيسة يمكن أن تساعد الأمة على أفضل نحو، أولا بأن تجعلها تدرك أنها مشتبكة فى حرب مقدسة، وألا تخشى من قول هذا. لقد مات المسيح يوم الجمعة الحزين من أجل الحرية والشرف والفروسية، وأولادنا يموتون من أجل الأشياء نفسها. وإذا أدركت الأمة أن كل شىء يستحق الحياة فى الدنيا معرض للخطر، فإنها لن تتردد فى أن تسمح بتعبئة نفسها. إنكم تطلبون منى النصيحة فى جملة عما يجب على الكنيسة أن تفعله. وأجيب عبئوا الأمة من أجل الحرب المقدسة».

والاقتباس الثانى من هنسلى هنسون، وقد صار فيما بعد أسقف «دورهام» وكان مفترضًا على نطاق واسع أنه صوت الاعتدال والحداثة. ففى مقالة له سنة ١٩١٦م تنبأ فيها (بشكل صحيح) بأن «المسيحية المنظمة لا تخرج بصورة جيدة من أزمة العالم»، واستمر هنسون لكى يحدد الآمال التى كان يعلقها على الدور المستقبلى للكنيسة فى الوطن:

«سوف يبزغ اسم انجلترا من الصراع العالمى بعناوين جديدة للتبجيل الإنسانى، وأعز من ذى قبل على عقول الرجال الإنجليز، مشحونة بشكل أكثر ثراء عن ذى قبل بالارتباط بالخدمة العامة والذكريات المجيدة عن البطولة الشخصية. وسوف تحصل كنيسة انجلترا على مجد من شخصيتها التاريخية بوصفها مؤسسة وطنية. وسوف يميل الرجال لأن يقدموا لها محاولة منصفة عادلة، مستعدين لأن يعترفوا بحقها فى التعبير عن الديانة المسيحية للرجال الإنجليز ومن أجلهم. . . إن رابطة جديدة بين الكنيسة والأمة سوف تتشكل فى جحيم البلوى».

كان أولئك الذين قادوا الكنيسة فى الحرب العالمية الأولى فى كل أنواع الطرق يشبهون ـ وغالبًا ما كانوا على معرفة شخصية ـ بأولئك الذين تولوا قيادة الجيش البريطانى. فقد كان لديهم نفس التصميم العنيد على إعادة فرض الفشل، ونفس

عدم الاستعداد للنظر فى تغيير الأساليب، ونفس القصور فى الخيال، وفوق هذا وذاك نفس القصور فى السخرية الواعية. كانت تلك فى الواقع هى روح العصر، أو على الأقل روح الطبقة العليا والشرائح العليا من الطبقة الوسطى التى كان يخرج منها الرجال الذين يتولون قيادة الأسقفيات الإنجليزية والقوات العسكرية الإنجليزية. ولكن الأمر تغير فى زمن الحرب، وكان التغيير إلى حد كبير من أسفل إلى أعلى، ولذلك كان آخر من سمعوا بالتغير الجذرى وواءموا أنفسهم معه هم أولئك القابعين فوق القمة.

من الشائع أن الحرب العظمى سحقت الثقة بالذات فى الإمبراطورية البريطانية قرب قمتها وبطريقة مدمرة مثلما سحق جبل الجليد السفينة تيتانيك، التى كانت أعظم سفينة بُنيت على الإطلاق، قبل ذلك بعامين. وليس من الواضح تمامًا أن الصدام جعل فجأة مجموعة من الفروض التى كانت تكوّن ثقافة كاملة، تبدو وقد عفا عليها الزمن، وهى مجموعة من الفروض التى كانت تلخيصًا لجنس بأسره. وكثير من هذه الفروض كانت فروضًا دينية. وكان من بينها الإيمان بأن الرب منح انجلترا غاية خاصة. وكانت طاعة تلك الغاية هى التى جعلت انجلترا تذهب إلى الحرب. وبهذا كانت انجلترا تفى فى كرم وحماسة بنصيبها فى صفقة الميثاق، أى أن يضمن نجاة انجلترا. وإذ كان هناك بعض التصحيح الذى ينبغى القيام به فى العملية، فإن المقصود به أن يكون عقابًا خفيفًا، بحيث يكفى للشفاء من التراخى والخطيئة، ولم يكن المقصود به أن يكون جحيما على الأرض. ولكن هذا ما حدث.

وحدثت السخرية الدرامية فى التفاعل المتبادل بين ما هو فى الذهن وما يحدث حقًا - فالبطلة تظن أنها فى طريقها إلى الشفاء، ونحن نعرف أنها فى سبيلها إلى الموت. وينتج المزيج نوعًا من السخرية التراچيدية، وهو تعليق على حماقة التفاؤل. وبعيدًا عن المؤرخين العسكريين، فلا شك فى أن أحسن كتاب عن الحرب العالمية الأولى هو «The Great War in Modern Memory» الذى كتبه أستاذ أمريكى فى الأدب الإنجليزى، هو پول فوسل. فهو يقرر أن الحرب برمتها تدعو إلى السخرية؛ لأن الحرب كلها أسوأ مما هو متوقع:

«كل حرب تشكل سخرية من الموقف؛ لأن وسائلها لا تتناسب بشكل ميلودرامى مع غاياتها. وفى الحرب العظمى تم القضاء على ثمانية ملايين شخص؛ لأن شخصين هما الأرشيدوق فرنسيس فردينان وقرينته قُتلا رميًا بالرصاص. . . لقد كانت الحرب العظمى أشد سخرية من أى حرب أخرى سبقتها أو تلتها. فقد كانت إحراجًا شنيعًا للأسطورة التحسنية الشائعة التى حكمت الوعى العام على مدى قرن من الزمان؛ إذ إنها تناقض فكرة التقدم. . . ».

والتحسنية، أى الإيمان بأن البشرية يمكن أن تتحسن وأنها تتحسن، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما يسمى رأى الهويج فى التاريخ. والتفسير الهويجى للتاريخ، الذى نشره اللورد «ماكولى» فى منتصف القرن التاسع عشر، يرى أن الحضارة الإنجليزية هى ذروة التقدم السياسى. ومع التدين الإنجيلى العنيف والتزام بالإصلاح السياسى المستمر، كان ماكولى وكثير من الأجيال التالية من الشعب الإنجليزى الذين تأثروا به، متأكدين من أن الرب يقف إلى جانب انجلترا ـ وكانوا متأكدين من هذا تمامًا لدرجة أنهم اعتبروا أن المؤسسات الإنجليزية والدين واللغة والعادات والسلوك والثقافة الإنجليزية هى الهدف الأسمى للحضارة فى جميع أنحاء الدنيا. كما كانوا واثقين طبعًا أن الرب هو الذى شكّل كل تلك الأشياء بفضل عنايته. ناهيك عن أنه جلب للإنجليز المكاسب التى حققتها «الثورة المجيدة» سنة ١٦٨٨م (التى طردت الملك الكاثوليكى چيمس الثانى) والتى نبعت منها كل الخيرات التالية (من خلال منطق الأحداث من ناحية، ومكافأة إلهية من ناحية أخرى).

ولكن السخرية حلّت مع القصف المدفعى والرصاص والدبابات والأسلاك الشائكة والوحل فى ميدان المعركة الخالد. فقد كانت الأغنية التى تنشرها القوات البريطانية على سبيل المرح، أثناء سيرها إلى القتال تقول:

«بوسعنا أن نراهم

بوسعنا أن نراهم يحومون حول الأسلاك الشائكة العتيقة».

وهى أغنية تصف المصير البشع الذى لقيه أفراد كتيبة كاملة. لقد اكتسب

البريطانيون بسرعة موهبة المرح الأسود بالشكل الذى تسبب فى حيرة أقرب حلفائهم. وكتب فيلبس چيبس: «كلما كانت نبرة التمرد فى ذلك أعلى، كلما ضج الناس بالضحك». لقد كان ذلك هو «ضحك البشر الفانين من الحيلة التى دبرها لهم قدر حديدى».

ويستمر ڤيليب چيبس قائلاً: «كانوا قد تعلموا أن هدف الحياة كلها هو الوصول إلى الحب والجمال، وأن الجنس البشرى فى تقدمه صوب الكمال قتل الغريزة الوحشية والقسوة والتعطش إلى الدماء، وقانون البقاء الوحشى البدائى الذى يعتمد على المخالب والأسنان، على الفأس والهراوة. وكان الشعر كله، والفن كله، والدين كله، يبشرون بهذه البشارة ويزفون هذا الوعد. والآن تكسر المثال والنموذج مثلما تتكسر زهرية من الصينى ارتطمت بالأرض وتهشمت. لقد كان التناقض بين «هذا» و«ذاك» مُهلكًا.. وكان مرح الروح زمن الحرب هو الذى يزمجر بالضحك عندما يرى أن تلك الكرامة والكياسة كلها قد صارت نهبًا للحرب».

كانت تلك أنباء شؤم بالنسبة للديانة الوطنية، فمن الناحية العسكرية كانت الحرب قد بدأت بشكل طيب تمامًا. ولأن البريطانيين كانوا يفضلون اعتبار الأسطول الملكى السلاح الرئيسى للدفاع، فإنهم احتفظوا فقط بجيش محترف صغير فى زمن السلم، وكان ذلك أمرًا جيدًا للغاية. وذهب حوالى مائة ألف جندى إلى فرنسا وبلچيكا فى المرحلة الأولى من الحرب، وسرعان ما وجدوا أنفسهم مشتبكين فى أكبر اختبار لنظام ميدان المعركة، أى التقهقر المنظم أثناء القتال (ما يسمى الانسحاب من مونس). هذا الانسحاب الذى اعتبرته معظم الكتب الدراسية العسكرية فيما بعد انسحابًا مخزيًا أمام قوة عسكرية متفوقة، سرعان ما تحول إلى قصة مجيدة أخرى فى التاريخ البريطانى. وتحت ما كان مفترضًا فى بريطانيا أنه حماية إلهية - فإن الحكايات شاعت عن ملاك فى السُحب كان يتجلى أمام بعض القوات السائرة إلى القتال - تماسك الجيش بشكل كاف بحيث صمد وقاتل، وأعطى صورة طيبة عن نفسه. وفى انطلاقة مبكرة للسخرية البريطانية زمن

الحرب، أخذ الجنود الناجون النظاميون وصف القيصر للحملة العسكرية البريطانية بأنها «جيش صغير يبعث على الاحتقار»، وخلّدوه بأن أطلقوا على أنفسهم «العواجيز الذين يستحقون الاحتقار»، بيد أن الباقين منهم استمروا فى زمن السلم على إقامة استعراض سنوى تكريمًا لزملائهم الذين سقطوا فى الميدان على مدى نصف القرن التالى أو أكثر، وظلوا فخورين جدًا بالاسم الذى أطلقه عليهم قيصر ألمانيا.

وشهدت السنة التالية أول انتكاسة كبرى فى الحرب، وهى الحملة الجسورة، ولكنها كانت سيئة التخطيط، للاستيلاء على شبه جزيرة جالليبولى التى تحرس ممر الدردنيل الذى يصل بين البحر المتوسط والبحر الأسود. فقد كان الجنود الذين ذهبوا إلى فرنسا سنة ١٩١٤م نظاميين كلهم تقريبًا، أما أولئك الذين حاربوا فى تركيا فكان جزء منهم نظاميين ولكن أيضًا إقليميين (بمعنى أنهم ميليشيا لبعض الوقت، وكثيرون منهم خدموا جنودًا نظاميين فى زمن السلم)، ونظاميين ومتطوعين من الممتلكات البريطانية، ومن استراليا أساسًا. وكانت الجيوش البريطانية سنة ١٩١٤م وسنة ١٩١٥م على السواء قد اعتراها الضعف الشديد؛ بسبب الصراع الذى لا يتوقف وعدد الضحايا المتصاعد لدرجة أنه تقرر البدء من جديد وتشكيل جيش جديد من المتطوعين جزئيًا، ثم فى النهاية من خلال التجنيد الإجبارى أيضًا. وكان هذا ما سُمى باسم «جيش كتشنر»، تيمنًا باسْم بطل الحرب الاستعمارية الذى كان أيضًا وزير الحرب فى ذلك الحين، وهو اللورد كتشنر. وكان الغرض منه أن يستعد ويتدرب، ثم ينفذ الاندفاع الكبير على الجبهة الغربية التى كان القادة البريطانيون مقتنعين بأن الاستيلاء عليها سوف يحول الحرب إلى صالحهم. وعلى أية حال، فإن الفرنسيين كانوا يتلقون ضربات مرعبة فى ڤيردن، وكان أى مجهود بريطانى كبير فى أى مكان آخر كفيلاً بأن يسحب بعضا من القوات الألمانية التى تواجههم.

وهكذا كانت بريطانيا وجيشها مستعدين لخوض معركة ضد العدو كان المقصود بها تحويل مسار الحرب، ولكن فشلها فى تحقيق ذلك حوّل التاريخ

البريطانى مع هذا. وقد تكرر سماع كل تفاصيل معركة السوم. وإذ كانت القيادة العليا البريطانية مدركة لأن وحدات كثيرة جداً من قواتها لم تخض الحرب من قبل، وأنهم كانوا يعتمدون فى تجنيد ضباطهم على رجال لم يكونوا من نفس الطبقة الاجتماعية التى جاء منها الضباط النظاميون فى سنة ١٩٤١م وسنة ١٩١٥م، فإنها أصدرت تعليمات محددة بما ينبغى أن يحدث فى المعركة بينما تتطور كل مرحلة من مراحلها. ويلاحظ «فوسل» ما علّق عليه عدة مؤرخين عسكريين : نقص الثقة، بل ونقص الاحترام، الذى كان كبار الضباط البريطانيون يظهرونه تجاه الرجال الذين يتولون قيادتهم أثناء المعركة. ويكتب أن هناك سبباً آخر يمكن إرجاعه إلى النظام الطبقى والفروض التى أفرزها وأقرها. فقد كان العسكريون النظاميون فى القوات البريطانية يبدون احتقاراً ظاهراً للرجال الجدد الذين تم تدريبهم بسرعة من «جيش كتشنر» والذين تم تجنيد عدد كبير منهم من العمال فى بلاد الوسط (ميدلاند) والشمال.

«لقد افترض المخططون أن هذه القوات ـ التى تجهزت للهجوم بحمولة تصل إلى ٦٦ رطلاً من المعدات لكل فرد ـ كانت بسيطة وحيوانية بحيث لا يمكن أن تعبر الفضاء بين الخنادق المعادية سوى فى ضوء النهار الكامل وتصطف فى صفوف أو موجات. وكان هناك شعور بأن القوات سوف ترتبك بأى تكتيكات أكثر ذكاءً مثل الاندفاع من مخبأ إلى مخبأ، أو تسير وراء القصف الزاحف المتواصل».

ولا يقول فوسل هذا، ولكن من الممكن أن نتحرى فى الثقة الزائدة العنيدة التى أبداها القادة أكثر من لمحة إلى التفكير بطريقة الشعب المختار ـ أنه مع كل هذا الخطر، لم يكن ممكناً أن تمضى الأمور فى طريق الخطأ بطريقة بالغة السوء؛ ذلك أن حماية الرب المقدسة ستكون فى متناول القوات البريطانية مجدداً، كما كان يحدث دائماً من قبل. وكان دوجلاس هيج، القائد العام البريطانى، مفرطاً فى الثقة؛ إذ إن تجهيزاته لم تترك مكاناً للخطأ، ولم تُهمل أية تفاصيل فى التخطيط العسكرى، وكتب إلى زوجته قبل المعركة بوقت قصير «إننى أشعر أن كل خطوة فى خطتى تم اتخاذها بمساعدة إلهية». و افتراض أن «الرب يساعد أولئك الذين

يساعدون أنفسهم» لا بد أنه قد كسب له قدراً كبيراً من المساعدة الإلهية من رب الجيوش. ومثل هذه المشاعر كانت تجد من يشارك فيها عالميّا؛ إذ إن أمة كاملة كانت على وشك المخاطرة بدماء رجالها وحياتهم على أساس افتراض أنها فعلاً الشعب المختار.

وساءت كل الأمور؛ إذ إن المدفعية الألمانية، والمدافع الآلية الألمانية والأسلاك الشائكة، تمكنت من أن تصد موجة بعد موجة من المشاة البريطانيين المتقدمين والذين واصلوا التقدم بشكل لا يكاد يصدق فى ميدان المعركة الذى لم يلبث أن غطته جثث الموتى وأجساد الذين يعانون سكرات الموت. وصار أول يوم فى يوليو ١٩١٦م أسوأ يوم فى تاريخ الجيش البريطانى. فمن بين مائة وعشرة آلاف رجل فى الهجوم الابتدائى، كان الضحايا أكثر من ستين ألفًا، وعدد كبير من أولئك الذين قتلوا فى الحال تُركوا راقدين فى ميدان المعركة لعدة أيّام، وكانت صيحاتهم الجماعية من الألم والعطش تولد صراخًا مرعبًا فى الليل كان يُسمع فى مناطق بعيدة خلف خطوط القتال ـ فقد كان من الخطورة بمكان محاولة إنقاذ أكثر من حفنة من الأفراد. وفى أثناء النهار كانت صيحاتهم تغرق فى ضجة المعركة المستأنفة؛ لأن الجنرالات استنتجوا أن خططهم المحبوكة لليوم الأول ما تزال صالحة لليوم الثانى أو اليوم الثالث. واستمرت المعركة حتى نوڤمبر، ومع هجوم تلو هجوم، لم تحقق سوى الثبات أو تقدم ياردات قليلة مما كشف عن جهد بلا نهاية وخسائر جسيمة. ومن الصعب تجنب الانطباع بأن العناية الإلهية كانت ما تزال هى المعول عليها فى كسب المعركة، وأن هيج الذى كان كالڤينيّا اسكتلنديّا صارمًا، أحس أن الرب ينبغى أن يتاح له الوقت الكافى؛ لكى ينضم إلى المعركة ويسلمه النصر. وبدا وكأن الرب قد تخلى عن منصبه بشكل مؤقت. بيد أن هيج لم يساوره أدنى شك فى أنه سوف يعود إليه. والواقع أن أفضل طريقة لضمان مساعدة الرب هى المحافظة على الإخلاص للخطة أى الوفاء بنصيب بريطانيا. والاستمرار فى المحاولة كان حرفيّا محاولة إيمانية؛ إذ إن الفشل فى محاولة الإيمان كان يمكن أن يعنى خسران الحرب.

ولم تكن نهاية عذاب سنة ١٩١٦م سوى تمهيد للرعب الذى تجدد سنة ١٩١٧م

وأكثر معركة مخيفة خاضها البريطانيون على الإطلاق، وهى معركة پاسشنداپل (رسميًا معركة يپرس الثالثة) إذ لم يكن هيج قد فقد قناعته بالنصر البريطانى النهائى، ولكنه توصل إلى اعتبار الخسائر الضخمة بمثابة تضحية دم ضرورية.

والأسطورة الشائعة عن أنه كان جاهلاً بالظروف السائدة على الجبهة لا سند لها. فقد كان على علم تمامًا بكل المراحل، وغالبًا ما يعبر فى مراسلاته الخاصة عن الألم بسبب الأحوال على الجبهة، وبسبب معدل الخسائر (كان العدد النهائى لمجمل القتلى من البريطانيين والكومنولث أقل من المليون قليلاً) ولكن يبدو من المحتمل أن لا أحد سوى رجل متأكد من أن الرب يقف بجانبه يمكنه أن يستمر فى إصدار الأوامر إلى آلاف الجنود بأن يذهبوا إلى حتفهم يومًا بعد يوم. ورد الفعل تجاه هيج بعد الحرب يمكن إرجاعه جزئيًا إلى الطريقة التى اختار لويد چورچ أن يلومه بها على توجيهه لحرب كان هو المسئول عنها فى نهاية الأمر - إذ كان بوسعه عزل هيج فى أى وقت - كما يمكن إرجاعه إلى تخلى البريطانيين عمومًا عن مفهوم أن إسهامهم فى الصراع له أية علاقة بخطط الرب. وقد نُظر إلى هيج على أنه كان يتبع وجهة نظر لاهوتية عن مكانة بريطانيا فى العالم إلى خاتمتها المنطقية، وهى وجهة نظر كانت بقية الناس قد أداروا ظهورهم لها، فى وقت ما بين سنة ١٩١٦م ونهاية الحرب.

كانت حملة كتشنر للتجنيد قد ركزت على أن الأصدقاء يمكن أن يلتحقوا بالجيش ويحاربوا سويًا فيما عرف باسم «Pals Battalions» (أى كتائب الرفاق). وقد كانت هناك شوارع بأسرها فى المدن الصناعية فى وسط وشمال انجلترا تتلقى الأنباء الرهيبة بأن لا أحد من رجالها نجا من الموت. لقد كانت كارثة وطنية. ويتعرف فوسل على نقطة التحول: «لقد تعلم الجيش البرىء تمامًا ما هو الخير وما هو الشر فى السوم يوم أول يوليو سنة ١٩١٦م. إن تلك اللحظة، وهى واحدة من أكثر اللحظات إثارة فى التاريخ الطويل للتحرر الإنسانى من الوهم، يمكن اتخاذها نمطًا لكل أفعال الحرب التى تدعو للسخرية».

والواقع أن هيج واصل الحرب بعناد؛ وتقدم البريطانيون بشكل ثابت من حيث

الحذق والمهارة، واكتشفوا الحرب الجوية، والقصف الزاحف، وقوة المدفع الآلى، واستخدام التغطية، وعدم جدوى الخيّالة، كما أنهم اخترعوا الدبابة. وبحلول خريف سنة ١٩١٨م كان الجيش البريطانى (الذى ضم قوات كبيرة من استراليا ونيوزيلندا وكندا) هو القوة الأولى الرابحة فى الميدان الأوروبى، وبسلسلة من الانتصارات الساحقة التى تم تجاهلها بشكل يكاد يكون تامًا فى حينها وفيما بعد، أوصل الجيش الألمانى المرهق إلى نقطة الانهيار والتسليم، والاستسلام غير المشروط.

ولكنه لم يعد يثق أبدًا فى أن الرب سوف يكسب معاركه نيابة عنه. فمنذ ذلك الحين وصاعدًا كان اعتقاد عامة الناس بأن الإنجليز شعب مختار يؤخذ على سبيل السخرية فقط، وكان من المحتمل بنفس القدر أن ينتج عنها غضب جارف. والحكم النهائى الذى يلعن الوطنية البريطانية التى جمعت بين الرب والمجد فيما قبل الحرب، هو الذى أصدره ويلفريد أوين، فى واحدة من أشهر القصائد- وأكثرها مرارة- عن الحرب العالمية الأولى بعنوان: «Dulse et Decorum»:

منحنون بشكل مزدوج مثل الشحاذين المسنين تحت المخلاة

ركُبنا مضروبة، ونسعل مثل العرافات الشمطاوات

نسب ونحن نخوض فى الوحل

حتى ندير ظهورنا على المشاعل المصاحبة

وصوب راحتنا البعيدة نبدأ مشينا المتعب

يسير الرجال نائمين. وكثيرون منهم فقدوا أحذيتهم

ولكنهم يعرجون، ودمهم مُراق. كلهم يعرجون، كلهم عميان

أسكرهم الإرهاق، صُمّ لا يسمعون حتى قنابل الغاز التى تسقط خلفهم بنعومة

الغاز، الغاز أسرعوا أيها الفتية- نشوة من التسكع والتردد

نضع الخوذات الرثة فى الوقت المناسب

بيد أن شخصًا كان ما يزال يصرخ ويتعثر

ويتخبط مثل رجل فى حريق أو فى الجير

معتم من خلال المربعات الصغيرة والضوء الأخضر الكثيف

كما لو كان تحت سطح بحر أخضر، رأيته يغرق

وفى كل أحلامى أمام منظرى الذى لاحول له ولا قوة

كان يغطس تجاهى ويذوب ويختنق ويغرق

وإذا فى بعض الأحلام الخانقة كان بوسعك أيضًا أن تمشى بخطى وئيدة

خلف العربة التى طرحناه فيها

وترقب العينين البيضاوين تتلويان فى وجهه

وجهه المعلق مثل وجه شيطان مريض بالخطيئة

وإذا كنت تستطيع أن تسمع، عند كل هزة، الدم

يندفع مغرغرًا من الرئة التى أفسدتها الرغاوى والزبد

مقضومة مثل إفراز القروح الدنيئة التى لا شفاء لها على الألسنة البريئة

فإنك ياصديقى لن تحكى بمثل هذه اللذة الفائقة

إلى الأطفال المتحمسين لمجد يائس

الكذبة القديمة : Dulce et decorum est Pro patria mori(*)

وبرى «آلان ويلكنسون» فترة الحرب العظمى ليس فقط باعتبارها النقطة التى يمكن عندها قياس التدهور الإحصائى لكنيسة انجلترا: وإنما هى النقطة التى بعدها كان «مهما فعلت الكنيسة، فإنه لم يعد بوسعها أبدًا أن تعيد بناء نمط سلطتها

(*) هذا بيت شعر باللاتينية للشاعر الرومانى «هوراسيوس» وترجمته « إن من الحلاوة والوفاء أن يموت المرء فى سبيل وطنه» ـ المترجم.

القديمة فى الوطن». وهو يحدد التناقص فى حضور البالغين (فوق خمسة عشر عامًا) صلاة الفصح فى كنيسة انجلترا بنسبة ٩٨ فى كل ألف سنة ١٩١١م، ٩٠ فى كل ألف سنة ١٩٢٥م، ثم ٧٣ فى الألف سنة ١٩٣٩م، و ٦٣ فى الألف سنة ١٩٥٨م، و٤٢ فى الألف سنة ١٩٧٣م. وكان الرقم المعادل سنة ١٩٩٧م ٢٩ فى الألف أو ٩ , ٢ فى المائة من السكان.

وكما يعترف ويلكنسون أيضًا، فإنه بعد سبعين أو ثمانين أو تسعين سنة ما يزال إحساس الإنجليز بأنفسهم مطاردًا بتلك الحرب وخيالاتها وصورها، ومطاردًا بالسؤال الذى يبحث عن حل: «ما الخطأ الذى وقع؟». ففى أعقاب الهولوكوست تعين على اليهود أن يسألوا أنفسهم فيما بعد: «أين كان إلهنا فى أوشفتز؟» وقبل هذا بسنوات، كان الإنجليز قد صكوا نفس السؤال: «أين كان ربنا فى معركة السوم؟».



(٨)

الجنس والأعمال الوحشية

كانت الفترة التى خضعت فيها إسرائيل لحكم قضاتها فترة من الحروب القبلية المستمرة، وقد تم تسجيلها فى النصوص المقدسة بحرص على الرغم من أنها لم تكن دائمًا فى ترتيبها الصحيح. وقد وفّر هذا ذخيرة كافية للخطب الكنسية البروتستانتية المتشددة؛ حيث كان يمكن وصف أعداء انجلترا بأنهم الموآبيون، أو الكنعانيون، أو الفلسطينيون أو العماليق أو العمونيون، والآشوريون المشتتون. وكما تقول ليندا كولى:

«أرسل آدم فيرجوسون فرق الملك فى الأراضى العليا للقتال ضد بقايا الجيش اليعقوبى فى ديسمبر سنة ١٧٤٥م بخطبة اسكتلندية بنيت على أساس خطبة يوآب فى جيش إسرائيل قبل معركته مع العمونيين... كما أن ألكسندر ويبستر، القس المنحاز تمامًا للحكومة فى كنيسة تولبوت فى إدنبره، كرّس خطبه فى كوللودن لأولئك الذين يملؤهم «الاهتمام بصالح قدسنا والحماسة لإسرائيل البريطانية». بينما قام رجل كنيسة آخر، إنجليزى هذه المرة، بالترويج للأهمية الكونية لحرب السنوات السبع فى عنوان خطبته للاحتفال باتفاق الصلح فى باريس سنة ١٧٦٣م - «انتصار الإسرائيليين على الموآبيين، أو البروتستانت على البابويين».

وافتراض أن كل من يقاوم قوة الدولة الوطنية البروتستانتية الإنجليزية يمكن اعتباره من الكنعانيين - ومن ثم يتم التعامل معه بقسوة مماثلة - كان قد انتقل بالفعل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لا سيما عندما جابهت سكان الأراضى الأصليين أى السكان الأصليين فى أمريكا أو الهنود الحمر.

وضد الأعداء الأقوياء، كان الحكم بواسطة القضاة الدينيين يولّد شعوراً بأنه مصدر للضعف، مثلما كانت فُرقة إسرائيل؛ لأن كل قبيلة عبرية كان لها زعيمها الخاص، وقد أدى هذا بآخر القضاة، صمويل، للموافقة مرغمًا على أن إسرائيل يجب أن تصير مملكة متحدة، ووافق على أن يصبح شاول أول ملوكها. ومع هذا فإنه حذر من مخاطر المركزية والطغيان؛ ولم يمض وقت طويل حتى كان هو وشاول مشتبكين فى خلاف مرير ونزاع مستمر، وكان أحد واجبات الملك الرئيسية أن ينظم الجيش ويقوده، وهو ما قام به شاول لفترة من الزمان بنجاح كبير، ولكن الخلاف مع صمويل بات حتميّا.

كانت الظروف الفعلية السائدة تتميز بنوع من الخصوصية. فقد طلب صمويل من شاول أن ينتقم من الهجمات التى شنها العماليق على الإسرائيليين خلال رحلتهم فى البرية بعد الخروج قبل مائتى سنة. وهزم شاول العماليق، ولكنه لم يدمر كل فرد وكل شىء كما هى العادة(*) (وكما طلب صمويل)، وتم إحضار أجاج ملك العماليق الأسير أمام صمويل الذى اتهم شاول بالعصيان؛ لأنه تركه حيّا، ومضى هو ليمزقه إربًا بنفسه؛ ليبين ما أمر به الرب. والطريقة التى رويت بها القصة، لا تترك مجالاً للشك فى أنه كان من المتوقع أن ينحاز القرّاء لصمويل، ولفعلته القاسية والانتقامية. ومضى شاول وصمويل كل فى طريقه، ولم يلبث صمويل أن سعى لتقويض مكانة شاول بأن عين مساعده داود (الذى كان قد ذبح جوليات العملاق، ومن ثم قدم ذخيرة إضافية لأجيال من الخطب والمواعظ البروتستانتية بعد ذلك بآلاف السنين).

وأسس داود عاصمته القدس ونقل تابوت العهد إلى هناك؛ لكى يجعل المدينة بؤرة للهوية الدينية الوطنية. وقد أعطته انتصاراته على القبائل المجاورة إمبراطورية مصغرة بالفعل ليحكمها، ولكن المملكة لم تصل إلى ذروة القوة والمجد سوى فى

(*) تتكرر فى العهد القديم الأوامر الإلهية بالقضاء على كل نفس حية: الرجال والنساء والأطفال والشيوخ وحتى الحيوانات. اقرأ على سبيل المثال فى سفر التثنية الإصحاح ٢٠: «فلا تستبقوا فيها نسمة حية بل دمروها عن بكرة أبيها» (١٦ - ١٧)، وفى سفر العدد الإصحاح ٣١: «فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلوا أيضًا كل امرأة ضاجعت رجلاً» (١٧) - المترجم.

عهد «سليمان بن داود»، وبدأت الحضارة الإسرائيلية تحرز تقدمًا كبيرًا. وبطبيعة الحال، فإن دورة تاريخ الخلاص - التى هى من أعراض الشعب المختار - بدأت تؤكد نفسها مرة أخرى فى نهاية الأمر، وصار الناس أقل إيمانًا عندما صاروا أكثر رفاهية. وقد تسامح سليمان إزاء الممارسات الوثنية، كما سمح بالمستوطنات غير العبرية فى المملكة. وكان حكمه يثير قدرًا متزايدًا من الاستياء ولا سيما اعتماده على عمل السخرة الإجبارية. اقرأ النص المنسوب إليه فى سفر الأمثال (٦ : ٦ - ٨) الذى كان محل اقتباس متواتر من جانب رجال الكنيسة البروتستانت، لدرجة أنه صار النص الأساسى لما يسمى أخلاقيات العمل البروتستانتى: «اذهب إلى النملة أيها الكسلان. تأمل طرقها وكن حكيمًا. التى ليس لها قائد أو عريف أو متسلط. وتعد فى الصيف طعامها وتجمع فى الحصاد أكلها».

وسرعان ما تمردت بعض أجزاء إمبراطورية داود المصغرة، وعند موته انقسمت إلى اثنتين: الشمالية (التى احتفظت باسم إسرائيل)، والجنوبية (مملكة يهودا). وهكذا تم عقاب الشعب المختار على عصيانه مرة أخرى بسوء الحال.

وقد أدى انفصال مملكتى إسرائيل ويهودا إلى أن يكون لكل منهما تاريخ منفصل، وكل منهما محكوم بقوة ونفوذ الجيران الوثنيين الأقوى، الآشوريين أولاً ثم البابليين (كما تدخل المصريون أيضًا). وتلت ذلك فترة طويلة من الحروب، والتحالفات والأحلاف الفاشلة، التى كانت تهدف إلى التوافق مع الآشوريين. وبرز نبى بعد آخر لكى يحذر الشعب المختار بأن مغازلتهم المتزايدة للآلهة الوثنية الأكثر إثارة لجيرانهم - الذين كانت عبادتهم تتضمن عادة عنصرًا جنسيًا قويًا - سوف تجلب عليهم الهلاك.

وأكثر هذه الصراعات إثارة وبقاء فى الذاكرة بين الخير والشر (كما رآها راوى الكتاب المقدس) كانت هى الصراع المرير بين النبى إيليا والملكة إيزابيل، زوجة الملك أهاب ملك المملكة الشمالية، وهى النمط الأصلى للمرأة الخطيرة، والتى توصف بأنها عاهرة وشريرة؛ إذ كانت تعارض رب إسرائيل وقتلت عدة مئات من أتباعه (الذين يسميهم النص الأنبياء): وقد تفوق إيليا فى السحر على أتباع بعل فى

منافسة شاذة غير مألوفة على جبل الكارمل، ثم قتل عدة مئات منهم (يسمون الأنبياء أيضًا) بدوره. وهددته إيزابيل بالقضاء عليه، و رد عليها بأن لعنها، قائلاً: «إن الكلاب سوف تأكل لحمها». وسرعان ما حدث هذا، ولم يتبق منها شيء يمكن دفنه. ولا تجسد إيزابيل مجرد الكراهية الدينية للعروض المكشوفة للممارسة الجنسية الأنثوية، فهى تجسيد أيضًا للإغراء والغواية التى تحملها الديانة الوثنية، مع طقوسها الجنسية السحرية والآلهة المزيفة التى تنتظر غواية الإسرائيليين وجذبهم بعيدًا عن عبادة الرب الحقيقى.

وتعاود إيزابيل الظهور فى سفر الرؤيا باعتبارها امرأة تمارس الرذيلة والزنا، وبذلك فهى نمط طبقه المبشرون البروتستانت بسهولة على الكنيسة الرومانية وطرقها الشريرة كما افترضوا. كما أنها علامة على نوع أكثر حذقًا من الروابط: وهى الرابطة بين الخطيئة الجنسية وعدم الإيمان الدينى. ولا يهتم العهد القديم كثيرًا بالخطيئة الجنسية فى حد ذاتها، أو على الأقل ذلك النوع من العلاقة الجنسية العادية. ففى مجتمع أبوى يعرف تعدد الزوجات، فإن الرجل الذى يريد أن يضاجع امرأة غير متزوجة، سواء كان هو نفسه متزوجًا أم لا، عليه أن يتزوجها، وهو ما يتم بالاتفاق مع أبيها. وكان الرجل الذى ضاجع امرأة غير متزوجة قبل الزواج أو خارج الزواج يجبر على الزواج منها، إذا ما كانت امرأة ذات مكانة، وإلا يمكنه أن يجعلها محظيته، أو كان عليه أن يدفع لوالدها نوعًا من الغرامة. وسفر الخروج (٢٢ : ١٦ ـ ١٧) يقرر: «وإذا راود رجل عذراء لم تُخطب واضطجع معها يمهرها لنفسه زوجة. إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى».

وكان الرجل الذى يضاجع امرأة متزوجة من شخص آخر يُدان بارتكاب الزنا، ويمكن رجم الاثنين بالحجارة حتى الموت. ولكن الزنا يكون على حسابها وليس على حسابه، ما لم تكن المرأة التى ضاجعها متزوجة بالفعل من رجل آخر؛ لأن الرجل المتزوج لا يمكن إدانته بالزنا. ولم يكن أحد يهتم برضاء المرأة وموافقتها، ولكن إذا كانت تعتقد أن جسدها ملك للآخرين، فمن المفترض أنها لم تكن تهتم هى نفسها بالموافقة كثيرًا. ومن الأمور ذات الدلالة أن الاغتصاب، بحد ذاته، لم يرد ذكره باعتباره جريمة فى العهد القديم على الإطلاق.

هذه المعايير المزدوجة المتطرفة لا تبدو معقولة سوى إذا ما كانت المرأة تعتبر ملكية للذكر، فإذا كانت هى (أو قدرتها الجنسية) «مملوكة» لشخص آخر، فإن مضاجعتها إذن تكون مشابهة لعملية السرقة، فإذا لم تكن مملوكة لأحد آخر فإنه يمكن الحصول عليها بترتيبات مالية مع أبيها الذى «يبيع» عذريتها إلى زوجها الجديد، ومن ثم فإن فقدان العذرية يدمر قيمتها.

كانت للتطبيق الصارم لهذه القواعد فى المجتمع البيوريتانى فى نيوإنجلاند نتائج متساهلة بطريقة غير متوقعة. ويسجل چون وينثروب حاكم ماساشوستس فى يومياته ليوم ٢١ يونيو ١٦٤١م: «برز سؤال فى المحكمة حول عقاب زنا الأعزب؛ لأنه حسب قانون الرب، كان على الرجل أن يتزوج المرأة فقط، أو يدفع مبلغًا من المال لأبيها؛ ولكن القضية المطروحة بين خادمين، وتم جلدهما بالسياط لأنهما أساءا استخدام منزل سيدهما...».

وأشهر حالة زنا من الفترة البيوريتانية هى الحالة الروائية لـ «هيستر بيرين» التى ألبست الثوب القرمزى الفاضح فى الرواية التى تحمل هذا الاسم للمؤلف نانثنيال هوثورن. فقد كانت متزوجة (على الرغم من أن زوجها كان قد اختفى)، وأنجبت طفلاً من رجل آخر لم يتم الكشف عن هويته. وتحت حكم قانون العهد القديم، الذى تقبله البيوريتان فى ماساشوستس ولكن لم يطبقوه بصرامة، كان ينبغى رجمها بالحجارة حتى الموت. وكان الحكم الذى أصدره قانون ماساشوستسى أن «تجلد على ظهر عربة عبر شوارع البلدة، وترتدى شارة عليها الحرفين AD تقطع فى ثوبها على كمها الأيسر». وفى هذه الحالة جعل هوثورن الحكم على هيستر بيرين يصدر من الحكّام بفترة من الخزى العام - بحيث تقف على مشنقة البلدة - مع إلزامها بأن ترتدى حرف A على ثوبها طوال الوقت. وتخفف بيرين من عقوبتها وتتحايل عليها بأن تطرز حرف A بطريقة فاخرة وترتديه لا بخجل وإنما بفخر يتسم بالتحدى.

وفى مجتمعات العهد القديم وتلك المجتمعات التى حذت حذوها، كان الرجل الذى يتزوج يتمتع بحقوق جنسية على زوجته، بيد أنها لم تكن لها حقوق

جنسية عليه. ومعاملة النساء باعتبارهن ممتلكات للذكر فى مثل هذا المجتمع كانت بدورها جزءاً من نظام للملكية والوراثة داخل العائلات؛ إذ كانت تضمن الحفاظ على ثروة العائلة؛ إذ إن الرجل لا يريد أن يخلفه أبناء رجل آخر نتيجة زنا زوجته. وتضمن العذرية عند الزواج أنها ليست حاملاً من رجل آخر.

والزنا، الذى فهم فى المعنى المسيحى اللاحق بأنه يعنى المضاجعة خارج نطاق الزواج، ليس مفهومًا واردًا فى العهد القديم. فحيثما ترد الكلمة، تعن عادة المجامعة الجنسية مع عاهرات المعبد، أو فى أية احتفالات أخرى تكريمًا لآلهة الخصوبة الوثنية. وهى بهذا ليست جريمة أو خطيئة جنسية بقدر ما هى دينية. وكان الملوك والأنبياء الذين قاتلوا ضد انجذاب شعبهم صوب الديانة الوثنية التى اصطبغت بالصبغة الجنسية بدرجة عالية والتى كانت تحيط بهم من كل جانب، لا يهتمون أساسًا بالأخلاقيات الجنسية، بالمعنى الحديث؛ إذ كانوا يريدون لإسرائيل أن تبقى مخلصة لربها. وقد كانت مضاجعة إحدى عاهرات المعبد بمثابة مضاجعة الرب الذى تمثله.

ولا أحد يجسّد تلك الغواية الجنسية الوثنية أفضل من إيزابيل الجميلة. ومن الواضح تمامًا أن إيليا لم يكن يعارضها؛ لأنها كانت شهوانية بهذا الوضوح، على الرغم من أنها كانت كذلك بصورة واضحة. كان يعارضها لأنها سحبت العبرانيين صوب الأصنام الزائفة. ولكن فى التبشير البروتستانتى، الذى يعكس النفور المانوى الشديد لكل الأمور الجنسية والذى كان من خصائص البيوريتان وإلى حد ما من خصائص كل الفرق المسيحية أيضًا، كانت إيزابيل قد صارت النمط الأصلى للغواية الأنثوية. وكل امرأة كانت تتجشم عناء أن تبدو ذات جاذبية جنسية كانت تضع نفسها فى موضع المقارنة معها، ويتم تذكرتها بمصيرها المرعب، لقد صارت موضة للنساء أن تلبسن ثيابًا فضفاضة. كانت الزينة تعتبر من عمل الشيطان.

ومساواة الزنا بعدم الإخلاص للرب عملة ذات وجهين. وهناك تراث مواز فى العهد القديم للفهم التدريجى لعلاقة الرب مع الإسرائيليين بأنه يشبه علاقة الزوج والزوجة ـ ليس مجرد الحب الرومانسى، ولكن الزواج بكل تقلباته. ويصير هذا

واضحًا من النبى هوشع فصاعدًا. فقد بدأت أفكاره مع تأملاته فى عدم إخلاص زوجته، التى سامحها عليها. وعلى الرغم من ألمه ظل مخلصًا، وقادته هذه الأزمة التى اعترت زواجه إلى التفكير فى حب الرب للإسرائيليين، وهناك صورة قلمية مؤثرة كتبها بيتر كالفوكوريسى فى «Who is Who in The Bible?»:

«وجه هوشع ملاحظة حنونة نسبيًا على الرغم من أنه حمل حملة شعواء ضد عبادة الأصنام، والرفاهية، والمجون، وانعدام مسئولية الحكّام الذين خانوا الثقة فيهم. وحث إسرائيل على التركيز على الإصلاح الدينى والأخلاقى ووقف الانشغال بالسياسات العالمية . . . فقد كان يؤمن بأن وظيفة الرب هى أن يوقع العقاب ولكن أيضًا إظهار الرحمة، وأن الرب مشدود فى طريقين بسبب خطايا إسرائيل وبسبب معاناتها. ولم يكن هوشع نفسه رجلاً سعيدًا، كما أنه على عكس سجايا الأنبياء العبرانيين، كانت حياته الخاصة مشتبكة بصورة مربكة مع نبوته، فقد كان مأمورًا بأن يتزوج عاهرة هى جومر التى رُزق منها بثلاثة أبناء، وأن يخلّص امرأة ساقطة ربما كانت هى جومر، وقد انحرفت مجددًا أو ربما كانت عاهرة أخرى. وسواء كان يعرف أو لا يعرف ماضى جومر قبل أن يتزوجها، فقد صار معاديًا للممارسة الجنسية غير المنظمة وطوّر مشابهة بين الزواج الدنيوى والعلاقة بين الرب وشعبه المختار تتألف من الود وخيبة الأمل».

هذه الفكرة الجوهرية، بينما توضح العلاقة بين شعب الرب والرب نفسه، لتكشف أنها علاقة غفران ومسامحة و ود ورقة وعلاقة قوة فى الوقت نفسه، فإنها أيضًا ترفع من مكانة الزواج؛ إذ إن الاضمحلال التدريجى فى تعدد الزوجات وسيادة الزواج من واحدة فقط (الذى كان قد رسّخ تمامًا فى زمن العهد الجديد، على الرغم من أن تعدد الزوجات لم يمنع نهائيًا فى اليهودية حتى القرن الحادى عشر الميلادى) قد تم ربطه مباشرة بهذا الدفع من شأن الزواج سيرًا على نهج هوشع، كما تم ربطه أيضًا بطريقة غير مباشرة بارتفاع شأن المرأة تبعًا لذلك.

وحينما اعتبرت المسيحية أنها حلّت محل اليهودية، انتقلت هذه العلاقة بين الرب وإسرائيل بشكل تنميطى إلى العلاقة بين الرب والكنيسة (أو تحديدًا بين

المسيح والكنيسة)، بيد أنها لم تحتفظ بفكرة أن الكنيسة يمكن من حين لآخر أن تكون غير مخلصة، أو أن المسيح قد يحتاج إلى مسامحتها. وبدلاً من ذلك، كان يُنظر إلى الكنيسة على أنها عروس لا تشوبها شائبة، عاجزة عن ارتكاب الخطيئة (الجزء «المقدس» من قائمة الصفات التى تتحلى بها الكنيسة فى العقيدة «كنيسة كاثوليكية وحوارية واحدة مقدسة»). وبدلاً من مشابهة حقيقية لحياة الزواج، تصير العلاقة بين المسيح والكنيسة، مثل الحب الرومانسى فى الخيال الشعبى، شهر عسل دائمًا.

ولا شك فى أن هذا أضعف قيمة المجاز والاستعارة، كما أنه فرض رؤية نظرية للكنيسة تتناقض مع المؤسسة الفعلية المتكبرة والخاطئة وغير المخلصة غالبًا التى نعرفها من خلال تاريخ الكنيسة. وثمة قدر كبير من سوء الفهم، بعضه تم خلقه عمدًا، قد فاض من هذا الانفصام، وما يزال يتدفق؛ إذ إن النظرية ترتكز على فهم ميتافيزيقى ودينى بأن الكنيسة هى علامة خارجية، ربما تكون جزئية أو معيبة، وحقيقة داخلية، ينبغى أن تكون كاملة. وقد رفض البروتستانت الأوائل هذه الغيبيات المقدسة، لسبب جوهرى يرجع إلى رفضهم اللاهوت الكاثوليكى عن طقس التناول ـ وهو الذى يميز بين العلامة الخارجية للطقس المبارك، الخبز والنبيذ، والحقيقة الداخلية التى هى دم المسيح وجسده. وحتى اليوم، عندما تتحدث الكنيسة الكاثوليكية عن نفسها، فإنها تتجه إلى أساس الكنيسة الخفية (الكاملة)، بدلاً من المظهر الخارجى المرئى (الذى يكون غالبًا بشريًا أكثر من اللازم). ولهذا السبب، فإن الفاتيكان فى اعتذاره بمناسبة الألفية الثانية لنزعة معاداة السامية لدى الكاثوليك، وجّه اللوم إلى «أعضاء الكنيسة» بدلاً من «الكنيسة» ذاتها، وهو تمييز ترك بوضوح كثيراً من اليهود بإحساس أن الاعتذار لم يكن من القلب تمامًا.

والمذهب البروتستانتى ، بينما لا يعرّف «الكنيسة» بأنها المؤسسة التى تحمل ذلك الاسم وتتمركز على روما «وإنما العكس»، فإنه يطبق على مفهومه الخاص للكنيسة «المبدأ اللوثرى»، بمعنى أن الكنيسة تحتاج إلى أن تكون فى عملية إصلاح

مستمرة، وهذا أقرب إلى نموذج العهد القديم عن شعب الله المختار. إنها علامة على الكنيسة الكاثوليكية التى بدأت تتحرك صوب هذا الفهم للكنيسة أن مجمع الفاتيكان الثانى (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م)، بينما يستخدم أيضًا مصطلحات «الشعب المختار» للدلالة على نفسه بقدر أكثر كثيراً عن ذى قبل، فإنه أيضًا مضى شوطًا فى اتجاه المفهوم اللوثرى عن الإصلاح المستمر بأن تبنى نفس المعادلة عن التطهير المستمر. أما ما لم تفعله حتى الآن لكى تجعل نموذج العهد القديم عن النبوة مناسبًا لها، وهى أن شخصًا ملهمًا يمكن أن يقف فى مكان الأنبياء ويكون ناطقًا باسم الرب لعمل التطهير المتواصل، بيد أن هذا ربما يكون تطوراً يمكن التطلع إليه فى المستقبل. وتحتاج الكنيسة الكاثوليكية إلى هوشع آخر، لا لكى يخبرها بعريس مولع دائمًا بجمال الكنيسة، ولكن يخبرها عن زوج كسير القلب يسامح زوجته غير المخلصة مرات ومرات.

وإلى أن حولت الدراسات الحديثة فى الكتاب المقدس التفسيرات غير المقبولة، كان من المفترض أن هذه العلاقة الزوجية التنميطية (الرب - إسرائيل يساوى الزوج - الزوجة) تشرح وجود بعض الشعر فى العهد القديم بشكل صريح، وهو ما يسمى «نشيد الأنشاد»أو «نشيد سليمان»؛ إذ إن المشاعر الرومانسية التى يرد وضعها كان يفترض أنها إشارة مجازية أو تنميطية إلى الزواج العاطفى بين الرب وإسرائيل (أو بين المسيح والكنيسة). والحقيقة أن هذا التفسير مفتقد فى العهد القديم ،ويبدو أنه ربما لم يخطر ببال الباحثين اليهود حتى سمعوا الباحثين المسيحيين يطبقونه على الكنيسة فى القرن الثانى بعد الميلاد تقريبًا. وفى كل من الحالين ربما كان الدافع هو تفسير نص يبدو أنه يطرى الشهوة الجنسية، وهى فكرة لم تكن السلطات الدينية اليهودية أو المسيحية مرتاحة إليها.

والتفسير القائل بأن الكاتب، ربما يكون الملك سليمان نفسه، كان يحاول أن ينافس طقوس الإخصاب الكنعانية كان شائعًا لفترة من الزمان ولكنه غير مقبول الآن . وهناك مشابهات فى أشعار الحب المصرية القديمة، ولكنها ليست اقتباسات مباشرة؛ إذ إن «نشيد الأنشاد» بقدر ما يحمله من دور تعليمى

بالمصطلحات الدينية، فإنه كان يوضح أنه لا يوجد شيء خاطئ في الرغبة الجنسية بحد ذاتها، ولا أن الرب يغضبه أن يستمتع الرجال والنساء ببعضهم البعض بهذه الطريقة. وهناك أيضًا مساواة بين رغبة الرجل في المرأة أو رغبة المرأة في الرجل؛ إذ إنها ليست علاقة سيادة أو امتلاك، ولكنها علاقة عاطفة، ورغبة وإخلاص متواضع. ويفكر الباحثون الآن بأنه من المرجح أن «نشيد الأنشاد» قد تم جمعه من مقاطع كانت تؤدى في الأصل للتسلية في احتفالات الزواج، وهذه عينة دالة على الأسلوب:

«ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة عيناك حمامتان من تحت نقابك، شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد، أسنانك كقطيع الجزائر الصادرة من الغسل اللواتي كل واحدة مُتْئِم وليس فيهن عقيم، شفتاك كسلكة من القرمز، وفمك حلو، خدك كفلقة رمانة تحت نقابك، عنقك كبرج داود المبني للأسلحة، ألف مجن علق عليه كلها أتراس الجبابرة، ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن، إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال أذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان، كلك جميل يا حبيبتي ليس فيك عيبة.

هلمي معي من لبنان، انظري من رأس أمانة من رأس شنير وحرمون من خدور الأسود من جبال النمور، قد سبيت قلبي يا أختي العروس، قد سبيت قلبي بإحدى عينيك بقلادة واحدة من عنقك. ما أحسن حبك يا أختي العروس كم محبتك أطيب من الخمر، وكم رائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب، شفتاك يا عروس تقطران شهدًا، تحت لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان» (نشيد الأنشاد ٤ : ١ ـ ١١).

والنشوة غير المكبوتة التي يحملها النص تعني أنه لم يكن من النصوص المفضلة لدى أي مبشر بيوريتاني، كما أنه لم يكن يعطي قدرًا كبيرًا من الثقل في النظرة الكاثوليكية التقليدية القائلة بأن المتعة الوحيدة في الجنس هي إنجاب الذرية، وأن هذا الولع الزائد، حتى في فراش الزوجية، كان خطيئة. والنزول بـ «نشيد الأنشاد» إلى جعله مجرد مجاز لاهوتي، يوضح مدى الحب الكثير الذي أحبه الرب

لإسرائيل (أو المسيح للكنيسة)، كان وسيلة مناسبة لدفن ابتهاج الشاعر الواضح بالشهوة الجنسية .

وبمرور الوقت انعكست هذه الموافقة المتساهلة تجاه النساء والزواج والجنس فى العهد القديم على المواقف تجاه الحرب، فالواقع أن ذلك تجلى فى زيادة عامة فى الحكمة وتناقص عام فى الوحشية عبر المسرح. فقد كانت التطورات السياسية والعسكرية بمثابة المهماز، بيد أن النتيجة تمثلت فى كَمّ من الأدب الدينى أنتجه أنبياء بنى إسرائيل الكبار والصغار، يتميز بالعمق والأصالة التخيلية فاق الأدب فى أية حضارة أخرى آنذاك، وبدا كما لو أن مصائب الشعب، التى تسببت فيها سلسلة من الملوك الصغار الذين كانوا إما حمقى وإما أوغادًا، قد ولدت انفجارًا مساويًا للطاقة الإبداعية لصالح الخير من جانب الرجال المتعلمين والحكماء فى ذلك الزمان (كان بعضهم، بسبب حكمتهم، يبدون مجانين فى عيون معاصريهم). كان معظم هذا الأدب مكرسًا لتصحيح بلاهة الملوك وتحذير الشعب من عواقب حماقتهم، بيد أن مجاله تعدى سياقه المباشر، ومثل الفن العظيم فى كل مكان كان يتحدث عن الحالة الإنسانية فى كل الظروف. ولا شىء أثر على الفضاء العقلى للثقافة الغربية بقدر ما أثرت المزامير، والأمثال والنبوءات التى تولدت عن الأحداث المعروفة باسم «النفى البابلى» (أو الأسر البابلى)، وهى فترة أزمة سياسية وعسكرية حادة فى حياة بنى إسرائيل أوشكت فيها على الهلاك إلى الأبد. وكان فى تلك الفترة أن تمت كتابة الجزء الأكبر من العهد القديم، وتحريره على الصورة المعروف بها.

وإذ لاحظنا بربرية الإسرائيليين القدماء، وحوادث الاغتيال والمذابح التى كانت تتم بشكل روتينى بموافقة الرب أو بناء على أمر منه، فمن المهم أيضًا أن نتعرف على عمقهم وإدراكهم الأخلاقى المتنامى، والشعور بالعدالة، وإدراكهم لكوامن الشفقة فى الحياة الإنسانية، وأهمية الاعتماد المتبادل. وإذا كانت البربرية مثالاً خطيرًا للأمم اللاحقة التى ظنت أنها مختارة من الرب، فإن النظرة الأخلاقية والروحية المتنامية التى كانت قد بدأت تميز الإسرائيليين القدماء أيضًا كانت عاملاً قويًا فى تطور الحضارة فى ظل المسيحية .

وأولئك الأنبياء كانوا لا يألون جهداً وهم يؤنبون حكّام زمانهم. ومن المحتمل تماماً أن البروتستانت في بريطانيا وبعدها في أمريكا ساروا على مثالهم، واعتبروا أن لهم حقاً إلهياً لأن يصرحوا بما في أذهانهم عن أخطاء حكّامهم.

وفي بعض الأحيان كانت وظيفة «النبي» ـ تكاد تعتبر وظيفة ذات صلاحيات ـ جزءاً من مؤسسة المعبد في القدس. وإذا ما اعتبرنا أن مهمة النبي الرئيسية كانت توبيخ الحاكم والشعب جراء سلوكهم الرديء، فقد كانت نوعاً من «المعارضة الرسمية». والكلام عن حرية الحديث مبالغة على أية حال؛ لأن الأنبياء كانوا يدينون الملوك ويواجهون الهلاك وربما كانت حياتهم ثمن ذلك. ومع هذا إدانتهم واردة في روايات العهد القديم على نحو مطوّل، عادة على أنها كلمات ينطق بها البشر ولكنها آتية من الرب مباشرة، ودائماً يكون كاتب النصوص المقدسة في جانب الأنبياء. وباعتبار العهد القديم سجلاً للنبوءة، فإنه عبارة عن كتالوج قوي المعارضة ضد سوء استخدام الحكم. ولأنه كان يعتبر في المجتمعات البروتستانتية «كلمة الرب»، فإن هذا أسبغ على المعارضة (على الأقل حينما كان التعبير عنها يتم باسم الديانة الحقيقية) خاصية مقدسة. وربما لم تكن تروق للملك و وزرائه ولكن مع وجود مثل هذه الأمثلة المأخوذة من الكتاب المقدس، فإنه لم يكن بوسعهم أن يجادلوا بسهولة بأن توجيه النقد إلى الملك كان أمراً شريراً أو مناقضاً لإرادة الرب.

وإذا ما أخذنا في اعتبارنا مدى انغماس العامة في الكتاب المقدس، فإن مفهوم التوتر المستمر بين الملك والنبي، بين الحكومة والمعارضة، كان تأثيراً تشكيلياً مهماً في ظهور الديموقراطية البرلمانية في انجلترا، وعلى الرغم من أن النقد الموجه إلى سياسة الدولة صار علمانياً عندما صارت مواضيع الشئون السياسية نفسها علمانية، فإنها برزت في البداية عندما كانت كل الشئون السياسية تقريباً متداخلة مع الدين. ونقص المجاز النصي المماثل في الجدل السياسي في الفهم الكاثوليكي للنبوءة الواردة في الكتاب المقدس، ربما يشرح السبب في أن الديموقراطية البرلمانية كانت على مدى فترة طويلة تعتبر نظاماً أجنبياً وغريباً في البلاد الكاثوليكية؛ إذ إن تراث النبوءة معاد للاستبداد الملكي ـ بمعنى أن الملك لا

يمكن أن يخطئ- قدر معاداته للاستبداد الكنسي- بمعنى أن الكنيسة لا يمكن أن تخطئ. وكل من يعرف العهد القديم ويطبقه على موقفه الخاص يعرف الأمر بطريقة مختلفة: فالملوك والكنائس يرتكبون الأخطاء طوال الوقت. وهذا قد يفسر السبب فى أن المجتمعات الكاثوليكية كانت أكثر انفعالية وأكثر ثورية من المجتمعات البروتستانتية، كما يفسر السبب فى أن المجتمعات البروتستانتية كانت تؤخذ على أنها أشد إخلاصًا للكتاب المقدس. يقدم النظام البرلمانى الطريقة التى يمكن أن تستجيب بها المؤسسات الحكومية للضغط، وبدونها، ليست لديها سوى بدائل قليلة للمقاومة حتى الموت، أو الانهيار.

وربما يفسر هذا أيضًا السبب فى أن البروتستانتية القائمة على الكتاب المقدس قريبة الشبه بفكرة الحرية والتحرير. وهذه الحالة ليست أكيدة تمامًا، فباسم البروتستانتية تم ارتكاب الجرائم الفظيعة فى حق الإنسانية، وإذا ما وضع المرء البروتستانتية ضمن الأيديولوچية الدافعة إلى استعمار أفريقيا، مثلاً، أو القضاء على المقاومة المحلية ضد التوسع الأمريكى باتجاه الغرب، أو التورط الأنجلو- أمريكى فى الرق، فإن مثل هذه الجرائم قد تفوق تلك الجرائم التى ارتكبت باسم الكاثوليكية (على الرغم من فظاعتها هى الأخرى). لقد كانت الكاثوليكية هى الراية التى فى ظلها اضطهدت مارى الدموية الشهداء البروتستانت فى منتصف القرن السادس عشر، وهى قصة أرّخ لها بشكل حيوى على مرّ السنوات چون فوكس، واضطهادات الهيجونوت فى فرنسا، أو مصير اليهود والهراطقة فى إسپانيا تحت فظاعة محاكم التفتيش. ولكن فى العهود البروتستانتية التالية، تم إعدام المزيد من الكاثوليك فى انجلترا وويلز بقدر يفوق العدد الكلى لضحايا الملكة مارى. وسواء كان الموت شنقًا، أو الإغراق، أو تقطيع الجسد إلى أربعة أجزاء (وهو المصير الذى لقيه معظم الكاثوليك) فإنه لم يكن أقل قسوة من الموت حرقًا (الذى كان الوسيلة المفضلة للتخلص من البروتستانت). والنقطة هنا ليست مسألة من قتل معظم الناس، أو مسألة أى شكل من أشكال الإعدام كان أشد إيلامًا، وإنما هى أن الكاثوليك تحت حكم إليزابيث الأولى أو چيمس الأول، لم يكونوا أكثر حرية فى التعبير عن آرائهم مما كان البروتستانت تحت حكم مارى. لقد كان هناك

حديث مستفيض عن «التسامح» عندما اقترب القرن السابع عشر من نهايته، بيد أنه لم يكن أبدًا تسامحًا تجاه الكاثوليك - باستثناء فترة حكم چيمس الثانى القصيرة. وبعبارة أخرى، كان تسامحًا إزاء أولئك الذين كان من الأسهل التسامح إزاءهم، أى تسامح بثمن بخس(*).

كانت هناك جرائم الكاثوليك، ولا يمكن للمرء أن يقول المثل عن جرائم الكراهية الأخرى التى تقف ضد اسم البروتستانتية الطيب فى انجلترا وأمريكا القرن السابع عشر - اضطهاد الساحرات. ومثل هذا التحرر أو الحرية كما زعمتها البروتستانتية، كان تحررًا لشعب الرب، تمامًا مثل الحال فى العهد القديم. ومعظم ما نُهى عنه فى شرائع موسى، بما فى ذلك الحرية من العبودية، لم يكن ينطبق سوى على العبرانيين، وأى واحد خارج هذه الحدود، سواء كان غريبًا أو خائنًا، لا يتمتع بمثل هذه الحماية، والكاثوليك (لكونهم أعضاء فى شعب مختار منافس) لم يكونوا تحديدًا من ضمن هؤلاء، ولا اليهود (لأسباب مشابهة). وكانت الساحرات أشد سوءًا من الاثنين؛ لكونهن عدوات سريات بالداخل أكثر من الأعداء الواضحين فى الخارج. فالسحر، مثل الهرطقة، جريمة فكر: فالفعل نفسه خفى، على الرغم من أنه يمكن استنباطه من أدلة أخرى.

وعلى مدى الألف سنة الأولى من المسيحية كان السحر يعتبر إما مجرد استمرار للاعتقاد الوثنى فى السحر، أو مجرد عبث. هذا على الرغم من المنع الواضح فى سفر الخروج(٢٢: ١١) «لا تدع ساحرة تعيش»، وهو ما يشير ضمنًا إلى أن الساحرات كن حقيقيات. وكل من الرومان ومحاكم التفتيش الإسپانية لم يأخذ السحر على محمل الجد، كما أن المناطق الأوروبية تحت هيمنة الرومان والإسپان لم تشهد موجات الهياج المجنون ضد السحر والتى اندلعت فى الأماكن الأخرى، لا سيما فى ألمانيا (تحت الإشراف الكاثوليكى إلى حد بعيد) واسكتلندا (تحت

(*)وضع المفكر الإنجليزى المشهور «چون لوك» كتابًا صغيرًا عن التسامح فى نهاية القرن السابع عشر، وفى نهاية الكتاب أوضح أن هذا التسامح يستثنى منه: اليهود والأتراك (المسلمون)، ومن لهم ملك خارج البلاد(يقصد الكاثوليك والبابا)! . ولمن أراد الاستزادة يمكنه قراءة كتاب «رسالة فى التسامح» الذى نشرته «دار الغرب الإسلامى»، وترجمه وقدمه بدراسة متميزة عبدالرحمن بدوى.

الإشراف البروتستانتى)، وبلغ حرق الساحرات الذروة فى انجلترا خلال فترة الحكم البيوريتانى تحت كرومويل. كما أن محاكمة سالم الشهيرة التى ضمت مائة وخمسين متهمًا فى ماساشوستس، والتى كانت محكومة بالحرفية البيوريتانية المستندة إلى الكتاب المقدس أيضًا، حدثت فى وقت لاحق سنة ١٦٩٢م، وأسفرت عن شنق تسعة عشر. وبعدها بوقت غير طويل صدر العفو عن عدد مماثل.

والمعارضة المتوحشة من جانب البيوريتان للسحر تم تفسيرها بطرق مختلفة، وهى تقدم مجالاً غنيًا للحالات التى يلتقطها المحللون النفسيون وعلماء الأنثروپولوچى. وثمة تفسير دينى يمكن أن يكون مؤداه أنها نتاج للإيمان بالقدر؛ إذ إن أولئك المختارين - الذين مقدر لهم سلفًا أن ينالوا الخلاص - كانوا بطبيعة الحال فضوليين بشأن أولئك الذين ليسوا كذلك، والذين لا يمكن أن يكونوا جميعًا من الرومان الكاثوليك؛ ذلك أن من ينال الخلاص، والملعون، كانا يتزاحمان بالمناكب سويًا فى غمار الحياة، ولا يكاد كلٌّ منهما يقدر أن يطلب من الآخر أن يبتعد. ومن هذا فإنه إذا كان من سينالون الخلاص قد اختارهم الرب فعلاً، فإن الملعونين إذن كانوا، بالاستنباط، مختارين من الشيطان بالفعل. ولكون الشيطان ماكرًا، فإنه لم يكن ليكشف عن اختياره بهذا الوضوح، بأن يجعلهم جميعًا مثلا أشرارًا إلى أبعد مدى. ولذلك فإن بعضهم لا بد وأن يعيشوا مظهريًا عيشة تواضع وتقوى، بينما يحافظون على روابطهم مع الشيطان سرًا. وكان جزء من عمل الشيطان هو أن يخطف أرواح المختارين من الطريق إلى السماء. فالقدر لم يكن سوى توضيح لحالة من النعمة يمكن خسرانها، وليس ضمانًا أكيدًا للخلاص أيًا كانت الحال. ومن ثم فإن أولئك الذين انخرطوا فى أعمال السحر كانوا إما «مسيحيين ساروا فى الطريق الخطأ». وهم يمكن التبشير بينهم، وجعلهم يعترفون، وإعادتهم إلى المسيحية ومعاقبتهم ثم يتم التكفير عن ذنوبهم فى النهاية. أو أولئك الذين قدر لهم سلفًا أن تنالهم اللعنة، ولا يمكنهم التوبة، ولا يمكن بعد التظاهر بهذا أن يعودوا إلى دينهم. وتبدو فكرة أن السحر بقاء لديانة وثنية سابقة فكرة خيالية؛ إذ لا توجد وسيلة يمكن أن تكون بها

«ساحرات سالم» الشهيرات، مثلاً، على اتصال بديانة إنجليزية سابقة على المسيحية.

وحالة البارانويا بشأن الساحرات التى أمسكت بتلابيب أوروبا ومسّت نيوإنجلاند على مدى مائتى سنة لم تلبث أن خفتت، بعد أن أودت بحوالى خمسين ألف ضحية. والاعتقاد فى السحرة كان يتطلب اعتقاداً نشطًا فى الشيطان، أى روح شريرة قادرة على أن تتخذ شكلاً إنسانيّا أو حيوانيّا يتجول فى العالم لينشر الشر، وتقيم الساحرات معه علاقات جنسية! . والشيطان بطبيعة الحال، كان مرتبطًا بالمسيح الدجال بشكل وثيق. وفى انجلترا وأمريكا البروتستانتيتين، تصادفت قمة الهياج لمطاردة السحر مع ذروة البارانويا تجاه الكاثوليكية، لا سيما الخوف من أن كثيرين من الناس الذين تظاهروا بأنهم ليسوا كاثوليكًا كانوا كذلك بالفعل. وكانوا معروفين بأنهم أتباع «الكنيسة البابوية»، والمقصود بهم أولئك الذين توافقوا مع كنيسة انجلترا دون أن يتخلوا حقّا عن «الديانة القديمة» التى استمروا يمارسونها فى السر. وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا العقوبات القاسية على عدم حضور الخدمات الكنسية فى الكنيسة المعترف بها، بما فى ذلك خطر الحرمان من الميراث، فإن مثل هذا التوافق المظهرى كان واسع الانتشار.

وكذلك لم يكن الشك البروتستانتى فى تشارلز الثانى ونظامه خياليّا تمامًا؛ إذ إنه تقبل مساعدة مالية من ابن عمه الفرنسى لويس الرابع عشر، وهى مساعدة كانت مشروطة بأن يتحول إلى الكاثوليكية، وهو ما فعله على فراش الموت. ولكن نتيجة لمناخ الشك السائد هذا كان كل شىء خطأ لا يمكن نسبته إلى السحر يمكن أن يُعزى إلى الكاثوليك وأنشطتهم السرية، أو إلى الكاثوليكية والسحر فى تحالف شيطانى. ففى البداية كان اللوم يوجه رسميّا إلى الكاثوليك بشأن النيران التى دمرت معظم أنحاء لندن سنة ١٦٦٦م. والأوبرا التى ألفها بورسل تحت عنوان: «Dido and Aeneas»، والتى ربما تكون قد كُتبت قبل موت تشارلز الثانى سنة ١٦٨٥م، حينما كان الهياج البروتستانتى المحموم لقدوم الملك الكاثوليكى چيمس الثانى فى ذروته، كان له دور فى «الساحرة الكبيرة والساحرات

اللاتى يتبعنها» ، والذى كان يتم تفسيره دائمًا على أنه إشارة إلى التهديد الأسود والمنحوس من جانب البابوية فى الخيال الشعبى.

وفكرة أن البروتستانتية تقف مدافعة بوضوح عن الحرية فكرة يحيط بها الشك ما لم تكن تعنى، بعبارة أخرى، حرية أن تكون بروتستانتيًا طيبًا. وحتى فى ذروة محاكم التفتيش الإسبانية، كان الكاثوليكى يستطيع أن يزعم تحديدًا مساويًا - أى حرية أن تكون كاثوليكيًا طيبًا. وفى كل من الحالين، فإن الحرية المحدودة التى كانت موجودة كانت تمنح فقط لأولئك الذين هم ضمن «شعب الرب»، مهما كان تعريفه. وأولئك الذين خارج حدوده لم تكن لهم مثل هذه الحرية؛ ذلك أن الكاثوليك لم يكونوا يتسامحون مع البروتستانت، كما لم يكن البروتستانت يتسامحون مع الكاثوليك، وعلى العموم لم يكن كلاهما يتسامح مع اليهود.

وعلى أية حال، فسواء كانت كاثوليكية أو بروتستانتية ، فإن الحرية كانت لها خصوصية إنجليزية . فالحرية هنا لا تعنى بالتحديد حرية الكلام - إذ إن الإنجليز على مدى فترة طويلة كانت لديهم قوانين ضد الكلام والكتابة المثيرة للشغب - ولكنها تعنى بنية من القوانين التى تضع حواجز ضد سلطات الملك دفاعًا عن الرعية ، والميثاق الكبير (الماجنا كارتا) سنة ١٢١٥م لم يكن بداية هذه التقاليد؛ إذ إن كثيرًا من متطلباته وضعت فى مصطلحات ترغم الملك على احترام الحقوق القائمة والاتفاقات الموجودة ، موضحة أنها قائمة وموجودة منذ القدم ، وبعضها موجود منذ فترة ما قبل الغزو [النورمانى ١٠٦٦م]. وأهم الحقوق الممنوحة فى ظل الميثاق الكبير تذهب بطريقة ما لضمان حقوق الرعايا. وتوضح العبارات الحاسمة أن :

«(٣٨) لا يجب على مُحضر فى المستقبل أن يقدم أحدًا إلى المحاكمة بمجرد كلامه ، دونما وجود شهود موثوق بهم ، يُستدعون لهذا الغرض» .

«(٣٩) لا يجب القبض على رجل حر أو سجنه أو تجريده من أملاكه أو تجريمه أو نفيه أو أن يكون ضحية بأية طريقة ، كما أننا لن نهاجمه أو نرسل أحدًا لمهاجمته ، إلا بناء على حكم قانونى من حكّامه ، أو بمقتضى قانون البلاد» .

«(٤٠) لن نبيع إلى أى أحد، ولن نرفض أو نؤجل لأى أحد حقه أو العدل».

ولم يقم كبير أساقفة كانتربورى، ستيفن لانجتون، فقط بتنظيم احتجاجات البارونات التى أدت إلى الميثاق الكبير، ولكنه تصرف باعتباره أحد الشهود والضامنين له (على الرغم من أنه أيضًا خضع للتأكيد البابوى). ولذلك فإنه كان يبدو أحيانًا فى أعين زعماء كنيسة العصور الوسطى، كما لو كان يقدم صوتًا تنبؤيًا ضد طغيان الملك، وقد حاربت الكنيسة بضراوة للحفاظ على الحرية الكافية لعمل هذا. كان هذا هو الموضوع الأساسى فى النزاع بين هنرى الثانى وسلف لانجتون الشهير فى القرن السابق، توماس بيكيت، وهكذا فإن العبارة النهائية فى الميثاق الكبير تبدأ بتكرار الضمان الذى سبق منحه، بأن الكنيسة الإنجليزية لن تكون تحت سلطة الدولة الإنجليزية:

«وحيث نرغب ونأمر بصرامة أن الكنيسة الإنجليزية يجب أن تكون حرة، وأن الرجال فى مملكتنا سيكون بمتناولهم الحريات المذكورة سابقًا والحقوق والامتيازات أيضًا وبسلام، وبحرية وهدوء، كاملة غير منقوصة، لهم ولورثتهم منا ومن ورثتنا، فى كل الأمور وفى كل الأماكن إلى الأبد، على نحو ما سبق ذكره...».

كذلك أنشأ الميثاق الكبير مجلسًا يتألف من خمسة وعشرين من البارونات، كان عليهم مراقبة مراعاة الملك لشروطه، كما كان لهم حق شن الحرب على الملك إذا ما نكث بوعوده. كانت هذه هى الوسائل المختلفة التى بدأ بها الدستور الإنجليزى بناء عوامل الضبط والتوازنات؛ لكى يسحب السلطة المطلقة من الملك، ويعاقبه إذا حاول ممارستها. وهناك علامات لا تخطئها العين هنا على أن البارونات، وستيفن لانجتون بصفة خاصة، كانوا على وعى بنموذج العهد القديم، حيث كان مسموحًا للأنبياء أن يشرفوا، ويحتجوا عند الضرورة، على الطريقة التى يمارس بها الملك سلطاته. وعلى الرغم من أن «الماجنا كارتا» لا يضفى أية رخصة أو موافقة على الجمهورية، فإن الذين وضعوا مسودة الدستور الأمريكى، ودساتير كثير من الولايات الأمريكية منفردة، اعتبروه نقطة مركزية لفلسفتهم؛ إذ إنه أعطى بالفعل موافقة قانونية لحمل السلاح ضد ملك يعوق الحريات التى ضمنها الميثاق، وهو ما

قد يكون السبب فى أنه كان دائمًا محفوظًا فـى الذاكرة التاريخية فى أمريكا أكثر منه فى انجلترا.

ومن ناحية أخرى فإن النظام الدستورى الإنـجليزى بمعارضة «رسمية» دائمة - وهى تسمى بالفعل «معارضة جلالة الملكة المخلصة» - هو أقرب لنموذج العهد القديم حتى من النظام الأمريكى، حيث إن الحزب الموجود خارج السلطة فى الكونجرس أو البيت الأبيض لا يرى نفسه فى مهمة لمعارضة الحكومة بأى ثمن؛ إذ إن ذلك الدور منوط أكثر بالصحافة الأمريكية.

كان أول الأنبياء هو موسى، ولم يخطر بباله أن ينتقد الحاكم؛ لأنه كان هو الحاكم، ولكن الأعظم كان هو إشعيا الذى خطر ذلك بباله. والحقيقة أنه كان هناك أكثر من واحد بهذا الاسم؛ لأنه بين الأقوال المنسوبة إلى شخص يحمل ذلك الاسم نجد أقوالاً تصف حوادث تبعد عن عصره مئات السنين، وكان إشعيا نبيًا مفضلاً لدى الشراح والمعلقين المسيحيين فيما بعد؛ لأن الكثير من نبوءاته كان يمكن أخذها على أنها نبوءة بقدوم يسوع المسيح، مثلما ورد فى سفر إشعيا (٧ : ١٤) «ولكن يعطيكم السيد نفسه آية. ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانويل». وأشهر استخدام لإشعيا على هذا النحو ينسب إلى يسوع نفسه:

«فدفع إليه سفر إشعيا النبى. ولما فتح السفر وجد الموضع الذى كان مكتوبًا فيه، روح الرب علىّ؛ لأنه مسحنى لأبشر المساكين أرسلنى لأشفى المنكسرى القلوب لأنادى المأسورين بالإطلاق وللعمى بالبصر وأرسل المنسحقين فى الحرية. وأكرز بسنة الرب المقبولة. ثم طوى السفر وسلمه إلى الخادم وجلس. وجميع الذين فى المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه» إنجيل لوقا (الإصحاح ٤ : ١٧-٢٠).

وقد أسهم إشعيا والأنبياء اللاحقون إسهامًا شاملاً فى تطور اليهودية، ولا سيما فى التأكيد الذى ظهر بالتدريج على السلوك الأخلاقى والعدالة الاجتماعية باعتبارهما علامة على الاستقامة الحقة (بدلاً من الطقوس المجردة وتجنب التأثيرات الوثنية). وتحت ظل الأنبياء اللاحقين بدأت تبرز فكرة أن القواعد

الأخلاقية التى وضعها الرب تنطبق على الكل وليس على اليهود وحدهم، وأن اليهود عليهم أن يتصرفوا بطريقة أخلاقية تجاه غير اليهود تمامًا مثلما هو الحال فى سلوكهم مع رفاقهم فى الدين. والنموذج الذى أرساه العهد القديم للعدالة الاجتماعية قُيض له أن يكون ذا تأثير عميق على التطورات اللاحقة (فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين) مثل الاشتراكية المسيحية فى انجلترا وحركة الإنجيل الاجتماعى فى أمريكا.

ومن نافلة القول، على أية حال، أن نقول إن نموذج العهد القديم فى معاملة النساء لم يكن يشكل جزءًا من ذلك النموذج. كما أنه لم يكن، كما هو الحال فى الكاثوليكية الرومانية التى تضع مريم العذراء فى مكانة سامية (فى بعض الأحيان تجعلها مخلّصًا مساعدًا للجنس البشرى مع المسيح) هناك أى ملامح تعويضية فى البروتستانتية لتقويم الانحياز القوى للذكر.

وفى الروايتين اللتين يوردهما سفر التكوين عن الخليقة، تصف إحداهما أول ذكر وأول أنثى تم خلقهما فى الوقت نفسه، ولكن الرواية الثانية تصف آدم باعتباره المخلوق الأول وحواء باعتبارها خلقت من ضلع أخذ من جسده عندما راح فى النوم. ويصف النص آدم باعتباره حاكم حواء (وأحيانًا سيدها)، كما أن قصة السقوط تدمغها باعتبارها سبب سقوط آدم عندما أغوته بأن يأكل التفاحة المحرمة.

وكما أن القواعد ـ اليهودية ـ تفضل الرجال فى العلاقات الجنسية وعادات الزواج، كما شرحنا من قبل، فإن الشريعة الموسوية تتضمن العديد من ترتيبات التفرقة الأخرى. فبعد مولد الطفل، فإن المرأة التى وضعت طفلاً ذكراً تظل نجسة على مدى أربعين يومًا، أما إذا وضعت طفلة أنثى فإنها تظل نجسة ثمانين يومًا. وفى الإحصاء يتم حساب الذكور الذين يزيد عمرهم عن شهر، أما البنات فلا يتم إحصاؤهن. وكان الطفل الذكر دون الخامسة يساوى خمسة شيكل، والبنت ثلاثة شيكل. وكان من حق الأبناء وراثة آبائهم، ولا ترث البنات سوى حين لا يكون هناك أبناء، وإذا لم يكن هناك ذرية مباشرة، يرث الإخوة، أما الأخوات فلا ترثن. ويمكن إلغاء اليمين أو القسم الذى تقطعه النساء على أنفسهن بواسطة الآباء أو الأزواج،

أما الأيمان التى يقطعها الرجال على أنفسهم فكانت ملزمة. والمرأة التى تفقد عذريتها قبل الزواج يمكن رجمها بالحجارة حتى الموت، ولكن هذا لا ينطبق على الرجل. والطلاق لا يمكن أن يتم إلا بمبادرة من الرجل، وليس من قبل المرأة. وبعد نهاية النفى البابلى تمت إعادة بناء الهيكل الثانى وفيه منطقة منفصلة أقل مستوى مخصصة للنساء؛ ولم يكن مسموحًا للنساء أن تشهد فى ساحات المحاكم. وصار مُحرّمًا على النساء أن يتحدثن إلى الغرباء أو أن يظهرن علنا بغير حجاب؛ وهكذا.

وعند بداية العهد المسيحى، حينما أصبحت التنظيمات التفصيلية فى العهد القديم تعتبر غير ملزمة للمسيحيين على العموم، كان الباب مفتوحًا أمام الكنيسة البازغة أن تستبعد كل هذه القواعد التى تحبذ التفرقة ضد النساء، وتبدأ من جديد، وبدلاً من أن يحدث هذا تم تثبيت معظم هذه القواعد. وكان القديس بولس بشكل خاص حريصًا على تكرار القاعدة القائلة بأن النساء خاضعات لأزواجهن. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تعديل الكنيسة المسيحية مجاز النبى هوشع ليناسبها ـ وهو المجاز القائل بأن علاقة الرب بإسرائيل مثل علاقة الزوج بالزوجة ـ قد أكد حتى على أن الزوجات مدينات بالطاعة لأزواجهن كما تدين الكنيسة بالطاعة للمسيح.

وهناك عوامل تفرقة أخرى فى العهد الجديد، مثل أن النساء لا ينبغى أن تكن «رأس» الرجال؛ إذ يجب أن تلزم النساء الصمت فى الاجتماع، كما أن النساء يجب أن تغطين شعورهن فى كل الأوقات، وهلم جرا. وقد مال البروتستانت إلى أخذ العهد الجديد حرفيًا مثل العهد القديم، ولم يكونوا قادرين على السماح بالكثير من الانحراف فى تفسير مثل تلك القواعد. وصارت البروتستانتية ديانة ذكورية بشكل زائد عن الحد نتيجة لهذا. أما الكاثوليكية، بحريتها فى إعادة تفسير النصوص المقدسة، والكثيرات من القديسات اللاتى تعترف بهن، ونظمها الرهبانية الكثيرة القاصرة على النساء وأديرتها القوية، فضلاً عن إخلاصها لمريم العذراء باعتبارها الكائن البشرى الأسمى (على الرغم من أنها حملت بلا دنس)، لم تكن أبدًا تميل إلى الذكور بمثل هذا الوضوح. ومن ناحية أخرى، فمنذ القرن

الثالث عشر على الأقل كانت العزوبية الإجبارية للقساوسة الرجال قد تركت حكومة الكنيسة الكاثوليكية فى أيدى الرجال وحدهم - وهو ما كان يصدق أيضًا على الكنائس البروتستانتية - بل إنها أيضًا تركت هذه الحكومة بأيدى رجال لم تكن لهم علاقة بالنساء كزوجات وبنات. وقد أدى هذا حتمًا إلى اتجاه لا ينظر فقط إلى النساء نظرة استعلاء، وإنما ينظر إليهن متطلعًا أيضًا بطريقة زائدة عن الحد. لقد كانت النساء فى الثقافات الكاثوليكية إما متبتلات أو عاهرات، أو مزيجًا من الاثنتين. أما فى الثقافات البروتستانتية فقد كانت النساء زوجات منزليات.

ولكن لم تستبعد أى من الثقافتين (البروتستانتية و الكاثوليكية) النساء من عضوية شعب الله أو الشعب المختار. ولهذا السبب، كان عليهن أيضًا أن يكن سوداوات، أو من الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية، أو كاثوليكيات (ولا سيما الأيرلنديات). لأن تلك كانت ثلاثًا من الفصائل الأساسية التى شعرت بقوة الاعتقاد الإنجليزى أو الأمريكى بأنهم الشعب المختار، وأن الرب سمح لهم بأن يتصرفوا تجاه الأغيار تمامًا مثل موسى وجدعون ويوشع وغيرهم من حكّام إسرائيل القديمة.

وتشبيه قارة أمريكا الشمالية بالأرض الموعودة عنصر قوى فى الشعور البازغ بالوطنية الأمريكية، قبل الحرب الثورية وبعدها. وكان هذا موضوعًا منتظمًا فى الخطب والمواعظ الكنسية. وقد أهدى «تيموثى دوايت» كتاب: «قهر كنعان - The Conquest of Canaan» لجورج واشنطن، بيد أنه لم يولد شعورًا بأنه قال شيئًا جديدًا. والتشابه بين أرض كنعان، والتى سكنتها بالفعل قبائل عديدة، ولكن زعم أنها نتيجة هبة ربانية إلى شعب الله المختار الأول، وهذه الأرض الشاسعة الثرية «الأرض التى تفيض باللبن والعسل»، كما زعم شعب الله المختار الجديد، واضح تمام الوضوح.

وربما كان الأمر مختلفًا. ففى فرچينيا، كان زواج چون رولف وبوكاهونتاس ابنة الزعيم المحلى، يوحى ببداية علاقة من السلام والمشاركة، بيد أنه لم يستمر ولكن الانفصال لم يكن خطأ الإنجليزى وحده؛ إذ إن التدهور الحقيقى بدأ،

بصورة طبيعية، مع الشعب المختار الممتاز، أى أوائل المستوطنين البيوريتان فى ماساشوستس. ففى البداية أشفق الهنود الحمر عليهم - وهى حقيقة يتم إحياء ذكراها سنويًا فى عيد الشكر(*) - ولكن ردهم الجميل كان سريعًا وقاسيًا. ويصف بى براون فى كتابه «Bury My Heart at Wounded Knee» التقدم السريع صوب الصراع والمواجهة فى هذه العلاقة الأكثر مأساوية بين كافة العلاقات الاستعمارية:

«على مدى سنوات عديدة كان هؤلاء الإنجليز وجيرانهم الهنود يعيشون فى سلام، ولكن المزيد من حمولات السفن من البيض استمرت فى القدوم إلى الشاطئ بأعداد كبيرة. وكانت أصوات الفئوس وسقوط الأشجار تتردد أصداؤها فى الأرض التى أطلق عليها البيض حينئذ اسم نيوإنجلاند (انجلترا الجديدة). وبدأت المستوطنات تزاحم بعضها بعضًا. وفى سنة ١٦٢٥م طلب بعض المستعمرين من ساموست أن يعطيهم مساحة إضافية من الأرض تبلغ اثنى عشر ألف فدان إنجليزى من أراضى بيما كويد. وكان ساموست يعرف أن الأرض تأتى من الروح العظيمة، وهى بلا حدود مثل السماء وليست ملكًا لأحد. ولكى يسلى أولئك الغرباء بأساليبهم الغريبة، أقام احتفالاً لنقل الأرض ووضع علامته على ورقة أعطاها لهم، وكانت تلك أول وثيقة تتعلق بالأراضى الهندية للمستعمرين الإنجليز. ولم يحفل معظم المستوطنين الذين كانوا يفدون بالآلاف فى ذلك الحين بالمرور بمثل هذا الاحتفال، وفى ذلك الوقت الذى كان ماساسويت، الرئيس الكبير لقبائل وامبانواجز، قد مات سنة ١٦٦٢م، تم طرد شعبه إلى البرارى. وتنبأ ابنه ميتاكوم بنهاية جميع الهنود ما لم يتحدوا لمقاومة الغزاة».

وكوّن ميتاكوم تحالفًا من القبائل الهندية ثم خرج للحرب، وهاجم خمسين مستوطنة ودمر منها اثنتى عشرة. وبعد شهور من القتال، تمكنت نيران البنادق المتفوقة التى بحوزة الرجل الأبيض من تحقيق الهيمنة على القبائل الهندية. فقد قتل رجالها - وعلقت رأس ميتاكوم على عصا فى پلايموث لمدة عشرين سنة - وتم

(*) يحتفل الأمريكيون سنويًا بـ«عيد الشكر»، بمناسبة المساعدة الضرورية التى قدمها لهم الهنود الحمر عند هجرتهم من انجلترا. أما رد الجميل فكان إبادة الهنود وحضارتهم - المترجم.

بيع النساء والأطفال فى أسواق النخاسة، تماما مثلما قال الكتاب المقدس أن ينبغى أن يُفعل بهم. ويقول براون: «وعلى مدى قرنين آخرين من الزمان تكررت هذه الحوادث مرات ومرات كلما تحرك المستعمرون الأوروبيون إلى الداخل خلال ممرات «Alleghenies» ومع مجارى الأنهار التى تصب باتجاه الغرب إلى المياه العظيمة (الميسيسيبى) ثم إلى الأوحال الكبرى (نهر الميسورى)».

ومن وجهة النظر الهندية، كانت هناك مصيبة واحدة تمثل ذروة كافة المصائب الأخرى فى تاريخ تعاملاتهم مع الرجل الأبيض. ومثلما يعلن ريجينالد هورسمان بصراحة مكشوفة فى كتابه «Expansion and American Indien Policy» «كان الانتصار الأمريكى فى الثورة كارثة على الهنود». وعند بداية الحرب حسب الهنود أن ما يخشونه من التجار والموظفين البريطانيين أقل مما يخافونه من ملاك الأراضى والمزارعين الأمريكيين. ومنذ ذلك الحين انضموا إلى القوات البريطانية بل كانوا فى بعض الأحيان وحدات نظامية تحت قيادة ضباط هنود، ولكن فى معظم الأحيان كانوا عصابات حرب تحارب حسب قواعدها الخاصة. ولكن عندما خسر البريطانيون خسروا هم أيضًا. ولم تتم استشارتهم فى إقرار السلام - إذ لم يرد ذكر للشئون الهندية فى معاهدة باريس سنة ١٧٨٢م بين بريطانيا والولايات المتحدة - ولكن الحكومة الأمريكية مضت فى معاملتهم بوصفهم عدوًا مهزومًا يمكن احتلال أرضه.

وفى استجابتها تجاه الغارات غير المرخصة، رسمت الإدارة الاستعمارية البريطانية ما يسمى «خط الإعلان» على الخريطة سنة ١٧٦٣م كجزء من الاستيلاء على كندا الفرنسية، لتحريم مصادرة الأراضى الهندية وخصصت كل المنطقة الواقعة غرب «الأبالاش - Appalachians» إلى الهنود الحمر. ويصف روبرت هارفى «الاستيلاء الحارق» ضد «خط الإعلان» بأنه «أحد الدوافع الرئيسية، رغم عدم ذكره، وراء تمرد المستعمرين فى الحرب» ويستمر فى القول:

«ما أن اندلعت الحرب بين البريطانيين والأمريكيين، من الشمال إلى الجنوب على امتداد الحدود الغربية، لم يكن ثمة حاجز يمنع المجازر المنتظمة التى ارتكبت

فى حق القبـائل الهندية عبـر خط الإعلان ـ والتى تم الجـزء الأكبر منـها على أيدى الميليشـيات التى تكونت من بين المستوطنين البـيض الطامعين فى الأرض بمناطق الحـدود بمؤازرة كـاملة من واشنطن والقـيادة الأمـريكية العليـا. وقد نجـحت هذه المجازر بشكل مخرب، كمـا فتحت الطريق أمام الاحتلال الكامل للأراضى الهندية خلال القـرن التالى. وتم ذبح الآلاف من الهنود فى العمليـة، كما حرقت مـئات من قراهم وسوّيت بالأرض، كما خربت مساحات شاسعة من الأرض، وتم تدمير آلاف الأطنان من المحاصـيل، وربما كان من المتعمد تجـويع عشرات الآلاف من الهنود حتى الموت جوعًا نتيجة لهذا».

....

....

بل إن الحصبة كانت قاتلاً أشد سوءاً. وقد لاحظ الـپيوريتان فى ماساشوستس كيف كـان الهنود عـرضة لهـذا المـرض المـهلك، ويصف أحـدهم التناقص السـريع فى السكان بسـبب هذا المـرض حيث إن «التـرتيب المـدهش للرب يسـوع المسـيح، برعايته لمـوطن شعبه فى العـالم الغربى» (والمقصود بشـعبه هنا الپيـوريتان). وكان البريطانيون قد حاولوا نشر الحصبة بين الهنود المتحالفين مع الفرنسيين الذين كانوا يحاصرون بـتيسبرج فى سنة ١٧٦٣م، بإعطـائهم بطانيات تحمل عدوى الحـصبة، وليس من المؤكـد أنهم نجحوا، وكـانت الحصبـة منتشرة بالفـعل. وغالـبًا مـا كان يـُشار إلى الحصبة علـى أنها المساعدة التى تقدمها العناية الإلهـية لاستيطان البيض فى الأراضى الهندية، وتوحى الأدلة أن إعطاء البطانيات التى تـحمل العدوى للهنود قد صـارت جزءاً من الفـولكلور فى أمريكا، سـواء للناس البيض أو الهنود الحـمر، سواء كـان ذلك حقـيقـيًا أم لا. كـما أن التأخـر من جانب الحـكومة الأمريكـية فى محاربة المرض بين الهنود فى القرن التاسع عشر، بعد أن صار التطعيم ضد المرض ممكنًا، يوحى بعدم الرغبة فى الوقوف فى طريق «غرض الرب» فى هذا الشأن. فهل كـان ممكنًا إنقـاذ الهنود الحـمر لو أن السلطـات الأمريكيـة كانت قـد رأت أن من صالحها أن تفـعل هذا؟ هذا أمر محتمل تمامًـا؛إذ إن واشنطن باتخاذ الإجراء الطبى

البدائى المعروف باسم «التطعيم» إنما قام بخطوات للقضاء على مرض الحصبة فى جيشه الذى كان يحارب البريطانيين، وهو ما ساعده على النصر دونما شك.

أما الهنود الذين سُرقت أرضهم فلم يعودوا بدواً. إذ كانت معظم الأراضى تحت الزراعة، كما أن مستوى معيشة الناس كان متقدمًا. ومن ثم كانت ذات قيمة أكبر عن ذى قبل؛ وفى ظل الموقف المالى الحرج فى الأيام الأولى للولايات المتحدة كان بيع الأراضى الهندية للمستوطنين وسيلة جيدة لرفع الدخل (ولم تكن أثمان هذه الأرض تذهب إلى الهنود الحمر بأى حال وإنما إلى الحكومة الجديدة). وعلى الرغم من أن البريطانيين لم يشتهروا بحبهم للهنود الحمر، فإنهم كانوا قد منحوهم وضعًا قانونيًا واعترفوا بحقهم فى الأرض ـ أى الملكية بوضع اليد. ولم تكن الحكومة الأمريكية الجديدة راغبة فى أن تنحو هذا النحو، وتذرعت بحجة أن الهنود الحمر كانوا آنذاك عدواً مهزومًا فقدَ حقوقه.

ويصف هورسمان الموقف على هذا النحو:

«ومع هذا، فإنه على الرغم من أن الشطر الشرقى من وادى الميسيسيبى كان فى غالبه خاليًا من المستوطنين الأمريكيين، فإنه لم يكن مجرد برارى مهجورة فقد يكتب تاريخه فى بعض الأحيان كما لو كان المستوطنون يصبون فى واد شاسع خال، على حين أن الحقيقة هى أن الشطر الشرقى من وادى الميسيسيبى كانت تشغله قبائل الهنود الحمر. وكانت كثير من هذه القبائل قد حاربت بنجاح إلى جانب البريطانيين فى الثورة: أما القبائل الأخرى على ضفاف الميسيسيبى فلم تكن قد سمعت بأن ثورة قد حدثت. وقليل منها استوعبت كيف أن توقيع معاهدة پاريس بين الإنجليز والأمريكيين يمكن أن يؤدى إلى نقل قراهم وأراضى الصيد الخاصة بهم إلى الولايات المتحدة الجديدة».

ومن المذهل كيف أن المركزية الأوروبية كانت تشكل موقف كل من البريطانيين والأمريكيين فيما يتعلق بحقوق الهنود الحمر. إذ لم يكن البريطانيون يمتلكون الأرض التى سُلمت إلى الأمريكيين بمقتضى معاهدة پاريس سنة ١٧٨٢م،

ولكن المـلاك الحقيـقيين، أى الهنود الحمـر، كانوا غـائبين عن العـقل الأوروبى. ومفتاح هذه العقلية هو افتراض أن الـبريطانيين (وبالتالى خلفاءهم الأمريكيين) لهم حق منحه الرب فى ملكية الأرض، وبالمقـارنة مع هـذا الحق الإلهى كـان الهنود الحمر مجرد محتلين لأرض غيـرهم (إذ إن ملكية وضع اليد لم يُعتد بها)، وكان من المـمكن طردهم منهـا أو قتلهم. وعـادة ما كـانت العـملية تـبدأ، مـثلما حـدث فى ماساشوستس قبل قرن من الزمان، بالمجهودات المبذولة لطردهم وهو ما كان يجابه بالمقـاومة؛ وإذ حملوا السلاح ضـد البيض، فقد أعـلنوا أنهم أعداء؛ ومن ثم يمكن محاربتهم وهزيمتهم[*].

وكـان «واشنطن» نفسـه يحبـذ منح الأرض لأولئك الذين قـاتلوا إلى جـانب الثورة. ولكونهم رجالاً مقـاتلين كان بوسعهم حماية المستوطنين البيض الآخرين فى أقاليم الحدود «ومن المرجح أنهم حالوا دون قتل الكثير من العائلات البريئة التى غالبًا ما كانت، فى حالتهم المعتادة لتوسيع مستوطناتنا وتعدياتهم على أراضى الصيـد الخاصة بالأهالى من الهنود الحمر، يسقطون ضحايا منحوسين للبربرية الوحـشيـة». ولم ترد هنا أية فكرة عـن حق الهنود فى حـماية أراضى الصـيـد التى تخصـهم بالقوة، على الـرغم من أن المستـوطنين كانوا يسـتخـدمون أسـاليب كان واشنطن نفسه يعترف أنها استفزازية.

والمدهش فى السياسة الأمريكية تجـاه الهنود الحمر، سواء عند بداية الجمهورية الجديدة أو فيما بعد، هو التظاهر المتكرر والذى لم يتم التخلى عنه مطلقًا بأن حيازة الأرض الهندية كان يتم حسب القـواعد المتحضرة بشكل مـا. إذ كان هناك كلام لا ينتهى عن المـعاهدات والاتفاقيات، والحـدود والضمانات، وبعد كل مـعاهدة كان الأمريكيون يظهـرون كما لو أنهم سوف يلتـزمون بها حقًا فى هذه المـرة. ودائمًا ما كان يظهر سبب مـا، وعادة ما كان يحدث بسرعـة؛ بسبب أن ما تنازل عنه الهنود لم

(*) تشبه البريطانيون والأمريكيون ببنى إسرائيل وأرضهم الموعودة، فأى رد فعل نتوقعه من البريطانيين والأمـريكيين إزاء ما يفعله الأصل (بنو إسرائيل، وإسـرائيل الآن) فى الأرض المـوعـودة (فلسطين الآن)؟ ـ المترجم.

يكن كافيًا أن يتم تنازل جديد(*). وحسبما يلاحظ هورسمان:

«كانت الاتفاقيات مع القبائل الهندية تُعقد أو تُنقض؛ لأنه فى عيون العالم المتحضر كانت للولايات المتحدة بالفعل السيادة على الأراضى غرب الميسيسيبى. والأسئلة الوحيدة كانت تتعلق بكيف ومتى وتحت أى شروط كان يمكن تجريد الهنود الحمر فعلاً من أملاكهم. وبالنسبة للمفاوضين البيض كانت لغة المعاهدة مجرد وسيلة للحصول على الأرض بأقل قدر من الصراع والتكاليف، كما كانت وسيلة لتثبيط المقاومة الهندية حتى تصبح التنازلات القادمة الحتمية ضرورة. أما بالنسبة للمفاوضين من الهنود الحمر، فكانت لغة المعاهدة غالبًا ما تمثل وعودًا جادة كانوا يصدقون أنها سوف تدخل حيز التنفيذ»(*).

والحقيقة أن تقدم الاستيطان الأمريكى فى الأراضى الهندية كان يمكن أن يمضى بطريقة مختلفة قليلاً لو أن السياسة المعلنة كانت هى النهب الفاضح الغاشم، دونما اعتبار للملطفات القانونية. وبعبارة أخرى، فإن كل هذه المعاهدات والاتفاقيات لم تجلب سوى قدر قليل من الفائدة للهنود. فبدلاً من ذلك فإنهم اكتفوا بإقناع من يقومون بالتعديات بأنهم كانوا يتصرفون بشرف؛ وهو ما كان يشجعهم على القيام بالمزيد من التعدى، بل وبشغف أكثر.

كان هذا جزءًا من الاقتناع بأنه بمعنى ما كان يتم إسداء الجميل إلى الهنود الحمر؛ لأنهم كانوا يتعرضون إلى مميزات الحضارة الأمريكية. وكان توماس چيفرسون على وجه الخصوص يريد سياسة تجاه الهنود لا «تنتهك مفهومه الخاص عن رسالة الولايات المتحدة فى أن تظهر لأوروبا أن أمة يمكن أن تعيش بلا حرب ويمكن أن تجلب السعادة إلى شعبها»(*): وعلى حد تعبير هورسمان:

«وكون أنه رأى التوسع الأمريكى فى مصطلحات نشر الحضارة، وجلب أسلوب حياة جديد أفضل، أمرًا لا يثير الدهشة... ومفهوم «المصير الواضح»(**) فى التوسع الأخلاقى، واضح تمامًا فى سياسة چيفرسون تجاه

(*) أليس ذلك هو طبق الأصل مما يحدث مع الفلسطينيين الآن؟ - المترجم.

(**) أو المصير المحتوم، أو حمل الرجل الأبيض، كلها مصطلحات تبرر وتحث على التوسع على حساب الغير بدعوى مسئولية إلهية لنشر الحضارة الأنجلوساكسونية، وهى الحضارة المسيحية أو اليهومسيحية - المترجم.

الهنود. وبالنسبة لچيفرسون كان التوسع مرغوبًا ليس فقط بالنسبة للأمريكيين، ولكن أيضًا بالنسبة لأولئك الذين كان من الممكن أن يبتلعهم التوسع. هذه الثقة غالبًا ما كانت تعمى چيفرسون عن الحقائق اليومية فى العلاقات مع الهنود».

وتلخيص هورسمان للسياسة الأمريكية تجاه الهنود هو أنها بدأت بمبادئ سامية برهنت على الصعوبة المتزايدة فى تطبيقها، وأن قبول فكرة أن الهنود لهم حقوق لم تكن متماشية مع الجوع إلى الأرض الذى كانت سياسة الحكومة تحفزه. وكسب الجوع إلى الأرض المعركة، بيد أن المبادئ السامية عوملت على نحو ما كما لو أن الهنود قد لقوا معاملة عادلة. ولم يكن على أمريكا فقط أن تظهر فى الخارج على أنها مخلصة لحركة التنوير؛ وإنما كان ينبغى عليها أن تكون هى نفسها قادرة على تصديق هذا، وكان هذا يتطلب إعادة ترتيب الحقائق.

وهكذا فإن تاريخ قارة أمريكا الشمالية كان لا بد من إعادة تلفيقه؛ لكى يتم تحاشى تذكير الناس بقرن أو أكثر من القسوة والعقيدة الفاسدة التى كانت فى الحقيقة مطلوبة فى بناء البلد الجديد، وبدلاً من ذلك حل محله برارى خاوية كانت فى انتظار من يملؤها ويمدينها من أولئك الذين جلبوا الحضارة المسيحية. وقد تعاملت ثقافة الحدود الأمريكية مع الهندى باعتباره نوعًا شرسًا ـ بشكل خاص ـ من الخطر الطبيعى الذى يقف فى طريق التقدم، يقف فى مكان ما بين الدب والحية الرقطاء ذات الأجراس، أو بين القحط والعواطف الرعدية، وليس باعتباره كائنًا بشريًا كان حقه فى الحياة والحرية والسعى صوب السعادة من الأمور البديهية. ومع هذا فقد كانت هذه بالضبط هى معايير الحضارة التى كان الأمريكيون يحاولون نشرها. وأفضل تفسير لهذا التناقض ليس هو النفاق، على الرغم من أنه كان موجودًا بالتأكيد، ولا العنصرية بالمعنى الحديث، على الرغم من أن الثقة فى التفوق المتوارث فى الجنس الأبيض كانت شائعة على المستوى العالمى بشكل أو بآخر، ولا حتى النزعة الشريرة المجردة؛ لأن ذلك كان زمنًا يأخذ الاستقامة على محمل الجد تمامًا، زمنًا من الشغف الإنجيلى الكثيف والتدين القائم على الكتاب المقدس؛ إذ كان الناس يرغبون فى أن يسلكوا سلوكًا حسنًا.

وأفضل تفسير ـ ببساطة ـ هو أن معايير الحضارة التى كانت أمريكا ترغب فى أن تتميز بها كانت تنطبق فقط على أولئك الذين تضمهم العائلة الأمريكية، أى أولئك الذين كانوا بالفعل من أبناء الشعب المختار. ولم يكن أولئك الذين بالخارج يستظلون بغطائها. وثمة تشابه دقيق هنا مع سلوك ذلك الشعب المختار السابق، أى الإسرائيليين القدماء، الذين كانت الوصايا العشر لديهم بالفعل قفزة أمامية أخلاقية أبعد مما أحرزته ثقافات أخرى فى ذلك العصر(*)، بيد أنهم كانوا يرون أن الوصايا العشر لا تنطبق سوى عليهم. كان الكنعانيون والهنود خارج العهد، أى أنهم ليسوا من المستفيدين. وكان يمكن أخذ أراضيهم، ويمكن قتلهم إذا قاوموا. ولأنهم ليسوا من ضمن الشعب المختار، حينما ينظر إليه من خلال العدسات الأخلاقية للإسرائيليين القدماء، أو الإنجيليين الأمريكان المتدينين، فقد صاروا غير مرئيين بشكل أو بآخر.

ويتعامل «سيمون شاما» مع التبجيل الأمريكى للبرارى الخالية فى كتابه: «Landscape and Memory» . وقد تلخص فى اكتشاف سنة ١٨٥٢م ـ ورد فى الفعل الوطنى الخارق للعادة إزاءه ـ لمنطقة كبيرة من الغابات فيما صار يعرف باسم «يوسيمايت ڤالى» عند سفوح تلال سييرا نيڤادا فى وسط كاليفورنيا. ويبدو أن اسم يوسيمايت جاء من تعبير هندى عن الجنس الأبيض معناه «بعض الناس سفاحون». وفى الخيال الوطنى، كان لا بد أن تكون خالية، لم تفسدها يد الإنسان. وكانت تحتوى على مساحات من الأشجار الباسقة، وهى بعض أكبر الأشياء الحية التى تم اكتشافها على الإطلاق فى أى مكان على سطح كوكب الأرض، وهى ما تم تصنيفها فيما بعد تحت اسم «Sequoia Gigantea». وبسبب كبر عمرها ـ بعضها عمره آلاف السنين ـ فإنها سدت فجوة فى الخيال الأمريكى وخلقت توازنًا مع الولع الوطنى بالحداثة. وقد زعم بعض الشعراء، فعلاً، أن هذه

(*) هذا كلام غير دقيق بالمرة؛ لأن الناظر فى التراث المصرى القديم، أو فى التراث الذى عرفته بلاد الرافدين، أو حتى الحضارات القديمة فى الهند والصين وفارس يجد أن لكل منها نظامًا أخلاقيًا متقدمًا. بل إن هذه الحضارات لم تقصر هذا الإطار الأخلاقى فى نطاقها؛ بسبب النزعة العنصرية كما زعم اليهود - المترجم.

الأشجار كانت هى «الأمريكيين الأصليين» حقًا، وبذلك ينزعون عن الهنود هذا اللقب المحرج بطريقة مريحة وملائمة. فقد كانت، حسبما لاحظ أحد المراقبين الذين أذهلتهم الأشجار، «الشجرة العبرية فهى قديمة قدم العهد القديم». ووصل الخيال إلى أن الرب قد زرع هذه الأشجار منذ زمن طويل توقعًا لوصول الجنس الأبيض الذى سوف يقدرها حق قدرها.

والحقيقة أن الوادى لم يكن خاليًا من السكان الآدميين إطلاقًا؛ لأنه كان وطن شعب الأهواهنيشى منذ زمن لا تعيه الذاكرة. وأرض المروج التى تسود الوادى، والتى حيرت الزائرين البيض بنباتها الوفير، كانت فى الواقع تبدو على ما هى عليه؛ لأن هذا كان غابات تحت التحكم، أى أنها كانت أرضًا يتم تطهيرها بالحرق من أجل الزراعة. ولكن الزوار كانوا يريدون لها أن تكون «طبيعة»، وليست نتاجًا لمهارة الهنود الذين يحتقرونهم. وبسرعة تمت مطاردة الهنود خارج وادى يوسيمايت الذى أعلن حديقة للولاية (ثم متنزهًا وطنيًا فيما بعد).

والإحساس بأن يوسيمايت والأشجار الكبيرة كانت تشكل تجليًا فائق القوة لتفرد الجمهورية الأمريكية هو فقط الذى يمكن أن يفسر السبب فى أن إبراهام لينكولن، فى غمرة الحرب الأهلية، وهو يوقع مرسومًا فى أول يوليو ١٨٦٤م، يمنحها لولاية كاليفورنيا «لصالح الشعب، لتكون منتجعًا وترفيهًا لهم، ولكى يحافظوا عليها دونما تغيير على مر الزمان.

لقد كانت هالة التاريخ المقدس، الشعور بأن غابة الأشجار الكبيرة كانت نوعًا من الآثار الأمريكية، نوعًا من مجمع الآلهة النباتى الذى حرك لينكولن والكونجرس؛ لكى يتصرفوا على النحو الذى تصرفوا به. . . لقد بدا أن الأشجار العملاقة تبرهن على صحة البصيرة الوطنية الأمريكية بأن الضخامة المذهلة تخاطب الروح. وكانت حقيقة أن الأعمدة الحمراء لهذا المعبد الأمريكى السامى الرفيع لم تشيده يد الإنسان، هى بالضبط السبب فى أنها (الأشجار العملاقة) بدت وكأنها من صنع العناية الإلهية، وأخذت تنمو بشكل قدرى بل وبشكل رهيب حتى يكتشفها شعب الله المختار الجديد فى قلب الأرض الموعودة».

وبعبارة أخرى، فإن ما كان الأمريكيون يبحثون عنه هو طريقة ما لتوضيح أن الأرض التى سكنوها لم تكن مجرد أرض جميلة وإنما كانت «مقدسة» بالفعل.

وعلى أية حال، فإن الأمريكيين أحسوا فى الغابة البرية أنهم يمكن أن يكونوا على صلة بأرواحهم وأن يرتبطوا بربهم. وغالبًا ما كان الجيل الأول من الفنانين الأمريكيين الأصليين يرسمون مناظر ريفية، ولا سيما أراضى الغابات، كمعابد أو كاتدرائيات طبيعية - صامتة ساكنة، خاشعة، متسامية وصوفية. وتتحدث القصائد الشعرية التى ألهمتها مثل هذه العواطف عن التواضع الشامل، وعدم الجدارة تقريبًا، حينما يتأمل الشعراء كيف أن الرب فعل الكثير من أجلهم بوصفهم أمريكيين، وليس أقلها أنه أعطاهم مثل هذه البلاد الخاوية المدهشة لكى يسكنوها. وقد عبر والت هويتمان عن هذا الحلم الأمريكى حينما كتب فى قصيدة «أغنية لنفسى»:

وحدى فى البرية والجبال أصطاد

وأتجول مندهشًا بخفتى وانشراحى

فى أواخر النهار لأختار بقعة أمضى الليل فيها

أضرم نارًا وأشوى الفريسة المقتولة لتوها

وأروح فى النوم فوق كومة من أوراق الشجر وكلبى وبندقيتى إلى جوارى

كان جوهر مثل هذا الشعور، أن الرب أعطاها لهم، وأنهم لم يضطروا إلى سرقتها من غيرهم؛ إذ إن المصير المحدد سلفًا (المصير المحتوم لنشر الحضارة) لا يتكلف الضمير!

* * *

(٩)

المختارون يواجهون المحدثين

في الروح التي ذهبت بها أمريكا إلى الحرب سنة ١٩٤١م، يمكن أن نتعرف على بعض الحماسة البريئة والنزيهة التي تم بها إرسال الجيش البريطاني إلى الحرب في سنة ١٩١٤م. وفي كل من الحالين كان الصراع الناشب وراء شواطئ الوطن ولم يكن يبدو أنه يهدد الوجود الوطني، في المستقبل المنظور على الأقل. وعلى خلاف بريطانيا لم تكن الولايات المتحدة قد واجهت الصيف الحاسم بالنسبة لها على جبهة السوم سنة ١٩١٦م، وما نتج عنه من صدمة الإفاقة من أحلام المجد العسكري والمصير الوطني. إذ كانت بريطانيا سنة ١٩١٤م ما تزال قوة عظمى، وربما كانت ما تزال هي الأعظم - صناعية، غنية، متحضرة وراضية عن نفسها (على الأقل بعيدة عما كان يسمى عمومًا «الطبقات الأدنى»). وكانت الاستجابة الوطنية لاستغاثة حليفة بريطانيا «بلچيكا الصغيرة المسكينة» التي غزتها ألمانيا عند بداية الحرب، هي استجابة صديق قوي تجاه جار أضعف يجابه المتاعب.

في ديسمبر سنة ١٩٤١م تعرضت أمريكا لهجوم فظ؛ وكان هناك غضب، وليس نخوة، وراء إعلانها الحرب - على الرغم من أنه كان هناك أيضًا إحساس بالراحة؛ لأن الوقت قد حان لمساعدة صديق في وقت الحاجة، هو بريطانيا العظمى. ولكن الثقة بالنفس الوطنية الأمريكية لم تتقلص، حيث إنه في ذلك الوقت، كانت بريطانيا قد توارت في الظل إلى الأبد بفعل المجازر اللامعقولة على

الجبهة الغربية قبل جيل مضى. وكان حول انجلترا سنة ١٩٤٠م إحساس من بقايا إيمان بالكتاب المقدس، وقد تعلقت بشكل قلق بـ «الديانة الحقة»، حينما كانت أوروبا على بعد واحد وعشرين ميلاً من مقاطعة كنت، تحت وطأة الحذاء العسكرى النازى. ومثل هذا الإحساس بالانكشاف أمام الخطر لم يكن مستشعراً فى أمريكا قبل أو منذ ذلك الحين، بل ولم يكن حتى نتيجة للإرهاب المحلى أو العالمى.

وتمامًا مثلما كان بوسع الفيلد مارشال دوجلاس هيج أن يأمر قواته بالهجوم ومعاودة الهجوم، وهو متأكد من أن الرب بجانبه وأن النصر النهائى سيكون حليفه مهما كان الثمن؛ فإن القادة الأمريكيين كذلك وقادة الأساطيل البحرية ذهبوا لقتال اليابانيين بنفس العقيدة. وثمة شىء واحد تخبرنا به قصة الشعب المختار هو أن المؤرخين العسكريين لم يهتموا بالقدر الكافى بصلوات القادة العسكريين الذين كتبوا عنهم وعن قواتهم؛ إذ إن تلك الصلوات، والإطار الأيديولوچى والدينى الذى تُليت تلك الصلوات فى رحابه، كانا لا بد أن يكشفا عن الكثير من الدوافع والمبادئ الأخلاقية العسكرية.

وموضوع كيڤين فيليپس فى كتابه «The Cousins Wars» مؤداه أن ثلاثة صراعات هى التى غيّرت اتجاه الحضارة الغربية: الحرب الأهلية الإنجليزية (أو الحروب كما يقول بعض المؤرخين)، وحرب الاستقلال الأمريكية (أو الحروب الثورية)، والحرب الأهلية الأمريكية، وكانت مرتبطة ببعضها ارتباطًا وثيقًا؛ إذ كانت كل منها تمثل صدامًا بين مثالين أو مبدأين دينيين وُجدا بين الشعوب الأنجلوسكسونية فى بريطانيا وأمريكا. ومن الممكن أن نحدد فى كل حالة الجانب الرابح بأنه الجانب الأكثر حماسة دينيًا، أى الجانب الذى كان أشد اقتناعًا بأن الرب معه، البروتستانت الأكثر راديكالية (الأكثر كالڤينية فى الواقع) من الجانبين. وكانت جيوش كرومويل معروفة جيداً بأنها تسير إلى المعركة وهى تنشد المزامير والأناشيد الدينية؛ وكذلك فعلت قوات ماساشوستس التى حاربت البريطانيين. وليست هناك صورة لچورچ واشنطن أكثر شهرة أو أشد كشفًا من

صورته وهو يصلى أثناء محنة الشقاء التى مر بها جيشه فى وادى فورج. وتبدأ رواية «ذهب مع الريح» بفطنة بتحليل الحرب بين الولايات الشمالية والجنوبية فى أمريكا، باعتبارها إعادة افتتاح النزاع المسلح بين كرومويل وشارل الأول، البيوريتان فى مواجهة الأسقفيين، الرجل العادى ضد الطبقة الراقية، والشماليين ضد المتمردين الجنوبيين.

وفى أمريكا ما تزال هذه الروح حية، «وترنيمة المعركة من أجل الجمهورية» التى كتبتها چوليا وارد هاو، الداعية إلى تحرير العبيد سنة ١٨٦٢م وأنشدتها على النغمة التى سمعت بها القوات تنشد «جسد چون براون»، صارت هى أنشودة قوات الاتحاد الظافرة فى الحرب. ولكنها كانت ما تزال تُنشد بإحساس على أفواه القوات الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية. وليس هناك تقرير يشير إلى أنها كانت تستحوذ على خيال الجيش الأمريكى فى حرب ڤيتنام؛ وهو ما قد يلقى الضوء على نتيجة الحرب الكارثية، ولكنها عادت بقوة إلى مكان الصدارة منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١م. وهى إقرار واضح بأن الرب يقف إلى جانب أمريكا بشكل فريد؛ لأن أمريكا بجانب الحق بشكل فريد. وفى ضوء نصيحتنا للمؤرخين العسكريين، فإن هذا يستحق أن يؤخذ فى الاعتبار تمامًا.

لقد أبصرت عيناى مجد قدوم الرب

إنه يدوس محصول الكروم حيث يخزن عنب الحنق والغضب

لقد أطلق البرق المميت لسيفه السريع

وحقيقته ماضية فى طريقها

المجد، المجد، هاللوليا

المجد، المجد، هاللوليا

المجد، المجد، هاللوليا

حقيقته ماضية فى طريقها

لقد رأيته فى نيران المراقبة فى مائة معسكر مستديرة

لقد بنوا له مذبحًا فى ندى الماء ورطوبته

أستطيع أن أقرأ جملته الصحيحة على ضوء المصابيح المعتمة والمتوهجة

إن يومه ماض فى طريقه

المجد . . . إلخ

لقد قرأت نصًا ناريًا مقدسًا فى الإنجيل فى صفوف مصقولة من الصلب

كما تتعامل مع الذين يحقروننى، كذلك سوف تتعامل معك رحمتى

دع البطل، الذى ولدته امرأة يسحق الحية بكعبه

طالما أن الرب يسير إلى الأمام

المجد . . . إلخ

لقد دق الطبول للمسير أمامًا ولن يدعو أبدًا إلى التراجع

إنه ينقى قلوب الرجال أمام كرسى عدالته

أوه، فلتكونى سريعة يا روحى فى الإجابة عليه! ولتكونى فرحة يا أقدامى

فإن ربنا يسير فى طريقه

المجد . . . إلخ

فى جمال الزنابق وُلد المسيح عبر البحر

ومعه مجد فى البرعم يتجسد فيك وفى

ومثلما مات ليجعل الناس مُقدسين، فلنمت نحن لنجعل الناس أحرارًا
بينما يسير الرب فى طريقه

المجد . . . إلخ

ومن الواضح أن هذه أنشودة معركة لأمة مختارة، شعب مختار. إنها الطرف النقيض للشعور الوطنى من الموقف الوطنى الساخر، بل المستهزئ بالأنشودة التى

كان يرددها الجيش البريطانى بعد سنة ١٩١٦م، والتى تقول كلماتها: «رأيتهم معلقين فوق الأسلاك الشائكة القديمة . . . »، أو الأنشودة المعاصرة لها، وهى أغنية بريئة لكنها ساخرة بنفس القدر، تقول: «نحن هنا، لأننا هنا، لأننا هنا، لأننا هنا». والتناقض بين الحالتين علامة فارقة فى الشخصية الوطنية ما تزال تنطبق على العصر الحديث، وتشرح ردود الفعل المختلفة تمامًا لأمتين تتشابهان بشكل واضح - فما تزال الاثنتان، فى جوهرهما، أنجلوسكسونيتين وپروتستانتيتين.

والفرق ليس ببساطة هو أن لدى البريطانيين ملكة السخرية وليس لدى الأمريكيين مثلها. كما أن الفرق ليس ببساطة هو أن الأمريكيين ما يزالون يؤمنون بأنهم «مختارون» ولم يعد البريطانيون كذلك. فمن المحتمل، ربما، أن يكون الإنجليز قد بدأوا يؤمنون «باختيار» الأمريكيين، على الرغم من أنهم لم يكونوا ليعترفوا بهذا. ومن المؤكد أن عبارة «عبء الرجل الأبيض» التى استخدمت فى انجلترا بطريقة ساخرة (طبعًا) تُعتبر الآن صالحة للتطبيق على الولايات المتحدة؛ إذ إن عبارة «السلام الأمريكى - Pax Americana» - والتى تعنى ترحيب الأمريكيين بالقيام بدور شرطى العالم - صارت كليشيها شائعًا فى أعمدة كتّاب الصحف البريطانية، وبها مغزى متضمن فى اتجاه العبارة القديمة التى تجاوزها الزمن «السلام البريطانى - Pax Britanica» (والتى نبعت بدورها أصلاً من «السلام الرومانى - Pax Romana» - أى السلام الذى تفرضه الفرق العسكرية الرومانية - فى العصور الكلاسيكية).

إن «ترنيمة الحرب من أجل الجمهورية»، التى تبدو بالنسبة للإنجليز مغالاة فى التعصب والدعوة إلى الحرب، تنتمى فى الحقيقة لنفس التراث الدينى مثل الخاتمة التى كتبتها «هاريت بيشر ستو» لرواية «كوخ العم توم» التى ناقشناها بالفعل. فقد أعلنت أن أمريكا تحت المحاكمة ما لم تصحح خطأ العبودية؛ أما «هاو» فإنها تبين أن الخطأ قد تم إصلاحه حقًا. كما أنها تقدم أيضًا رابطة أو عبورًا إلى تراث شعب مختار آخر، وكذلك رابطة تربط القرن التاسع عشر بالقرن الواحد والعشرين، وهى تحديدًا الوعى الأسود الأمريكى بالذات فى مصطلحات الكتاب المقدس،

باعتبارهم شعبًا «فى أغلال العبودية» وينتظر الخلاص. والتنميط فى ترنيمة هاو لايضع موسى باعتباره محرراً (على الرغم من أنه فى التنميط المسيحى الكلاسيكى كان موسى نمطًا يسبق المسيح فى التجسد). وهذا أمر غير عادى؛ لأن التنميط كاثوليكى أكثر منه پروتستانتى. وفى البيت الذى يقول: «فى جمال الزنابق وُلد المسيح عبر البحر» ثمة إيماءة إلى الرمزية التى عرفها عصر النهضة: فالزنبقة، زهرة النقاء والطهارة، كانت علامة تقليدية على مريم العذراء.

والقوة الدافعة فى «أنشودة المعركة» تدورحول «الموت لجعل الناس أحراراً» وهى إشارة واضحة إلى المسيح. إنها ليست عن أولئك الذين حرموا من حريتهم، بحيث ينتزعونها لأنفسهم. ومن المؤكد أنه كانت هناك انتفاضات سوداء فى الحرب الأهلية، وبنهايتها كان هناك ذيل طويل من اللاجئين السود قد ربط نفسه بمؤخرة جيش الاتحاد المنتصر فى الجنوب. بيد أن تحرير العبيد السود كان فى جوهره عملاً من أعمال الجنس الأبيض، الذين تصرفوا على اعتبار أنهم «أمة منقذة» ـ وفى مكان المسيح بالتالى. ولكن ذلك التنميط الآخر الأكثر پروتستانتية، والذى يصور السود مثل العبرانيين فى أغلال العبودية ينتظرون موسى الخاص بهم، لم يكن بعيداً عن السطح.

ويصف دو بوا، الذى ولد فى غضون خمس سنوات من نهاية الرقيق، كيف أنه وهو شاب مر بخدمة كنسية فى كنيسة زنجية فى عمق الجنوب ـ وليس فى مسقط رأسه (لأنه كان أصلاً من ماساشوستس):

«كان شكل الواعظ الأسود الضخم يهتز ويرتعش بينما تتزاحم الكلمات على شفتيه وتتطاير صوبنا فى فصاحة مفردة. وكان الناس يتأوهون ويضطرون، ثم قفزت المرأة ذات الخدين البارزين والبشرة البنية بجوارى فى الهواء مباشرة وصرخت صرخة مدوية مثل روح ضائعة، على حين عم المكان عويل وأنين وصراخ ومشهد من الوجد الإنسانى لم أر له مثيلاً من قبل. وأولئك الذين لم يشهدوا تهيج الإحياء الزنجى فى غابات الجنوب البكر لا يمكنهم سوى أن يدركوا الشعور الدينى للعبد بصورة غامضة، وتبدو مثل هذه المشاهد شاذة ومضحكة، ولكنها مريعة كما رأيتها».

وقد نمت مسيحية العبيد السود من ديانة أفريقية وثنية، بأناشيدها وأضحياتها وكهنتها الرجال والنساء الساحرات. والإحساس العاطفى الزائد بحضور أرواح غير مرئية لكنها قوية، قد انتقل إلى سياق مسيحى بدائى بفضل اليقظة الكبرى التى وجهها المبشرون الإنجيليون فى القرن الثامن عشر وبواكير القرن التاسع عشر (مع الربط بين القوى الخفية والروح القدس الذى يسوق المتعبد إلى حالة هياج من الفرح الخارق للطبيعة). وقد أنتج الإحياء الزنجى المبشِّر الزنجى وهو أكثر شخصية متفردة طورها الزنوج على الأرض الأمريكية حسبما كتب دو بوا. فقد كان زعيمًا وسياسيًا، وخطيبًا، ورئيسًا جذابًا، ومثاليًا. أما الزعماء السود العلمانيون، الذين كان دو بوا نفسه نمطًا منهم، فلم يكونوا مرتاحين دائمًا إلى هذا التراث الذى يجعل من القسيس زعيمًا - كما كانت لا تزال الحال فى خمسينيات القرن العشرين، عند بداية حركة الحقوق المدنية، حيث كان هناك بعض المنافسة على التفوق بين القساوسة السود مثل مارتن لوثر كنج والسياسيين العلمانيين المرتبطين برابطة NAACP الخاصة بـ «دو بوا» نفسه.

ويسجل دو بوا كيف اعتاد الزنوج أن يغنوا:

أيها الأطفال، سنكون أحراراً

عندما يظهر الرب!

بيد أنه كان مخطئًا فى استبعاد هذا باعتباره مجرد نزعة ألفية - تأجيل الخلاص إلى نهاية الزمن، فى المصطلحات البشرية إلى الأبد. أما ما لم يتعرف عليه فهو قوة التنميط البروتستانتى فى تحول قصص الكتاب المقدس إلى حقيقة حاضرة، وأن يجعل من المسيحية قوة للتحرير الحقيقى، وليس الخضوع الدينى. وسيرة الأمة الهاربة هارييت توبمان التى تحمل عنوان: «Harriet The Moses Of Her People» التى كتبتها معاصرتها وصديقتها سارة برادفورد تصف كيف أنها بدأت تربط حالتها فى العبودية بالرسالة التى سمعتها على لسان واعظ فى الكنيسة:

«كان فى عقلها بالفعل أن شعبها هم الإسرائيليون فى أرض مصر، بينما كانت

بعيدة فى مكان ما بالشمال، أرض كنعان، بيد أنها لم تكن لديها بعد أية نبوءة بأنها ستكون بمثابة موسى الذى سيكون زعيمهم، عبر سحابات الظلام والحزن، والنيران والمحن؛ لتقودهم إلى تلك الأرض الموعودة؟ فهذا ما لم تقله أبدًا».

وقررت أن تهرب، مع إخوتها؛ ولكن لأن التخاطب بين العبيد كان يعتبر مثاراً للشك من جانب المراقبين، فإنها كانت تتواصل معهم بالأغنية، وهى تعدّل قليلاً من الكلمات المعروفة جيدًا لكى تقول ما تقصده. وبالنسبة للأذن غير المرتابة كانت هذه الكلمات ما تزال أحلامًا ألفية بريئة، الحرية النهائية «عندما يظهر الرب». ولذلك فإن هارييت توبمان، فى اللهجة التى نسبتها إليها برادفورد، كانت قادرة على أن تغنى بصوت عال، دونما خوف من التحقيق، رسالتها المشفرة - «لقد حان الوقت»:

عندما تأتى تلك العربة القديمة

سوف أترككم

إننى متوجهة إلى الأرض الموعودة

أيها الأصدقاء، إننى سوف أرحل عنكم

إننى آسفة لترككم أيها الأصدقاء

الوداع، آه، الوداع

لكننى سوف أقابلكم فى الصباح

الوداع، آه، الوداع

إننى سوف ألقاكم فى الصباح

عندما تصلون إلى الأرض الموعودة

على الضفة الأخرى من الأردن

لأننى متوجهة إلى الأرض الموعودة

وقد تذكروا الأغنية زمنًا طويلاً بعد رحيلها. فقد كانت صافية فى تلك الليلة وسرعان ما وصلت إلى ملاذها الآمن، حيث لم يكن ممكنًا أسرها من جديد وإعادتها. فى البداية كان هذا يعنى نيويورك - والأردن الذى أشارت إليه أغنيتها كان هو نهر أوهايو الذى يفصل كنتكى (ولاية العبيد) عن أوهايو أو إلينوى (الحرة). وبمرور الوقت صارت هى المنظمة لواحدة من السكك الحديدية السرية (حسبما أطلقوا عليها) التى كانت تشجع العبيد على السعى نحو السلامة على امتداد ذلك الطريق. وتنسب إليها كاتبة سيرتها الفضل فى كثير من المهام الناجحة وقيادة مئات من العبيد الأفراد إلى طريق الحرية، فى ظل ظروف بالغة الخطر دائمًا. ولو أنها وقعت فى الأسر لكانت قد قُتلت، شنقًا أو جلدًا بالسياط حسبما كان يُفترض. وبعد مرسوم ١٨٥٠م الخاص بـ «العبيد الهاربين - Fugitive Slave Act»، والذى سمح بعودة العبيد الهاربين حتى من الولايات الحرة، لم يكن هناك أمان خارج كندا - وصار نهر «الأردن» الأسطورى الذى ينبغى عبوره إلى حيث الحرية هو نهر نياجرا الذى كان يفصل الولايات المتحدة عن الأراضى البريطانية. وتُعطى برادفورد وضعًا مؤثرًا لرؤية توبمان للملكة ڤيكتوريا، التى تصورتها تقف كأم ملكية على الضفة الكندية من النهر؛ لكى ترحب بالعبيد الهاربين. وبالنسبة للعبيد فى الجنوب كانت كندا رمزًا أو مفهومًا بقدر ما كانت مكانًا، كانت الأرض الموعودة. وكان نهر الأردن هو حدود كنعان التى تحدث عنها الكتاب المقدس، الأرض التى وعد بها الرب الإسرائيليين بعد هروبهم من مصر تحت قيادة موسى والتيه الذى استمر أربعين سنة فى قفار سيناء: «إلى أن أعبر الأردن إلى الأرض التى أعطانا الرب إلهنا» (سفر التثنية: ٢: ٢٩).

وكانوا فى طريقهم إلى الشمال ينشدون الأغنية الروحية «اهبط يا موسى»، وهى الأغنية التى كانت ممنوعة فى الجنوب:

اهبط يا موسى

اهبط فى الطريق إلى أرض مصر

قل لفرعون العجوز

دع شعبى يذهبون

أوه قال فرعون إنه سيعترضهم

دع شعبى يذهبون

ولا تضع فى البرية

دع شعبى يذهبون

قد تحتجزنى هنا، ولكنك لا تستطيع أن تعوقنى هناك

دع شعبى يذهبون

فهو يجلس فى السماء يستجيب للصلاة

دع شعبى يذهبون

كانت فترة حياة دو بوا (١٨٦٨ ـ ١٩٦٣م) تتطابق مع حياة كل من هارييت توبمان (١٨٢٠ ـ ١٩١٣م) ومارتن لوثر كنج چونيور (١٩٢٩ ـ ١٩٦٨م) وكان كنج ابنًا لقسيس، ولا بد أنه قد انغمس منذ طفولته فى هذا النوع من التنميط المرتبط بالخروج. كتبت كيث د. ميللر فى كتابها «The Voice of Deliverance»:

«تعلم كنج ما يتعلق بديانة العبيد من أبيه، الذى كان مبشرًا شعبيًا، وتبنى رؤيتها للخلاص أساسًا لأفكاره وخطبه. . . فعلى مدى عشرات طويلة من السنين كان العبيد يمارسون ديانتهم تحت ظروف غاية فى الصعوبة؛ إذ كانت القوانين تمنعهم عادة من تعلم القراءة والكتابة، بحيث كان أغلبهم غير قادرين على قراءة الكتاب المقدس. وهكذا كانت المواعظ تخدم ليس باعتبارها وسيلة مهمة للتوجيه الدينى فحسب، وإنما كانت بالنسبة لكثيرين من السود، الوسيلة الوحيدة للتوجيه باستثناء الموسيقى. وكان معظم المبشرين، مثل رفاقهم العبيد، يفتقرون إلى ما يعينهم سوى أن يستقوا الدين من المبشرين الآخرين ـ وليس من الكتاب المقدس أو غيره من النصوص».

وقد أدى هذا إلى نتيجة واضحة: فقد كان على كل واعظ أن يكون لديه مخزون

من العظات فى ذاكرته يمكن أن يأخذ منه أو يعدله كلما دعت الضرورة؛ وغالبًا ما كانت هذه العظات مؤلفة من عظات سمعها هو نفسه من وعّاظ آخرين؛ ولذلك كان مخزونه من العظات نوعًا من تراكم حكمة الشعب. وكان لا بد لهذا أن يضيف إلى سلطته، حتى بين أولئك الذى يعرفون المصادر التى استعار منها. ولم يكن من المعتاد أن تتم الإشارة إلى المراجع، كما لو كانت الموعظة مقالة أكاديمية مدعمة بالهوامش، بل إن هذه الاستعارة غير الموثقة لم تكن تعتبر سرقة أدبية غير عادلة. فقد كانت تعنى بصفة خاصة مجازًا أو صورة مؤثرة - أو اقتباسًا من الكتاب المقدس - يمكن إعادة استخدامها بحسب الحاجة. ويمكن للمرء أن يُشبّه هذا بمنشور بابوى يمكن تطعيمه باقتباسات من منشورات أخرى لبابوات سابقين. والغرض هو إظهار استمرارية تراث التعاليم البابوية - تمامًا مثلما يفعل واعظ أسود، باستخدام وتعديل كلمات الوعّاظ الذين سبقوه؛ لكى يوضح استمرارية تراث الوعظ الذى هو حارسه والمتحدث باسمه.

ويحوى القصد المزدوج لوداع هارييت توبمان لرفاقها العبيد فى الأغنية التى اقتبسناها فيما سبق رسالة لاهوتية عميقة. فقد كانت ديانة العبيد تتجه إلى هذه الدنيا وإلى الحياة الآخرة أيضًا: فقد كانت تتعلق بالتحرر من الخطيئة والتحرر من الأسر الجسدى أيضًا (مثلما كانت ديانة العهد القديم فى الواقع). والكلمات أو العبارات التى كان يمكن أن تنطبق على أى من المعنيين كانت شائعة، كما أن اللعب بالكلمات كان محل تقدير ومصدرًا للاستمتاع. وكان مالك العبيد المسيحى يجد من الصعب عليه أن يعترض على العبيد المسيحيين وهو يغنون عن موسى وهو يخلّص العبرانيين من مصر، حتى لو كان يعرف أنهم يغنون عن الخروج عليه.

كانوا أيضًا يقدمون الأمل فى هذه الحياة. وأحد التجليات الواضحة فى ديانة العبيد الدنيوية كان هو التشبه الكثيف وواسع الانتشار بشخوص العهد القديم. وكان العبيد يتعاطفون بعمق مع نضالات مريم ودانيال ونوح وحزقيال ويوشع ويونس وموسى - الذين أسهم معظمهم فى انتفاضات اجتماعية، والذين يشخص

كل منهم بصورة بارزة فى الشئون الروحية. ومع يسوع، كان أبطال العهد القديم الذين يحبهم الرقيق قد واجهوا صعوبات ومشاقّ مرعبة قبل أن يحرزوا الانتصارات الزاهية. وكان العبيد يرون فى هذه الصعوبات ما يتشابه مع الاضطهاد والكبت اللذين يعانون منهما، ويرون فى قصص النجاح التى يتحدث عنها الكتاب المقدس بشائر لتحررهم الآتى على نمط الكتاب المقدس. . .

وإذ عبر الأمريكيون الأفريقيون عن ولعهم الخاص بموسى، شاع اعتبارهم صنواً للشعب المختار الأسير فى مصر - وهو تشبيه واضح فى كثير من الأمور الروحية حول موسى، وفرعون، والبحر الأحمر، والبرية/ أو الأرض الموعودة. . . وفى سنة ١٨٠٨م فسّر الواعظ الأمريكى الأفريقى البارز أبسالوم چونز قانونًا وطنيًا يحرم تجارة الرقيق على أنه عمل من أعمال العناية الإلهية يساوى الخروج. وتمامًا مثلما «هبط الرب لكى يخلّص» الإسرائيليين من المصريين، أعلن چونز أنه «هبط فى البرلمان البريطانى» حينما جرّم السفن التى تحمل الرقيق، «وهبط فى الكونجرس بالولايات المتحدة» عندما وافق على حظر مماثل.

وحتى قبل نهاية الرق، بحسب الدليل الذى يقدمه ميللر، كان الوعّاظ السود الذين كانت غالبيتهم أميين، قد صاغوا تنميطًا پروتستانتيًا كاملاً كان له أن يمنح الجدارة لمبشر پيوريتانى لجيش كرومويل النموذجى الجديد، قبل قرنين من الزمان. أما كيف حدث هذا النقل للأفكار؟ فهو أمر ربما لا نعرفه أبدًا، طالما أن العملية كانت بالضرورة شفوية ولم يتم تسجيلها بدرجة كبيرة. وقد شقت الصحوة العظمى الثانية آثارها داخل جمهرة العبيد السود فى أعماق الجنوب منذ تسعينيات القرن الثامن عشر فصاعدًا. ولم يكن بإمكان العبيد أن يقرأوا أو يكتبوا ولكن ثقافتهم كانت بالفعل ثقافة الأغنية والإنشاد، وجاء التعبير عن المشاعر الدينية بالأغنية متوافقًا معها بصورة طبيعية.

ومضت الأناشيد الدينية الزنجية قُدمًا بهذا التراث بدرجة كبيرة. وإحدى الإشارات الباكرة إلى التنميط البروتستانتى المُطَبّق على العبيد السود، وردت فى مجموعة لمثل هذه الأناشيد الدينية الزنجية نشرها ريتشارد آللن، الذى كان هو

نفسه واعظًا أسود ثم صار أسقفًا فيما بعد سنة ١٨٠١ م. وإذ كان مطرودًا من كنيسته الميثودية المحلية (البيضاء)، أسس ما صار يعرف باسم «الكنيسة الأسقفية الميثودية الأفريقية». ولكن «مثال الخروج» التنميطى هذا للعبيد السود كان من الواضح أنه لم يكن معروفًا لچون ويسلى مؤسس هذا المذهب البروتستانتى الميثودى، على الرغم من أنه كان من أوائل المعارضين الإنجليز للرق. وهكذا ربما يكون التنميط البروتستانتى قد أدخل إلى المسيحية السوداء من التراث التغميدى الذى يضرب بجذوره فى البروتستانتية الكالڤينية، وليس من الجانب الميثودى.

بل إن دقة هذا النقل للتنميط من البروتستانتية البيضاء إلى البروتستانتية السوداء قد امتد حتى إلى مفهوم «الزمن المقدس» - الذى كان يعرف من وجهة النظر اللاهوتية بأنه تاريخ الخلاص - والذى تحولت الحوادث الماضية عن طريقه إلى حوادث معاصرة. ويشرح ميللر كيف تبنى الوعّاظ السود هذه المبادئ:

«يمكن للتنميط أن ينطبق على الحاضر أيضًا؛ لأن المسيحيين قد يعاملون الأشخاص والحوادث التى ذكرها الكتاب المقدس على أنها أنماط يتكرر حدوثها عبر الوجود الإنسانى حتى اللحظة الحاضرة. ومن ثم، فإن التنميط يقولب التاريخ فى نماذج حسب أشكال من التجارب يمكن معرفتها وقابلة للتكرار. إنه لا يقدم ببساطة مجرد نظام من الرموز؛ لأن المؤمنين يرون فى الحوادث التنميطية حقيقة حرفية. كما أن التنميط لا يستدعى التشابه؛ لأن التنميط، بخلاف التشابه، يقدم ويدعم رؤية شاملة ومتماسكة للعالم، توائم التجربة البشرية فى نظام من التفسير يتسم بالمرونة والعنف فى آن واحد».

ودور العناية الإلهية فى هذا التنميط الأسود واضح، أما ما هو أقل وضوحًا، فهو يتعلق بمن بالضبط الذى يؤدى الأدوار الأخرى فى الدراما التنميطية الخاصة بالتحرير/ الخلاص الأسود - مَن الكنعانيون؟، مثلاً، وأين الأرض الموعودة؟ وما العلاقة بين هذا الشعب المختار الأسود ومن سبقوه فى ادّعاء اللقب لأنفسهم؟، خاصة الشعب المختار الأبيض الذى نشأ أصلاً من المستوطنين البيوريتان الأوائل

فى نيوإنجلاند؟ هل تم تجاوزهم بكل مغزى ودلائل التجاوز التى ناقشناها فى الفصل الثالث؟ وهل الشعب المختار الجديد سيتم تحديده على أساس عرقى (مثل الشعب المختار فى العهد القديم) أم أن أى إنسان يمكن أن ينضم إليه؟

وربما كان ينبغى أن تكون إجابة الواعظ الأسود هى أن الدراما لم تتكشف سوى إلى هذا الحد، وأن الشعب المختار ما يزال فى رحلته بعد الأسر عبر البرية، ولم تقع أبصارهم بعد على الجهة التى يقصدونها. وربما كانت للأسئلة المطروحة فى السطور السابقة إجابات، بيد أنه لم يتم التوصل إليها بعد. ومن المحتمل أكثر أن التنميط قد بدأ ينهار ويصبح مجرد مجاز بلاغى، بحيث يفقد خاصيته الإعجازية التى يشير إليها ميللر، وأن الأرض الموعودة قد تمت صياغتها بشكل روحى فى حالة عاطفية، أو سياسية أو اقتصادية - التحرير من العبودية، والمساواة، ونهاية الانحياز العنصرى، وتكافؤ الفرص، وكل الأهداف الأخرى التى تسعى إليها حركة الحقوق المدنية العلمانية. فعلى سبيل المثال أعلن الواعظ الأسود ل. ج. كوبين، بعد خمسين سنة من «إعلان التحرير» أنهم وصلوا إلى حدود الأرض الموعودة «وأرض كنعان التى ننال فيها حقوق المواطنة أمامنا بالضبط». وبذلك يكون أولئك الذين عارضوا إعطاء السود حقوق مواطنة مساوية هم الكنعانيين الذين قاوموا دخول الشعب المختار.

وذلك مجاز واستعارة بلاغية لطيفة، ولكن أهمية الكنعانيين فى العهد القديم تتمثل فى أنهم كانوا أساسًا من عبدة الأصنام، يعبدون آلهة مزيفة ويغرون الإسرائيليين بأن يفعلوا مثلهم. وفى نموذج كوبين، فإن الكنعانيين (هم الذين يؤمنون بالتفوق من البيض، وليس مجرد المتطرفين، ولكن رأى الأغلبية البيضاء فى الوقت الذى كان يتحدث فيه) هم بالتحديد الذين يرفضون السماح للناس السود بأن يصيروا مثلهم - أى يرفضون السماح لهم بأن يؤمنوا بالعقائد وأن يعبدوا الآلهة التى يعبدها المجتمع الأبيض (الديموقراطية والمساواة والرأسمالية، والمادية وأى شىء آخر) وليس أنهم يصرون أن يفعلوا ذلك. وهذا قلب خطير للأوضاع.

وإذ كان اللاهوتيون البيض قد تخلّوا عن التنميط البروتستانتى باعتباره موضوعًا جديرًا بالتأمل اللاهوتى الجاد فى وقت ما من القرن التاسع عشر فإن اللاهوتيين السود أمامهم عوائق تحول دونهم إذا ما رغبوا فى إخضاع تراثهم الخاص لدرجة من التحقيق الصارم. بيد أنهم ليسوا وحدهم تماما؛ إذ إن السنوات الثلاثين الأخيرة قد شهدت تطور عدة مدارس حديثة فى «لاهوت الخروج»، أبرزها ما يسمى «لاهوت التحرير بين الكاثوليك الرومان فى أمريكا اللاتينية». وهى أقل حرفية من حيث إنها لا تحاجج مباشرة من حوادث وشخصيات الكتاب المقدس إلى حوادث وشخصيات الحاضر. ذلك أن هناك أسبابًا تدعونا للظن بأن مارتن لوثر كنج، انطلاقًا من دوائره التعليمية والفكرية التى كان يتحرك فيها، كان يدرك هذا، حتى لو كان قد اغتيل فى ذات الوقت الذى كان فيه لاهوت التحرير قد بدأ يسترعى انتباه المفكرين - ويستدعى الهجوم الشرس - فى العالم الأوسع.

لقد تولى كنج زمام شكل دينى لحركة الحقوق المدنية كان أكثر وضوحًا داخل الجماعة السوداء منها خارجها. وحتى الآن، فإن تعامل البيض مع الحقوق المدنية فى الثقافة الشعبية - أفلام هوليوود مثل فيلم «Mississippi Burning» مثلاً - يميل إلى التعاطف مع الديانة السوداء باعتبارها مصدرًا ساذجًا للراحة، وليس باعتبارها الحافة القاطعة لاحتجاج السود. كما أن الثقافة الشعبية لا تعطى الجدارة - وهنا يكون فيلم آلان باركر مذنبًا مرة أخرى - لمذهب كنج عن اللاعنف وعن القوة الخلاصية للمعاناة الظالمة. فقد كان منهجه المختار فى النشاط السياسى مُصاغًا بعناية حسب نموذج المهاتما غاندى، ولكنه يستلهم تعاليم العهد الجديد مباشرة مثل خطبة يسوع فوق الجبل. وحتى الآن، لم يتم تقدير المغزى الحقيقى لهذا بشكل صحيح. وكمجتمع يحترم العنف ومن يستخدمونه، فإن اللاعنف لم يكن يروق للمزاج الأمريكى، ومن ثم، فإن اللاعنف، مهما كان استخدامه ناجحًا، يصير خفيًا ويكاد يكون منسيًا.

لقد عمل كنج داخل إطار المذهب الذى كان راسخًا بالفعل والقائل بأن السود «شعب» وليسوا مجرد مجموعة من الأفراد ذوى الأصول المتشابهة والبشرة

المتماثلة. وقد استخدمت كلمة «شعب» استخداماً تنميطياً؛ لكي تعني: «نحن الإسرائيليون المحدثون، شعب الرب، شعبه المختار». (وهذا يثير السؤال: عما إذا كانت كلمة «سود» يجب أن تُستغل؟، والواقع عما إذا كانت كلمة «بيض»، باسم الاتساق، يجب أن تُستغل أيضاً؟. وفي نص مثل هذا الفصل ليست هناك إجابات شافية على مثل هذه الأسئلة). وكلمة «شعب» ليست بالضرورة مساوية لكلمة جنس بالمعنى العرقي الضيّق؛ لأن كثيرين من أولئك المقبولين أعضاء فيه ربما يكون نصف، أو ربع، سود «خالصين» عن طريق اختلاط الأبوين أو الجدين. وهي تقترب أكثر من فكرة «الأمة» حسبما استخدمها بندكت أندرسون في نظريته عن «الجماعات المُتخيّلة» - باعتبارها «علاقة رفقة أفقية عميقة» تحدد «الناس الذين مثلنا» وتفصلهم عن «الناس الذين ليسوا مثلنا».

وفي حالة الناس السود - «الجماعة السوداء» أو «جماعة الأمريكيين الأفارقة» ستكون هي التعبير المعاصر - كان لتحديد من نحن تاريخياً ارتباط كبير بتحديد من «هم» الذين يقولون «نحن»؛ إذ إن السود قبلوا أولئك الذين قالت عنهم الجماعة البيضاء: إنهم سود باعتبارهم سوداً، وهو أمر في العلاقات العنصرية الأمريكية، في الماضي على الأقل، كان يعني أولئك الذين تم رفضهم؛ لأنهم لم يكونوا بيضاً بالقدر الكافي (ربما لأن أصولهم العنصرية مختلطة). وقد تخيلت الجماعة الأنجلوسكسونية البيضاء «المُتخيّلة» نفسها على أنها جماعة بيضاء البشرة، أو كانت تتخيل ذلك على الأقل منذ حركة تحرير الرقيق. وقبل ذلك، وفي ظل قوانين الرق كانت مكانة العبد أو الحر، في حالة اختلاط عنصري الأبوين، تتحدد بوضعية الأم، (وليست مصادفة أن هذا يتماشى مع تحديد اليهودي في التوراة الشفوية الهالاكاه، أو الشريعة اليهودية القديمة). وعلى الأقل في القرن الثامن عشر، كان التراث في انجلترا نفسها - حيث كان الرق غير قانوني - مختلفاً: إذ كان يمكن قبول المرء باعتباره سيداً إنجليزياً أسود (أو مختلط العرق) إذا ما كانت بحوزته أوراق الاعتماد الاجتماعية.

وفي ظل الرق، إذا ولدت امرأة بيضاء طفلاً مختلط العرق أنجبته من رجل أسود

لم يكن الطفل ليخضع للرق؛ وعلى العكس، كان الطفل يصير عبداً إذا أنجبته امرأة سوداء من رجل أبيض. وبقدر ما كان المظهر يبدو، لم يكن ممكنًا، على أية حال، فصل الحالتين عن بعضهما، ولذلك فإنه حتى الشخص الحر ذا الأصول المختلطة، وأمه امرأة بيضاء، كان لا بد أن يواجه بعض الصعوبة حتى لا يُحسب عبدًا. وربما لا يكون مدهشًا أن عضوية مثل هذا الشخص فى الجماعة البيضاء كانت تُعتبر تجريبية بطريقة ما. وأى شخص أسود أو من أصول عرقية مختلطة كان يُعامَل باعتباره عبدًا إلا إذا أثبت العكس. وبعد إلغاء قوانين الرقيق، عندما تم إضفاء الشكل الرسمى على التفرقة العنصرية فى ظل نظام چيم كرو، كان وجود أحد الوالدين من السود فى زيجة مختلطة يحدد وضعية الشخص بأنه أسود من الناحية القانونية. وليس هناك منطق فى هذا، طالما أن شخصًا ما نصف ونصف كان يمكن اعتباره نظريًا عضواً فى أىّ من المجموعتين أو فى كلتيهما. بيد أن القاعدة تؤكد على فهم السواد على أنه شىء يلطخ أو ينجّس، أو يلوث البياض: وكان للنازى تعامل مشابه مع الناس الذين ولدوا لأبوين أحدهما يهودى والآخر آرى. وإذا كان أحد الجدود يهوديًا كان هذا كافيًا لحرمان أى شخص من مكانة الآرى «النقى».

وهكذا امتدت عضوية الجماعة السوداء لتشمل كل أولئك المستبعدين من الجماعة البيضاء. ومرة أخرى، إذا أخذنا فى اعتبارنا تحديد أندرسون «للجماعة المُتخيّلة» فإن «الرفقة الأفقية العميقة» التى يتحدث عنها هنا تشير إلى تجربة مشتركة من الاستبعاد العنصرى والانحياز. وهذا أمر مسيحى معترف به بطريقة شاملة ويفترض وجود إدراك حاذق من التضامن باعتباره مبدأ أخلاقيًا (وبعض التأمل الواعى فى مثل السامرى الطيب، على سبيل المثال). ولا يعنى هذا أن الجماعة البيضاء قد سُمح لها بأن تحدد الجماعة السوداء بسياسة الاستبعاد التى انتهجتها: وإنما تعنى أن الجماعة السوداء قد قررت لنفسها أن تتبنى «معاناة عنصرية مشتركة»، باعتبارها العلامة المميزة لأولئك الذين اختاروا أن تشعر معهم «بالرفقة الأفقية العميقة».

أما ما أعاد فرض هذا الإحساس بشعب مختار أسود منفصل فكان فشل

البروتستانت البيض، حتى من يبشرون بالإنجيل الاجتماعي التحرري (المعادل الأمريكي للاشتراكية المسيحية الإنجليزية)، في تحديد، والاحتجاج على، الأدلة المتزايدة على الفصل العنصري، والتعصب في الجنوب ما بعد الحرب الأهلية. إذ لم يكن هناك تضامن كاف مع البروتستانت؛ لكي يهدم أسوار الفصل الديني الذي كان بالفعل قد قسّم الطوائف الرئيسية (فيما عدا الكنيسة الأسقفية والكاثوليك الرومان) إلى فرعين متمايزين أبيض وأسود من نفس الكنائس. وعلى أية حال، لم تكن البروتستانتية السوداء تحررية بشكل خاص، لا من الناحية اللاهوتية ولا من الناحية الأخلاقية؛ إذ كانت البروتستانتية السوداء ستبدو أصولية بشكل غير مرض بالنسبة لأيّ لاهوتي من التيار الرئيسي في كلية من كليات «إيفى ليج-Ivy League»، ومن ثم لم يكن من السهل عبور الحدود العنصرية للوصول إلى الأفكار التحررية لدى البيض، «لم يحدث أبدًا أن برز العنصر على أنه موضوع ديني سائد بالنسبة إلى البيض قبل مقاطعة حافلات مونتجومري سنة ١٩٥٥م» حسبما يكتب ميللر، «لقد كان ذلك الحادث هو الذي جلب لمارتن لوثر كنج الشهرة العالمية».

فقد اعتبر كنج أن الإنجيل الاجتماعي يعيد وضع المكون الأساسي المفقود في النزعة الفردية التي تميز البروتستانت البيض، بحيث يدين أية «ديانة تتعامل مع أرواح البشر ولا تهتم بتلك الأحياء القذرة التي تلعنهم...» على أنها أوشكت على الموت روحيًا، بيد أن نوع البروتستانتية السوداء الذي قدمه لم يكن بحاجة إلى إنجيل اجتماعي لكي يذكّره بذلك، كما أن نضاله العام من أجل الإنجيل الاجتماعي كان قائمًا على أساس خلق قضية مشتركة مع البروتستانتية البيضاء، بدلاً من أن يقدم إضافة مهمة إلى عقيدته الخاصة. وبعبارة أخرى، كان للبروتستانتية السوداء إنجيلها الاجتماعي الخاص بها، ومنذ وقت طويل قبل أن يصك والتر روشينبوش (مؤلف «Christianizing The Social Order» سنة ١٩١٢م). ولا بد أن التبشير بالعدالة الاجتماعية كان علامة مميزة لكل موعظة سمعها كنج في حياته؛ لأن هذا كان قد صار التفسير الأسود المعتاد للعهد القديم منذ أيام العبودية. لقد كان ذلك النتيجة المباشرة لاعتبار السود تنميطيًا شعبًا ينتمي للكتاب المقدس - مثل الإسرائيليين القدامى في هروبهم من استعباد المصريين لهم.

ولم تكن مشكلة كنج هى الاضطرار إلى إقناع المسيحيين السود بأن الفصل العنصرى أمر يناقض كلمة الرب. وإنما كانت مشكلته مع المسيحية البيضاء لا سيما رأى الأغلبية فى أوساط البروتستانت فى الولايات المتحدة (على الرغم من أنه كان منتشرًا بين السواد الأعظم أكثر منه بين الزعماء)، وهو الرأى الذى كان يرغب فى مجرد «حائط فصل» بين الكنيسة والدولة (على حد تعبير چيفرسون) بل حائط فصل أعلى فى بنيانه بين الدين والسياسة، ولم يكن هناك تصريح بمثل هذا الحائط فى الكتاب المقدس- «. . . أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (متى ٢٢ : ٢١) وهو نص لا يقترب من الحالة بأى شكل. ولكن المذهب الكالڤينى الذى اعتنقه الرواد الأوائل فى نيوإنجلاند، الذى كان آنذاك منتشرًا بشكل واسع وإن كان ضعيفًا فى أعماق الجنوب، قد مرر الرسالة القائلة بأنه إذا كان الازدهار علامة على موافقة الرب، فإن الفشل، والخراب والجهل والدونية الاجتماعية، كانت علامات على عدم موافقة الرب. وثمة قطعة علمية مزيفة لتعزيز هذا قدمتها النظريات المزورة التى قدمها الداروينيون الاجتماعيون الذين اعتقدوا أن النظام الفئوى فى المجتمع الأمريكى - الذى كان قد ألغى الأرستقراطية وورث الامتيازات الطبقية - كان انعكاسًا لمبدأ البقاء للأفضل . ومن ثم فإن أولئك الذين بقوا فى أدنى مستوى كانوا هم الذين لا يصلحون، كما أن الحالة الاقتصادية المتدنية للسود كشفت عن أنهم ضمن هذه الفئة.

وبدا أن هذا كله يتعزز باللعنة التى انصبت على نسل حام- نسله من ابنه الذى سُمى كنعان؛ ليكون خليقًا بهذه اللعنة- التى وردت فى سفر التكوين (٩: ٢٥) والتى حكمت عليهم جميعًا بالعبودية الدائمة «فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته»(*). ولكن فوق هذا كله، فإن الكالڤينية لم تتخل تمامًا عن القدرية التى عرّفت «المختارين» بأنهم أولئك المعروفون فعلاً للرب، المجموعة المغلقة ،

(*) ملخص القصة التوراتية: أن نوحًا شرب حتى سكر، وبعد أن سكر تعرى، فرأى عورته ابنه حام، فأخبر أخويه سام ويافث، فدخلا الخيمة فغطيا عورة أبيهما نوح- دون أن ينظرا إلى عورته- وعلم نوح ذلك عندما أفاق من السكر، فإذا به يلعن كنعان بن حام ويقول قولته الشهيرة التى تبرر عبودية الكنعانيين للساميين- المترجم.

القبيلة الإنجليزية البيضاء، الشعب المختار المرئى الذين كانوا أول من اعتنق البروتستانتية من الأنجلوسكسون. ونظريات كل من چون بيل وچون فوكس التاريخية عن أن المسيحيين الأصليين المخلّص هم الإنجليز، والذين زُرعت عقيدتهم داخل الذكرى الحية للمسيح نفسه على يد يوسف الرامى، هذه النظريات تركت على الأقل شائعة عن أن أولئك الذين يمكنهم الزعم بأنهم يحملون دماء أنجلوسكسونية طيبة هم المقربون من الرب بصفة خاصة. وقد امتدت هذه الشائعة فى أعماق الجنوب فى جوهر أيديولوچية الكلوكلوكلان.

والنسخة المتطرفة لمثل هذا التفكير الأسطورى تمثلت فيما يسمى حركة «الإسرائيليين البريطانيين»، التى اجتذبت فى البداية انتباه الناس فى القرن التاسع عشر بزعمها أن البريطانيين كانوا نسلاً حقيقيًا (چينيًا)، للقبائل العشر المفقودة الأسطورية من بنى إسرائيل، والتى اختفت من تاريخ الكتاب المقدس بعد أن استولى الآشوريون على المملكة الشمالية. وهكذا فإن «الحجر» المستخدم فى حفلات التتويج البريطانية، كان يقال: إن أصله يرجع إلى الملك داود (النبى) وحُمل إلى اسكتلندا للحفاظ عليه. وفى وقت ما زار يسوع نفسه القبائل العشر. هذا الاختراع - لأن مصطلح «أسطورة» يعطيه جدارة لا يستحقها - يبدو أنه السبب وراء تساؤل وليم بليك الشهير فى ترنيمة «القدس»:

وهل هذه الأقدام فى الزمن القديم

كانت تمشى فوق جبال انجلترا الخضراء؟

وهل كان حَمَل الرب المقدس

قد شوهد فوق مراعى انجلترا البهيجة؟

كان زعم الإسرائيليين البريطانيين شائعًا على مدى فترة من الزمن على اعتبار أنه أساس وطنى للإمبراطورية البريطانية. ومن بين أولئك الذين لم يوافقوا عليه كان أولئك الذين أحسوا أنه يقلص من قوة الرأى الأكثر شيوعًا وشبه الرسمى، بأن البريطانيين هم السلالة الروحية (ولكن ليس الفعلية) للشعب العبرانى. وهناك

جماعات أمريكية على أقصى اليمين تصرح بصيغة نشأت فى البلاد عن أصل الاعتقاد فى الإسرائيليين البريطانيين، ويخلطون هذا بالأساطير النازية عن الجنس الآرى؛ ومن نافلة القول أن نقول: إنهم فاشيون.وتظهر صيغة أخرى مختلفة تمامًا فى نظام الإيمان لدى طائفة المورمون.

وفكرة «الشعب المختار» فى الكالفينية الجديدة عن ميثاق أمريكى أبيض مع الرب كانت لها نتائجها وعواقبها؛ إذ إنها حددت الأرض الموعودة ـ شبه القارة الأمريكية الشمالية ـ كما أنها حددت أيضًا أعداء البروتستانت الأمريكيين البيض. وكانوا يتمثلون إما فى الفئات الكلاسيكية التى تم تجاوزها، مثل البريطانيين واليهود والكاثوليك ـ الذين كان الرب قد تبرأ منهم ـ أو الفئات الكنعانية الكلاسيكية، من الأمريكيين الأصليين والسود ـ والذين كان الرب قد لعنهم وجعلهم فى مكانة أدنى،وفى كل حالة أوضح التنميط البروتستانتى كيف كان يمكن التعامل معهم. فلم يكن الكاثوليك واليهود والسود يستحقون معاملة أفضل من معاملة أعداء شعب الله المختار القديم تحت قيادة موسى، ويوشع وجدعون والباقين. وكان أى عدو للقبيلة البروتستانتية البيضاء يعتبر عدوًا للرب؛ ودفاعًا عن القبيلة البيضاء، كان القتل مباحًا فى النهاية. هذا التنميط ـ الذى كان يمكن الزعم بأنه مستمد من الكتاب المقدس بشكل جامد ـ كان قد انطلق فى الجنوب بعد الحرب الأهلية ليحل محل الأيديولوچية القديمة عن الطبقة والنشأة والهيراركية و«الالتزام النبيل» الذى «ذهب مع الريح» عندما سار شيرمان عبر چورچيا يدمر كل ما يقابله.

وبحلول منتصف خمسينيات القرن العشرين، كان هناك افتراضان ناضجان ولكنهما متنافسان ولا يمكن التوفيق بينهما بأى حال، عن وضع «الشعب المختار» فى الجنوب، ويدعى كل منهما أن الكتاب المقدس مصدره ولكل منهما تنميطه الخاص اعتمادًا على الكتاب المقدس. وبينما كانا متعارضين، وقد سحب كل منهما خنجره ليطعن الآخر، كانت حركة الحقوق المدنية تطالب باستكمال أجندة ما بعد الحرب الأهلية التى عبر عنها لينكولن فى خطابه فى جتيسبرج. هذا التصوير الدينى لأزمة العلاقات العنصرية فى أمريكا فى خمسينيات وستينيات القرن

العشرين ليس هو التصوير العلماني ولا الماركسي، الذى كان المعلقون يفضلونه عادة، ولكن مما لا شك فيه أنه كانت له قوة أكبر فى شرح الأزمة أو إلقاء الضوء عليها. كما كانت له أيضًا تضمينات مهمة بالنسبة للعلاقات العنصرية البريطانية.

وإذا كانت أهم موعظة ألقيت فى أمريكا فى القرن الثامن عشر هى التى تحمل عنوان: «الخطاة بين يدى رب غاضب» والتى ألقاها چوناثان إدواردز، فمن المؤكد أن أهم خطبة وعظية أمريكية فى القرن العشرين هى التى تحمل عنوان: «أنا عندى حلم» والتى ألقاها مارتن لوثر كنج أمام حشد من مائتى ألف شخص فى واشنطن فى أغسطس سنة ١٩٦٣م. وهى قطعة بلاغية جميلة التأليف، فهى على الأقل تنافس أية خطبة من خطب ونستون تشرشل (الذى حظى باعتراف واسع بأنه أعظم خطيب باللغة الإنجليزية فى القرن العشرين)، وقد ألّفها شخص ما له أذن حساسة تجاه التوازن فى كل عبارة وصوت كل مقطع. كان هذا درس حياته كواعظ أسود، بالإضافة إلى موهبته الخاصة النادرة.

وتبدأ ترنيمة «أنا عندى حلم» بأن يذكّر سامعيه - ولكن أساسًا سامعيه الغائبين - أى أمريكا البيضاء - بوعودها لأمريكا السوداء. وهو يشير إلى إعلان الاستقلال، وخطاب جتيسبرج، وإعلان تحريم الرق، ويقتبس منهم بطريقة مفحمة. وفى البداية تبدو الترنيمة علمانية إلى حد كبير، على الرغم من بؤرتها الأخلاقية القوية. ولا تبدأ الخطبة فى اتخاذ شكل الموعظة سوى فى منتصفها، وعلى الرغم من أن كنج كان قد اتخذ بالفعل طريق المبشر فى طرح قضية مثل استخدام عبارات متكررة دوارة:

«هناك أولئك الذين يسألون المدافعين عن الحقوق المدنية» متى سترضون؟ إننا لن نرضى أبدًا طالما أن الزنوج ضحية للرعب الذى لا يوصف من جراء قسوة الشرطة. إننا لن نرضى أبدًا طالما أن أجسادنا التى أرهقها السفر، لا يمكن أن تسكن النُزُل على الطرق السريعة أو الفنادق فى المدن. إننا لن نرضى أبدًا طالما أن حراك الزنوج هو فقط من معزل صغير إلى معزل أكبر. إننا لن نرضى أبدًا أن أطفالنا مجردون من ذواتهم ومسلوبون من كبريائهم بواسطة العلامات التى تقرر «للبيض

فقط». إننا لا يمكن أن نرضى طالما أن أى زنجى فى الميسيسيبى لا يمكن أن يدلى بصوته وأى زنجى فى نيويورك يعتقد بأنه لا يملك شيئًا يصوِّت من أجله. لا، لا، نحن لسنا راضين ولن نرضى حتى «تتدفق العدالة مثل المياه وينساب الحق مثل المجرى العظيم».

. . . وهو ما يكون حينما يصبح الخطاب موعظة؛ لأن هذه هى كلمات النبى عاموس «وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم» (عاموس ٥ : ٢٤). وعندما يصل إلى أشهر فقرة، تكون العبارة التكرارية هى عبارة العنوان: «عندى حلم». ولكن لديه مفاجأة الواعظ فى النهاية. فمَن الحالم بالضبط؟

«أقول اليوم لكم يا أصدقائى، حتى ونحن نواجه صعوبات اليوم والغد، إننى ما يزال عندى حلم. وهو حلم يضرب بجذوره فى أعماق الحلم الأمريكى.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما ستنهض هذه الأمة وتعيش حسب عقيدتها الحقة: نحن نأخذ هذه الحقائق على أنها بديهيات، أن البشر جميعًا قد خلقوا سواء.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما على تلال چورچيا الحمراء، سيكون بوسع أبناء العبيد السابقين وأبناء ملاك العبيد السابقين أن يجلسوا سويًا على مائدة الأخوة.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما ستتحول ولاية الميسيسيبى، وهى ولاية ألهبتها حرارة العدالة، وأرهقتها حرارة الاضطهاد، إلى واحة للحرية والعدالة.

إن عندى حلمًا بأن أطفالى الأربعة الصغار سوف يعيشون يومًا ما فى وطن لا يُحكم فيه عليهم بلون بشرتهم ولكن بمضمون شخصيتهم. إن عندى حلمًا اليوم.

إن عندى حلمًا بأنه فى يوم ما فى آلاباما، التى تعج بالعنصريين الأقحاح، والتى يتفوه حاكمها بكلمات «الاعتراض» و«عدم الشرعية» يومًا ما هناك فى آلاباما سيكون الصبية والصبايا السود الصغار قادرين على أن يشبكوا أيديهم فى أيدى الصبية والصبايا البيض الصغار كإخوة وأخوات. إن عندى حلمًا اليوم.

إن عندى حلمًا بأنه ذات يوم سيتم إعلاء كل واد، وخفض كل تل وجبل؛

والأماكن الوعرة سوف تمهّد، والأماكن الملتوية ستصير مستقيمة، وسيتجلى مجد الرب، وسيراه كل البشر سويّاً».

وهذه ليست رؤيا كنج وإنما هى رؤيا النبى إشعيا. وكان بوسع مستمعيه أن يتعرفوا عليها فى الحال، وهى مساهمة قيمة فى فهم الكيفية التى كانت تسمع بها كلماته أن تقدم السياق الروحى الأوسع. وهذا يجيب أيضًا على السؤال: من الذى يحلم؟ إنه كنج، بيد أنه يحلم حلم إشعيا، كما أن إشعيا يكرر كلمة الرب. إنه باختصار حلم الرب. ونص إشعيا بالكامل (٤٠ : ١ ـ ٥):

«عزوا عزوا شعبى، يقول إلهكم. طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل أن إثمها قد عُفِى عنه، أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها.

صوت صارخ فى البرية: أعدوا طريق الرب. قوّموا فى القفر سبيلاً لإلهنا، كل وطاء يرتفع وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوج مستقيمًا والعراقيب سهلاً. فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر جميعًا لأن فم الرب تكلم».

إنه ليس فقط إعلانًا للعدالة الوشيكة. هذه الفقرة، مثل فقرات أخرى فى سفر إشعيا، تتطلع صوب عصر مسيحانى جديد. فالكلمات (كما عرف سامعوه) ترد مرات ومرات فى الكتاب المقدس، بواسطة يوحنا المعمدان، الذى يتنبأ بقدوم المسيح الوشيك ومطالبة الشعب بالاستعداد له بالتوبة:

« فى أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا، كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا فى البرية. فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا. كما هو مكتوب فى سفر أقوال إشعياء النبى القائل: صوت صارخ فى البرية، أعدوا طريق الرب اصنعوا سُبُله مُستقيمة. كل واد يمتلئ وكل جبل وأكمة ينخفض وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرقًا سهلة. ويبصر كل بشر خلاص الله» (لوقا ٣: ٢ ـ ٦).

ثم يظهر نبى ثالث من أنبياء الكتاب المقدس: دانيال. وعرض كيث ميللر للنص لا يحتاج إلى مزيد من التعليق:

«وباتباع التكرار لعبارة «إن عندى حلمًا» أثار «كنج» الفكرة الأخروية فى الكتاب المقدس بإعادة إنتاج تصوير ما قاله النبى دانيال «بهذا الإيمان سنكون قادرين على أن ننحت من جبل اليأس حجرًا للأمل» . وإذ كان دانيال يفسر حلمًا شهيرًا للملك «نبوخذ نصر» ، يصف حجرًا يسحق تمثالاً صنع من المعادن الثمينة ، والحديد ، والصلصال . وإذ نحته الرب من أحد الجبال ، فإن الحجر يرمز إلى مملكة الرب المثالية التى تدمِّر كل الممالك الأرضية التافهة ويبقى هو للأبد. وعلى أية حال ، فإنه فى خطبة كنج ، يستخرج البشر الحجر من الجبل دون أن ينتظروا بسلبية أن يخلق الرب مملكة جديدة بنفسه خلقًا تامًا . وإذ مثلت بالصخرة من الجبل ، فإن وصول مملكة دانيال المثالية يتصادف مع وصول مملكة إشعياء ذات الأودية المرفوعة والجبال المنخفضة . وقد عالج كنج بخبرة رموز الجبل من دانيال وإشعياء عندما ابتدع صورة الجماعة الكاملة» [وردت القصة فى الإصحاح الثانى من سفر دانيال] .

وبعبارة أخرى، هذا هو الحلم القديم للنزعة الألفية فى البروتستانتية: رؤيا عالم كامل يحكم فيه المسيح على مدى ألف سنة. وبينما يوضح التنميط البروتستانتى مرة بعد مرة، فإن دور الشعب المختار هو إحضارها إلى الوجود. إنهم المولودون الذين سيجعلون المجىء الثانى للمسيح، بعملهم من أجل العدالة.

وإنها أمريكا ، ما تزال هى الأرض الموعودة التى سوف يحدث فيها هذا ؛ إذ إن عقيدة كنج فى الخلاص هى فى النهاية نفس العقيدة الأمريكية ، شأنه فى ذلك شأن كل من سبقوه ، سواء من السود أو البيض . وأية شكوك يمحوها ختامه لخطبته الرنانة ، عندما يصير موضوع إشعياء عن الجبال التى تغيرت هيئتها هو الحلم الأمريكى ذاته ، وهى صهر نبوءة فى العهد القديم مع النشيد الوطنى الأمريكى :

«سيكون هذا هو اليوم الذى ينشد فيه جميع أبناء الرب بمعنى جديد :

إن بلادى منك

أرض الحرية الحلوة

عنك أغنى

الأرض التى مات فيها آبائى

أرض فخر الحجاج

من كافة جوانب الجبال

دع أجراس الحرية تدق

ولهذا دع الحرية تدق أجراسها من قمم التلال المدهشة فى نيوها مبشير

دع أجراس الحرية تدق من جبال نيويورك العظيمة

دع أجراس الحرية تدق من جبال پنسلڤانيا المتعالية

دع أجراس الحرية تدق من جبال الروكى ذات القمم الثلجية فى كلورادو

دع أجراس الحرية تدق من منحدرات كاليفورنيا المنحنية

ولكن ليس هذا فقط : دع أجراس الحرية تدق من جبل الصخر فى چورچيا

دع أجراس الحرية تدق من جبل لوك أوت فى تنيسى

دع أجراس الحرية تدق من كل تل وكومة فى الميسيسيپى

من كافة جوانب الجبال، دع أجراس الحرية تدق

ثم يعود أخيراً إلى جذوره كواعظ أسود؛ لكى «يعلن سنة الرب المقبولة» ويلخص الألفية:

«وعندما يحدث هذا، حينما نسمح لأجراس الحرية أن تدق، حينما ندعوها تدق من كل قرية وكل محلة، من كل ولاية، ومن كل مدينة، سنكون قادرين على أن نسرع مجىء ذلك اليوم، الذى فيه كل أبناء الرب، من السود والبيض، من اليهود والأغيار، سيكونون قادرين على أن يشبكوا أيديهم وينشدوا فى كلمات الأغانى الدينية الزنجية القديمة: الحرية أخيراً! شكراً للرب العظيم، لقد تحررنا أخيراً».

لأن تلك كما كان يعرف كل مسيحى أسود سمعه حتمًا، كانت أغنية نهاية الزمان. وهكذا قدم مارتن لوثر كنج فى موعظته ليس فقط دعوة موجهة ونبيلة بالتصرف لتصحيح الأخطاء العنصرية؛ وإنما قدم «لاهوتًا لأمريكا» متجددًا ومكتملاً، وهو على اتساق مع تراث طويل من التبشير البروتستانتى المستمد من سفر الرؤيا، سواء أبيض أو أسود. فأمريكا السوداء يفترض أن تكون الأمة المخلّصة، «ضوء على الأمميين»؛ أما أمريكا البيضاء فهى الأمة التى تنال الخلاص. وخلاصها يبشر بزمن النهاية، أى بداية مملكة المسيح على الأرض. ولا بد أنها كانت تجميعًا لافتًا للنظر حتى وإن كانت هى الشيء الوحيد الذى فعله فى حياته.

وفى نظرية التنميط على أساس الكتاب المقدس، كان ثمة شعب ـ قرين للشعب الإسرائيلى فى العهد القديم ـ هو الشعب الأسود الذى كان مضطهَدًا، ومن ثم فإنهم بوصفهم شعبًا لا بد أن يتم تحريرهم (من ربقة العبودية فى مصر . . . إلخ) بمساعدة الرب ولكن بجهودهم الخاصة. وقدمت حركة الحقوق المدنية الأمريكية نموذجًا احتذاه أصحاب الحملات الأخرى، ممن رأوا تشابهات بينهم وبين الشعب الأسود وبين شكاواهم وشكاوى السود.

والتضامن والشعور بالقوة التى منحها مفهوم «الشعب» لنضال السود من أجل الحقوق المدنية كان يعتبر ساريًا وفعّالاً بالمثل بالنسبة للشواذ جنسيًا، والمعاقين، والمسنين، والنساء وهلم جرا؛ إذ كانت مشاعر العداء تجاه هذه الجماعة قرينة بالعداء الذى خضعت له الجماعة السوداء. ويبدأ التصحيح السياسى باعتباره لغة معاداة العنصرية، وطُبق بالتشابه على أولئك الناس المتباينين الذين كانوا أيضًا يرون أنفسهم جماعات مناهضة للاضطهاد. ومن الناحية النظرية، كان مصدر الاضطهاد فى حالة الشواذ جنسيًا، والمعوقين، والنساء وما إلى ذلك، هو نفس المصدر بالنسبة للسود. كان المصدر هو مجموع البروتستانت الأنجلوسكسون البيض (WASPS) المحافظين الذين تجلى موقفهم بأقسى صورة فى الطبقة العاملة من الذكور البيض فى أعماق الجنوب، والذين كان أكثر رموزهم تطرفًا هو جماعة

الكوكلوكس كلان؛ لأنهم أيضا كانوا «شعبًا» بالمعنى الوارد فى الكتاب المقدس، على الرغم من أنهم كانوا يشكلون أغلبية.

وقد ربط مارتن لوثر كنج عدة مرات بين الحملة من أجل الحقوق المدنية الأمريكية وبين حركة مناهضة الاستعمار العالمية، والواقع أنه كانت هناك نقاط تشابه، إذ لم يكن لدى الناس السود فى أفريقيا حقوق متساوية مع حقوق البيض. ولم يصدق هذا على أى مكان أكثر منه فى الجزء الجنوبى من القارة. فبحلول الستينيات، كانت الأغلبية البيضاء فى جنوب أفريقيا - إذ لم يكن للسود حق التصويت - قد أقامت الدولة الوحيدة فى العالم القائمة على أسس عنصرية كاملة؛ حيث كان التمييز العنصرى يحظى بمباركة أعمق حتى من جنوب الولايات المتحدة فى ظل قوانين چيم كرو. وقد أسس البيض فى جنوب أفريقيا أنفسهم على أساس قراءتهم الكالڤينية للكتاب المقدس، لا سيما المفهوم القائل بوجود «شعب مختار» أبيض يحتل، تحت ميثاق مقدس، «أرضًا موعودة»، مع اعتبار الأفريقيين الأصليين بمثابة الكنعانيين. ففى سفرهم الطويل فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كانوا، مثل الإسرائيليين القدماء، هاربين من «الفرعون» (الذى يظهر فى هذه الدراما فى صورة الملكة ڤيكتوريا). كانت مثل هذه الاعتقادات أقرب إلى اللاهوت السياسى لعامة البروتستانت البيض الذى كان مارتن لوثر كنج يقاتله فى بلاده. وعلى الرغم من أن البوير لم يمارسوا الرق فى المصطلحات الأمريكية، فإنهم أيضًا كانوا يعتقدون أن «الكنعانيين» قد وضعهم الرب هناك؛ لكى يخضعوا للحكم، ولكى يتم تحويلهم إلى عمال وخدم.

كانت أيديولوچية «الشعب المختار» لدى البيض فى جنوب أفريقيا، المستمدة من المذهب الكالڤينى للكنيسة الهولندية المُصْلَحة، هى التى شيدت أساس نظام الفصل العنصرى. ولكن من سخرية الأقدار أنه كان من داخل الشعب المختار الكالڤينى ودائرته المغلقة «Laager» (وهى كلمة تعنى أصلاً دائرة من العربات التى وضعت فى الشكل الدائرى بقصد توفير الحماية ليلاً) أن بدأ نظام الفصل العنصرى يتهاوى، وكان السبب لاهوتيًا، إذ لم يكن ممكنًا، فى ضوء نصوص مثل تلك التى

وردت فى سفر أعمال الرسل (١٠ : ٣٤-٣٥) أن يتم استبعاد السود من اعتناق المسيحية إذا ما كانوا يسعون بإخلاص إلى اعتناقها «بقلب نقى» : «ففتح بطرس فاه وقال: بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه، بل فى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده».

ولهذا سعت الكنيسة الهولندية المُصْلَحة فى جنوب أفريقيا زمنًا طويلاً لكى تقبل الأفريقيين، و«الجنس المختلط ـ Cape Coloureds»، وغيرهما من الجماعات غير البيضاء، باعتبارهم مسيحيين بتأسيس كنائس تابعة لكل جنس على حدة يمكن أن تقبلهم فيها. بيد أن هذا التساهل نفسه بنى فى المذهب الكالڤينى للبيض فى جنوب أفريقيا شذوذًا عميقًا. كيف يمكن أن يوجد «شعبان مختاران» أو أكثر فى نفس المكان؟ وقد عاد الباحثون المتخصصون فى الكتاب المقدس من البيض فى جنوب أفريقيا إلى النصوص الأصلية التى كانوا قد أقاموا على أساسها نظرية الفصل العنصرى، ورأوا أن التفسيرات الأخرى ـ بما فى ذلك تلك التى أدت إلى الرفض القوى لنظام الفصل العنصرى من قبل كنيستهم الهولندية الإصلاحية الأم فى هولندا ـ ممكنة. وبينما كان المفهوم الشعبى ـ لا سيما فى مناطق العالم المتحدثة بالإنجليزية ـ هو أن الفصل العنصرى قد تقوض وانهار بسبب العقوبات الدولية، ونضال ANC، وبطولة نيلسون مانديلا وتضامن حركات الحقوق المدنية للسود والحركات المعادية للاستعمار، فالحقيقة هى أن زعماء البيض فى جنوب أفريقيا كانوا بالفعل يفقدون الثقة فى نظام الفصل العنصرى باعتباره إرادة الرب. وعندما قدَّم مانديلا للزعامة البيضاء فى جنوب أفريقيا مخرجًا من الأزمة، أخذوا به.

كان استخدام السود تحت ظروف أدنى من ظروف توظيف البيض، وإنكار معظم حقوقهم السياسية، قد بات من ملامح الاستعمار الأوروبى فى جميع أنحاء أفريقيا وآسيا، وكان الموقف فى جنوب أفريقيا، على الرغم من أنه كان متطرفًا، لم يكن موقفًا فريدًا بأى حال من الأحوال. ولكن بخلاف المستعمرات، كانت تلك البلاد مستقلة، ومن ثم كانت معزولة، ولم تكن قد مرت بما مر به بقية العالم؛ إذ كان بقية العالم قد مر بأهوال قاسية، هزت تفكيره لا سيما فيما يتعلق بالعلاقات

بين الشعوب والأجناس؛ إذ إن هزيمة «الجنس السائد» النازى فى الحرب العالمية الثانية قد جرّد إلى الأبد فكرة أن فرعًا واحدًا من الجنس البشرى يتفوق على الآخرين بالفطرة من مصداقيتها. فقد حُوربت قوات هتلر من قبل البريطانيين والأمريكيين؛ بيد أن أسوأ هزائمها كانت على أيدى الجيش الأحمر، الذى يكاد يكون كله مؤلفًا من السلاف، الذين هم بحسب النظرية العنصرية النازية، فى مرتبة أدنى كثيرًا من الجنس الآرى وكان ينبغى أن يُهزموا بسهولة. وفى الأيديولوچية الفاشية كانت روح القتال أحد المؤشرات الرئيسية على القوة العنصرية. وفى الوقت نفسه شهد الغرب المنطق الجحيمى للتفوق العنصرى عندما ارتد فى صورة الرعب مما تم اكتشافه داخل معسكرات التجميع النازية عندما انتهت الحرب. ومن المستحيل أن نفهم الصدمة الناجمة عن إدراك أن الألمان، الذين كانوا ذات مرة من أكثر شعوب العالم تمدينًا، قد تمت قيادتهم لفعل هذا، والواقع أن الصدمة لم تخف بعد خمسين سنة. وقد قدّم النازيون نسخة أخرى من سيناريو شعب الله المختار، على الرغم من أنها ليست نسخة مسيحية. فقد كانوا يعتقدون أنهم مختارون - بواسطة التاريخ، وبواسطة «ضوء العلم المضلل»، والقدر، والمصير وآلهة الراين القدماء؛ فليس من الواضح مَن مِن هؤلاء اختارهم - لكى يحكموا العالم.

كان هناك قدر قليل من التوسع فى الإمبراطورية بعد الحرب العالمية الأولى. ولكن كان ثمة قدر قليل من فهم أن أسس الإمبراطورية قد أرسيت على الأخطاء التى تم ارتكابها بحق شعوب ومجتمعات أخرى. وقد عارض ونستون تشرشل، بوصفه زعيمًا للمعارضة، استقلال الهند سنة ١٩٤٧م. ولم يلحق به أى ضرر من جراء هذا: فقد فاز فى الانتخابات العامة سنة ١٩٥١م. كما أن حكومة آتلى العمالية ١٩٤٥ - ١٩٥١م، على الرغم من نزعتها الاشتراكية، لم تكن هى الأخرى معادية للاستعمار من حيث المبدأ. ويكتب كوريللى بارنيت، فى «The Verdict of Peace»:

«لم تكن حكومة العمال وحدها هى التى تعتقد، فى الفترة التى سادتها نشوة النصر فيما بعد الحرب، أن بريطانيا بوصفها قوة يمكن أن يكون لها مستقبل مثلما كان لها ماض. كذلك كان حزب المحافظين فى المعارضة يعتقد هذا، وكذلك

كان يعتقد الشعب البريطاني؛ إذ إن القيود العقلية التي فرضها التاريخ الإمبراطوري كانت تكبلهم جميعًا. وبالرغم من أن حكومة العمال تخلت أخيرًا عن الهند سنة ١٩٤٧م، فإنها أبقت بإصرار، ودونما تمييز، على كل ما بقي من الالتزامات العسكرية والبحرية التقليدية لبريطانيا في البحر المتوسط وفي الشرق الأوسط وفي الشرق الأقصى - على اعتبار أن هذه كانت الركائز الجوهرية (على حد تعبير بيڤن عن الشرق الأوسط سنة ١٩٤٨م) لوضع بريطانيا كقوة عظمى [كان إرنست بيڤن في ذلك الوقت سكرتير حزب العمل للسياسة الخارجية].

وثمة نسخة ناعمة عطوفة من نظرية الشعب المختار - وهي أن قدر انجلترا أن تلقي «ضوءًا على الأميين»، وأن هذا الضياء كان أفضل ما يكون إذا عُمل في الحال بدلاً من أن يُعمل على المدى الطويل - ما تزال سائدة بشكل عام. فقد كانت ما تزال نظرية حزب الهويج (المحافظين). وقد افترضت، مهما كان الذي حدث مؤخرًا في ألمانيا، أن الاتجاه الطبيعي للحضارة الإنجليزية كان صوب التقدم. وبالتدريج، بوصة فبوصة، كانت المؤسسات بريطانية الطابع قد تأسست وبُنيت في المستعمرات الأفريقية والآسيوية التي كانت ما تزال خاضعة لحكم لندن - مؤسسات مثل المدارس والكليات، والمحاكم والنظم القانونية، والمجالس المحلية (وبعضها له قوة نيابية تشريعية، وبعضها استشاري فقط)، وفروع محلية للكنيسة المسيحية البريطانية الرئيسية، وكانت اللغة الإنجليزية لها الأفضلية في التعليم على اللغات المحلية.

والحقيقة أن نظرية الشعب المختار في الاستعمار البريطاني، التي ترجع مباشرة إلى زمن ويلبرفورس عند نهاية القرن الثامن عشر، كانت تحتوي داخلها على بذور دمارها؛ إذ إنه آجلاً أم عاجلاً كان لا بد أن يُرى «النور على الأميين» وأن تتم الاستجابة له، وكان لا بد للأمة المخلّصة أن تقوم بفعل الخلاص. وبينما كانت فوائد الحضارة البريطانية تنتشر ويتم استيعابها بين المستعمرات، كان لا بد من أن يكون هناك طلب للحقوق السياسية نتيجة لهذا. وكانت دروس ١٧٧٦م واضحة بما فيه الكفاية، حتى ولو أخفق الأمريكيون في إبرازها (وهو ما لم يفعلوه).

وجاءت أهم الدروس من هذا النوع خلال ما يسمى «أزمة السويس» (التى كانت حربًا فى الحقيقة)؛ ذلك أن بريطانيا، بمساعدة فرنسية وإسرائيلية، قد قررت إعادة احتلال قناة السويس التى كان الزعيم الوطنى المصرى جمال عبد الناصر قد أممها (أى انتزعها من الملاك الأجانب) سنة ١٩٥٦م. وكانت هناك فى الأمة كلمات ونستون تشرشل فى فترة سابقة من الخمسينيات «شعور متنام بالحاجة إلى إعادة وضع بريطانيا فى مكانها الصحيح، الذى يعتمل فى قلوب الناس بعيدًا عن صفوف أية منظمة سياسية»؛ إذ إن انجلترا التى كانت قد شعرت بالثقة الوطنية فى النفس تعود إلى المزاج الوطنى فى زمن التتويج سنة ١٩٥٣م، لم تكن لتترك حاكمًا أجنبيًا تافهًا ينتصر عليها، حسب الوصف الذى أطلقه أنتونى إيدن خليفة تشرشل فى رئاسة الوزارة على ناصر.

ومن الناحية العسكرية كان الأمر نوعًا قذرًا من النجاح، ولكن أمريكا عارضت بقوة. وربما كان جوهر الإحساس الأمريكى شبيهًا بالشعور الليبرالى الذى عارض المشروع فى بريطانيا: أن هذه كانت طريقة عفا عليها الزمن لا ينبغى لأية أمة أن تتصرف بها، وكانت المؤسسة البريطانية ما تزال على عقليتها الاستعمارية. بيد أن أمريكا، بسبب تاريخها، وعلى الرغم من تجاربها الخاصة فى بناء الإمبراطورية، كانت لديها عداوة عميقة تجاه الاستعمار فى صيغته الأوروبية القياسية وتعاطف غريزى تجاه أى شعب يحاول التخلص منه.

والواقع أن بعض بديهيات الحكومة البريطانية كانت إمبريالية تمامًا. فعلى سبيل الرد على التأميم الذى قام به ناصر، بذلت الحكومتان البريطانية والفرنسية ما فى جهدهما لإيقاف المرور عبر القناة بسحب المرشدين البريطانيين والفرنسيين، والذين كان لا بد لكل سفينة أن يكون بها واحد منهم. ويعلق كوريللى بارنت: «كان اعتقادهم المتغطرس بأن هذا سوف يُظهر للعالم أن المصريين المتخلفين لن يمكنهم إدارة الشركة التى أمموها. وكان من دواعى الغم والكدر بالنسبة للفرنسيين والبريطانيين أن قام المصريون ببساطة بتوظيف مرشدين من جنسيات أخرى؛ لكى يحلوا محل مرشديهم، وظلت البواخر التجارية وناقلات البترول تبحر كالمعتاد».

هكذا كان القرار قد اتخذ للاستيلاء على القناة مجدداً بالقوة فى خدعة مركبة للتدخل دفاعًا عن الأملاك الدولية ضد الإسرائيليين (الذين كان البريطانيون والفرنسيون يشجعونهم سرّاً لمهاجمة مصر؛ لكى تكون هناك ذريعة للعمل العسكرى)، وبمثل هذه المناورة افترضت بريطانيا أن بوسعها أن تتصرف مستقلة عن أمريكا، بيد أنها لم تستطع؛ إذ كان أحد آثار الحرب العالمية هو تحويل جزء كبير من احتياطى النقد البريطانى إلى ديون مملوكة للولايات المتحدة، وحتى بعد عشر سنوات، كان الاقتصاد البريطانى ما يزال بحاجة إلى دعم ومساندة. ولم يكن ممكنًا تصحيح تدهور الجنيه الاسترلينى فى أسواق النقد العالمية بجهد بريطانيا وحدها، كما أنها لم تكن تملك الاحتياطيات اللازمة لذلك. واعتمدت على المساعدة الأمريكية، والتى لم تكن وشيكة فى تلك المناسبة، وعلى نحو ما أوضح الرئيس دوايت أيزنهاور بطريقة هشة: «ما لم يكن هناك وقف لإطلاق النار، لن تكون هناك قروض» (كان يشير إلى طلب بريطانى بالسحب بضمان ميزانيتها العالمية المالية لكى يدعم أسواق العملة، وهو طلب اعترضت عليه أمريكا). وقد أعلن أسبابه فى خطاب مذاع أوضح فيه قناعته بأن ما وراء هذا النزاع هو النزعة الاستعمارية على الطراز القديم - وهى نزعة بريطانية فى المحل الأول. وقد اشتكى من أن الولايات المتحدة لم تُستشر حول النية بشن هجوم مسلح على مصر، وهو أمر لم يمثل صدمة كما قد يبدو، إذا ما أخذنا فى الحسبان أن الولايات المتحدة قد شنت الحرب على كوريا سنة ١٩٥٠م، دون أن تتشاور مع بريطانيا. وواصل حديثه:

«ومثلما هو حق واضح لأىّ من هذه الأمم فى اتخاذ مثل هذه القرارات والتصرفات، فمن حقنا كذلك - إذا ما كان تقديرنا على ذلك علينا - ألا نوافق. إننا نعتقد أن هذه الأعمال قد جرت خطأ؛ لأننا لا نقبل استخدام القوة كأداة حكيمة أو مناسبة لإقرارات النزاعات الدولية. . . إن التصرف الذى تم لا يمكن أن يتوافق مع مبادئ وأغراض الأمم المتحدة التى وافقنا جميعًا عليها. وفوق هذا، فإننا مجبرون على الشك فى أن اللجوء إلى القوة والحرب سوف يخدم لفترة طويلة المصالح الدائمة للدول المهاجمة».

كان الرئيس أيزنهاور رجلاً براجماتيًا، بيد أن أزمة السويس كشفت أنه كان مقتنعًا بعمق بالدور الأخلاقي الفريد لأمريكا في شئون العالم؛ إذ إن حليفتها القديمة في الحرب العالمية الثانية التي حاربت إلى جانبها على أساس المساواة والتي قاد جنودها بنفسه في غزو نورماندي، لم تعد ندًا ولكنها الآن شريك أصغر. وكانت لديه الوسيلة لفرض إرادته ـ والآن معه الرب إلى جانبه. وفي ذلك الصيف كان قد أعلن «نحن نثق في الرب» لتكون الشعار الوطني للولايات المتحدة.

وفي بريطانيا سنة ١٩٥٦م لم تكن كلمة «الاستعمار» كلمة قذرة. ولكن هجران أمريكا لأقرب حليف (كما بدا في لندن) كان ضربة قاسية للهيبة القومية. ويبدو أن الحقيقة هي أن أيزنهاور ووزارة الخارجية في واشنطن قد أصبحا متضايقين بشكل متزايد من التظاهر البريطاني بالندية مع أمريكا، وهو ما كان يمثل ببساطة عقبة في سبيل حرية أمريكا في التصرف «من أجل حماية حرية العالم بأسره» (بحسب صياغة وزارة الخارجية).

وحدث أثناء تلك الفترة أن تحول التفكير البريطاني في أمريكا من «الندية» مع أمريكا كقوة عالمية أخرى، إلى «العلاقة الخاصة» بين قوة صغرى وقوة عظمى. وبعد أزمة في العلاقة سنة ١٩٥٦م وما تلاها من استقالة إيدن رئيس الوزراء، كان على خليفته، هارولد ماكميلان، أن يحاول إصلاح الأمور. وكانت استراتيجية بسيطة: أن يتفق مع أمريكا على أن أيام الاستعمار قد ولّت إلى غير رجعة.

وكانت مستعمرتان بريطانيتان قد حصلتا على الاستقلال بالفعل ـ هما غانا والملايو (ماليزيا) في الشرق الأقصى ـ وكانت نيچيريا على الطريق، ولكن كانت هناك مشكلات خطيرة في أماكن أخرى، ليس أقلها ما حدث حينما تصادمت مصالح المستوطنين البيض مع المطالب النضالية المتزايدة للسياسيين الوطنيين الأفريقيين في وسط وجنوب أفريقيا. وفي سنة ١٩٥٩م قدم الچنرال ديجول حق تقرير المصير للجزائريين؛ مما جلب المخاطرة بنشوب حرب أهلية في أراضي فرنسا ذاتها وفي ممتلكاتها الأفريقية.

ولهذا كانت هذه الأحداث إنذارًا للإمبراطورية البريطانية. وذهب ماكميلان في

جولة إلى أفريقيا فى بداية سنة ١٩٦٠م، وهى التى انتهت بخطابه الشهير عن «رياح التغيير» فى برلمان جنوب أفريقيا. وكانت جولته فرصة ممتازة لمراقبة المدى الذى ذهب إليه البريطانيون الذين عينوا أنفسهم فى مهمة لتمدين أفريقيا، منذ وجود مفهومها فى أيام وليام ويلبرفورس وبعد ذلك فى أيام ديڤيد ليڤينجستون. وكانت دعوة ليڤينجستون المتطوعين البيض للذهاب إلى أفريقيا وتجديد اقتصادها على حسب الخطوط الحديثة - وكان فى ذهنه أن ذلك هو الرد الحقيقى الوحيد على الرق - قد نتج عنها جمهرة كبيرة من المغتربين فى معظم أنحاء المستعمرات فى وسط وجنوب أفريقيا. وكانت بعض البلاد قد أحرزت تقدمًا فى بناء طبقة سياسية، تضم جيلاً جديدًا من الموظفين المدنيين والمحامين السود، وكانت بعض البلاد الأخرى متخلفة عن ذلك كثيرًا. وقد طال الفقر عددًا قليلاً من البيض فى هذه العملية، وكانت هناك ثروة ورفاهية فى انتظار من يتملكها فى المستعمرات.

وفى كل مكان رفرف عليه علم الاتحاد، كانت الكنائس البريطانية قد وزعت بعثاتها التبشيرية التى صارت مع الوقت أساس المدارس والكليات والمستشفيات. وعادة ما لم تكن كنيسة انجلترا حاضرة بذاتها، ولكن من خلال واحدة أو الأخرى من الهيئتين التبشيريتين الرئيسيتين، الجمعية الإرسالية الكنسية Church Missionory Society (CMS) التى كانت كنيسة سُفلى (أى إنجيلية)، والجمعية المتحدة لنشر الإنجيل (USPG) والتى كانت هى الكنيسة العليا (أى الأنجلوكاثوليكية)، وكان مقر كل منهما الرئيسى فى انجلترا. بيد أنهما لم تتنافسا بصفة عامة. وبدلاً من أن يكون لديهم نوعيات مختلفة لعضوية الهيئة الكنسية جنبًا إلى جنب كما هو حادث فى الوطن الأم، تطورت الكنيسة الأنجليكانية فى كل جزء من القارة تحت راية واحدة فقط من هاتين الهيئتين. فالكنيسة الأنجليكانية فى كينيا، مثلاً، صارت تقريبًا كنيسة إنجيلية (أى بروتستانتية) متسقة؛ لأنها كانت تحت إرسالية (CMS)، على حين كانت جنوب أفريقيا قد خضعت لإرسالية (USPG)، ولهذا كانت الإنجيلية هناك كنيسة عليا (أى أنجلو كاثوليكية). ويفسر هذا جزئيًا السبب فى أن نضال السود من أجل الحرية فى جنوب أفريقيا، على

الرغم من أنه كان يلقى دعمًا قويًا من الكنائس الناطقة بالإنجليزية، لم يكن مصحوبًا بالتنميط على أساس الكتاب المقدس حول «موسى يقود الشعب المختار للخروج من نير عبودية فرعون» (وكان يمكن أن يكون موسى هو نيلسون مانديلا، على ما يرجح)، كما سيكون عليه الحال بلا شك إذا ما كان الوجود المسيحى السائد أكثر بروتستانتية.

وفى معظم المستعمرات كانت هناك أيضًا كنيسة اسكتلندا الأصغر والبعثات الميثودية والمعمودية، وفى كل الكنائس وجد الأنجليكانيون وغيرهم من تنويعات البروتستانت أنفسهم أقل عددًا من الكاثوليك الرومان، الذين تركزت جهودهم الرئيسية على التعليم. ولذلك كانت الرؤية الباكرة للإرساليات الرائدة قد تحققت إلى درجة كبيرة عندما كانت أفريقيا تدريجيًا تصطبغ بالصبغة الغربية والمسيحية. وفى معظم الحالات كانت الحماية التى وفرتها السلطة الاستعمارية الأوروبية عملاً مهمًا، وفى الوقت نفسه، على نحو ما ظهر أنه النموذج العالمى مع الاستعمار الأوروبى، كان لا بد من أن تكون مثالية المهندسين والمحامين والأطباء ورجال الكنيسة البيض تعويضًا عن أنانية وغطرسة بعض المستوطنين البيض والمزارعين البيض واستغلال الموارد المحلية لصالح المطامع التعدينية الغربية. وكانت المواقف المعبرة عن التفوق العنصرى واسعة الانتشار، التى اختلطت بالتعالى الإنجليزى (والذى تقوى، دون شك، عندما كان أبناء الأسر البيضاء الغنية يرسلون إلى المدارس العامة الإنجليزية لاستكمال تعليمهم).

وخلال رحلة قام ماكميلان إلى نيجيريا، فى بداية جولته، قام بإجراء محادثات مع السير چيمس روبرتسون، الحاكم العام البريطانى، وهى محادثات غالبًا ما كانت تتم الإشارة إليها فى فترة لاحقة، وهى دالة جدًا، سواء عن حالة أفريقيا فى ذلك الوقت، أو من حيث ما كشفته عن المواقف الأبوية والتسلطية للطبقة الحاكمة الإنجليزية. وعلى حد تعبيره بكلماته:

بعد حضور اجتماع ما لما يسمى الوزارة أو المجلس، قلت: «هل هؤلاء الناس يصلحون للحكم الذاتى؟» وقال: «لا، طبعًا»، وقلت: «متى سيكونون جاهزين؟»

وقال: «بعد عشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة»، فقلت حينئذ: «ماذا توصينى بعمله؟» قال: «أوصيك أن تعطيهم الحكم فى الحال».

وتعبيرات مثل «ما يسمى» و«هؤلاء الناس» و«يصلحون لـ» وصيغة النفى المؤكدة «لا، طبعًا، لا يصلحون»، كلها مؤشر على التفوق الإنجليزى وازدراء الأفريقيين المحليين الذى كان علامة دافعة لأسلوب ماكميلان، وربما لأسلوب الحاكم العام أيضًا، وهى أيضًا دليل على استمرار النزعة التسلطية الاستعمارية، أى أن البيض كانوا هم البالغين الناضجين، أما الأفريقيون فهم الأطفال. ومع هذا فإنها تكشف عن أن الإحساس بالغرض الأخلاقى وراء الاستعمار البريطانى كان ما يزال حيًا بدرجة كبيرة للغاية. وقد قال روبرتسون إن «على البريطانيين مسئوليات»، وهو يفسر إجابته غير المتوقعة بالقول بأنه إذا تأجل الحكم الذاتى، فإن الزعماء الأفارقة سوف يمضون العقد أو العقدين التاليين وهم يحاربون من أجل الاستقلال، وليس فى تعلم فن الحكم، و«سيكون علىَّ أن أضعهم جميعًا فى السجن» وهو ما تصور أنه كان سيؤدى إلى عدم تحقيق أى خير لهم. ولكن إسداء الخير للأفارقة كان هو السبب الرئيسى لوجود البريطانيين هناك.

والمهمة الضمنية للبريطانيين لتمدين العالم والتى كانت قائمة عند بداية الإمبراطورية البريطانية الثانية كانت ما تزال تؤخذ أمرًا مسلمًا عند نهاية هذه الإمبراطورية. وكانت تلك مهمة أمر بها الرب، وهو ما كان عدد قليل من جيل ماكميلان يشك فيه.

وفى جنوب أفريقيا قابل مهمة مختلفة جدًا، أمر بها الرب، وأخبره بها رئيس الوزراء فيرويرد. فبالنسبة له، وحسبما لاحظ ماكميلان فيما بعد، كان «الفصل العنصرى أكثر من فلسفة سياسية، لقد كان ديانة، ديانة تقوم على أساس العهد القديم أكثر من العهد الجديد... وكان يمتلك كل قوة الإقناع التى يتمتع بها الزعماء الكالفينيون الكبار فى كنيستنا الاسكتلندية».

كان قلب حديثه هو النتيجة الختامية التى توصل إليها، والتى قال إنها كانت قائمة على أساس تجربته فى جولته، ولكن لا بد أنها كانت فى ذهنه عندما انطلق

فى هذه الجولة، وهى أن «رياح التغيير تهب فى أرجاء هذه القارة، وسواء أعجبنا هذا أم لا، فإن هذا النمو فى الوعى القومى حقيقة سياسية. يجب علينا جميعًا أن نتقبلها كحقيقة، ولا بد أن تضعها سياساتنا الوطنية فى حسابنا». وكانت رسالته إلى جنوب أفريقيا هى أنه بينما كانت الحضارة الإنجليزية، مثل حضارتهم، قائمة على أساس المسيحية «فإن ذلك ينبغى فى رأينا أن يتضمن الفرصة لأن يكون لنا نصيب متزايد فى السلطة السياسية والمسئولية السياسية، مجتمع تكون فيه الجدارة الفردية، والجدارة الفردية وحدها، هى المعيار لتقدم أى رجل، سواء كان سياسيًا أو اقتصاديًا...».

ولهذا مضت بريطانيا بسياسة منتظمة فى تخليص نفسها سلميًا من مستعمراتها فى أفريقيا، ولكن مع التخلى فقط عن تلك المستعمرات التى لا تخدم غرضًا استراتيجيًا فى غيرها من الأماكن. وكان الاختلاف الوحيد فى الممارسة هو اضطرارها إلى الخروج من مواقع مفيدة، مثل قبرص وعدن، بالقوة. ولكن خطبة «رياح التغيير» التى ألقاها ماكميلان سنة ١٩٦٠م كانت هى اللحظة الحاسمة التى عندها تخلى البريطانيون عن فكرة الإمبراطورية، وبدلاً من ذلك تحولوا إلى تطوير فكرة الارتباط الطوعى للدول المستقلة فى الكومونولث (الكومونولث البريطانى فى البداية)، ولكن لم تلبث الصفة أن أسقطت.

وقد تسارعت رحلته تجاه هذا الوضع؛ بسبب حوادث مثل ما يسمى «مذبحة الهولا» سنة ١٩٥٩م، على اسم معسكر اعتقال فى كينيا لجماعة ماو ـ ماو الإرهابية. فبعد حادث شغب تم ضرب أحد عشر منهم حتى الموت. وكان رد فعل الإدارة الاستعمارية البيضاء مشابهًا إلى حد كبير لرد فعل البريطانيين فى الهند بعد «مذبحة أرميستار» سنة ١٩١٩م، مع تظاهر يتسم بالتحدى بأنه لم يحدث شىء ذو بال. ومع هذا فإنه أدى إلى انشقاق الوزارة البريطانية فى سنة الانتخابات، وهو ما كان يمكن أن يكون تحولاً خطيرًا فى الأحداث بالنسبة لماكميلان. ولكن بينما كان الرأى البريطانى فى بريطانيا غاضبًا، فإن العامة فى غالبهم لم يكونوا على هذا القدر من الاستياء. فقد كان الرأى العام فى بريطانيا عنصريًا بشكل صريح، وكان ثمة «حاجز

لونى» يتم ممارسته على نطاق واسع فى الإسكان وفى التوظيف. وكانت لافتات «لا سود ولا أيرلنديين» لافتات شائعة الانتشار فى مداخل المنازل العامة وفى كل مكان غيرها.

وإذ لم يكن ماكميلان يريد أن يزعج الشعور البريطانى العام بالرضى عن النفس، فقد أبدى ملاحظة شهيرة «أنه لم يحدث أبدًا أن كانت الأمور عندهم طيبة بهذا القدر». وصوّت البريطانيون للحفاظ على الأمور بهذه الطريقة، وقد شهدت هذه السنة أيضًا أعلى مستوى من الحضور فى الصلاة الأسبوعية بكنيسة انجلترا منذ نهاية الحرب، فما كان خيرًا بالنسبة للجسد الوطنى كان واضحًا أنه كان خيرًا أيضًا للروح الوطنية.

وفى الفترة ما بين التتويج فى سنة ١٩٥٣م وقول ماكميلان: «لم يحدث أبدًا أن كانت الأمور عندهم بهذا القدر»، فى انتخابات سنة ١٩٥٩م كان المزاج الدينى الوطنى - على الأقل - معجبًا بنفسه. إذ لم يكن مسموحًا سوى للقليل بأن يتحدى الفروض فى انجلترا الأنجليكانية والتى كان التتويج نفسه قد أوضحها، حسبما ظهر من حادث طريف وقع سنة ١٩٥٥م؛ إذ إن «ماجريت نايت»، وهى أخصائية علم نفس من جامعة أبردين، طُلب منها أن تقدم حديثين إذاعيين تحت عنوان عام هو «الأخلاق بدون الدين»، وأرادت أن تعبّر عن عدم موافقتها على منشور وزعته وزارة التعليم بأن «السياق الطبيعى» للتعليم الأخلاقى للأطفال هو فى مجرى التعاليم الدينية، وأن تقدم مشورتها للوالدين غير المؤمنين حول كيفية غرس المعايير الأخلاقية فى الأطفال خارج مثل هذا الإطار. وقد وصفت فيما بعد المشكلة التى يواجهها مثل هذين الوالدين، اللذين يُحيط بهما «التلقين المنظم للدين» فى المدارس و وسائل الإعلام الجماهيرية:

«إن الدعاية بالغة القوة لم تجعل منا أمة من المؤمنين، وإنما خلقت روادع قوية للتعبير عن عدم الإيمان. وفى بعض الحالات يكون التهديد ماليّا؛ فالمدرس، مثلاً، الذى يجاهر باللا أدرية يجد أن فرصه فى الترقية مهددة. ولكن الأكثر حذقًا من الرادع المالى هو تأثير الاقتراح الجماهيرى - هو الشعور الذى يُزرع بشكل

متواصل بأن «عدم القدرة على الإيمان» هو حالة تدعو للأسف ومحرجة قليلاً، ومن الأفضل عدم الإشارة إليها. وهكذا يشعر كثير من الشكاكين الأمناء بأنهم يخجلون ويتسترون على شكوكهم، وفى جميع أنحاء البلاد يخلق الآباء المشوشون والقلقون صراعات مماثلة للجيل التالى بتعليم أطفالهم مذاهب لا يومنون هم أنفسهم بها».

بهذه الروح أدلت بحديثها، وحدثت ضجة وطنية هائلة. وكما يحدث غالبًا عندما تحدث الحالة التى اصطلح على تسميتها «الذعر الأخلاقى» فى وسائل الإعلام وفى الرأى العام، بدأ الأمر ببطء. ففى البداية كان هناك تقرير قصير وموضوعى فى إحدى الصحف «News Chronicle»، ثم بدأت الأمور فى التورم. وقال العنوان الرئيسى لجريدة «Daily Express»: امرأة متخصصة فى علم النفس تشن هجومًا واضحًا على تعليم الدين للأطفال، وجمعت جريدة «Daily Telegraph» تقريرًا وصف حديثها بأنه «كتلة كبيرة من الدعاية الإلحادية»، ودعت إلى منع حديثها من الإذاعة ثانية. ثم نشرت جريدة «Sunday Graphic» عملية اغتيال - فى الصفحة الأولى - ذات طبيعة عنيفة خارقة للعادة. فتحت عنوان رئيسى بالصفحة الأولى يعلو صورتها التى كتب فوقها: «السيدة نايت غير المقدسة The Unholy Mrs. Kinght» أعلنت الصحيفة:

«لا تتركوا هذه المرأة تخدعكم. إنها تبدو - أليس كذلك - تمامًا مثل الزوجات فى البيوت؛ هادئة، مريحة، غير مؤذية. ولكن السيدة مارجريت نايت تمثل خطرًا. إنها امرأة خطيرة، فلا تخطئوا بشأنها. . . لقد سمحت الإذاعة البريطانية (BBC) المضللة لواحدة متعصبة أن تصخب على موجات الإذاعة بحيث تضرب المسيحية بموس حلاقة وسلسلة دراجة [كما يفعل البلطجية فى الحارات]. دعونا نكف عن الاستماع إلى المزيد من كلامها الفارغ وهرائها. ومن المقرر أن تدلى بحديث يوم الأربعاء القادم. ويجب أن تفرغه الإذاعة فى الحوض.

ولا يمكن إنكار أن السيدة نايت استخدمت ذريعة الحديث عن التعليم الأخلاقى؛ لكى تشن هجومًا على المعتقدات المسيحية الأساسية، وهو ما فعلته

فى مصطلحات لا يمكن التصالح معها . وإذا كانت تتعامل مع الشكاكين ، فقد بدا أن هدفها هو أن تحولهم إلى ملحدين مؤكدين ، ولكن الأمر كان أيضًا فى توقيت غريب ، دعك من القول إنه توقيت أحمق للجدل ، فلكى تعلم طفلاً أن الأخلاق تعتمد على المسيحية يولد خطرًا أنه ربما يرفض المسيحية من أجل الشيوعية ، كما قالت فى حديثها . «وربما يقرر كذلك أن هذا كله كان مجرد ثرثرة فارغة مثل كلام الزوجات المسنات ، وهو الآن لا يعرف أين هو . وفى هذه المرحلة يمكن أن يكون عرضة للدعاية للشيوعية بأكبر درجة . . . وبدلاً من أن يكون هذا حماية ضد الشيوعية ، يمكن أن يساعد ربط الأخلاق بالدين على أن يسوق الناس إلى أحضانها» .

وفى البداية جاء رد فعل الكنيسة على منوال الصحافة ، وكان ساخطًا بنفس القدر ، ولم يكن هناك من هو أكثر سخطًا من كبير أساقفة كانتربورى الدكتور جيوفرى فيشر . ولكن حسبما اعترفت هى نفسها فيما بعد ، بدأت فضيلة التسامح الإنجليزية القديمة تظهر على السطح . وكان واحدًا من أكثر التعليقات لصالحها جاء من جريدة «Church Of England News Paper» البطل الجسور للإنجيلية الأنجليكانية :

«إذا كانت العقيدة المسيحية لا تستطيع الإجابة على شخص مثل السيدة نايت بالإساءة الشخصية ولا تستطيع أن تجد إجابة مفحمة ، فإنها تستحق الفشل وسوف تختفى فى الحقيقة ، واقتراح أن الإذاعة البريطانية (BBC) أخطأت فى السماح للسيدة نايت بالإذاعة يستخدم فقط بأيدى نقاد المسيحية بما يعنى ضمنًا أن الكنيسة منفعة خاصة لها قوة الرقابة . . . وأولئك الذى يشاطرون السيدة نايت شكوكها بشأن المسيحية ربما يفوقون فى عددهم أولئك الذين لا تساورهم الشكوك فى بريطانيا فى الوقت الحالى ، ومن بينهم عدد كبير من مواطنينا الذين يتمتعون بقدر عالٍ من الاحترام والمسئولية» .

والرسالة المهيمنة من العدد الكبير من الخطابات الموافقة التى تلقتها كان مؤداها أنها قد أدخلت هواء جديدًا فى الثقافة الوطنية لأول مرة ، وبشكل أساسى

قال الناس إنهم شعروا بأنهم تحرروا، وكان بعضهم منتشيًا بالفرح. وثمة إشارة أخرى إلى المستقبل جاءت من خطابات المدرسين، لا سيما الرؤساء الذين كان عليهم تنظيم اجتماعات دينية وأولئك الذين كان عليهم تدريس التعاليم الدينية (كما كان مطلوبًا من المدارس أن تفعل بحكم القانون) سواء كانوا يؤمنون بهذا أم لا: وكان الدين في خمسينيات القرن العشرين، ذروة فترة ما بعد الحرب لـ «المسيحية الرسمية» في انجلترا، يتضمن أيضًا بشكل واضح بذور دماره. وربما كان إدراك مدى هشاشة الدين هو الذي زاد من الهيستيريا من جانب الصحافة. ولكن الكنيسة، مثل الملكية، كانت حتى ذلك الحين قادرة على أن تعتمد على مناخ من التبجيل غير الناقد، وكان نخسها بالنقد الصريح يعني كسر أحد المحرمات الوطنية.

وسرعان ما تحول الانتباه إلى خطط زواج الأميرة مارجريت، التي كانت قد سببت لأختها الملكة، بل وبدرجة أكبر لكبير أساقفة كانتربوري، نذيرًا عنيفًا بالتهديد بالزواج من رجل مُطلّق، الكابتن بيتر تاونسند. ولم يكلمها كبير الأساقفة في العدول عن ذلك فقط، بل إنه أيضًا رتب لاجتماع الكنيسة، ثم لهيئة كنيسة انجلترا النظامية؛ لكي يمرر مرسوم استدعاء سنة ١٩٥٧م يحرّم زواج المطلّقين في الكنيسة. وقد أعاد هذا تأكيد قرارات سابقة - خاصة قرار الكنيسة الذي تم تمريره بعد تنازل إدوارد الثامن سنة ١٩٣٦م - بإعلان أن: «في سبيل الحفاظ على مبدأ الالتزام مدى الحياة الذي يدخل ضمن كل زواج عقد بصورة مشروعة وتم التعبير عنه في أوضح عبارة في طقوس الزواج الكنَسية، فإن الكنيسة لا يجب أن تسمح باستخدام تلك الخدمة الكنسية في حالة أي شخص كان له شريك في الزواج ما يزال على قيد الحياة». ولم يكن هناك شك في أن كبير الأساقفة فيشر كان يريد أن يقطع اتجاهًا اجتماعيًا متناميًا يحبذ قوانين الطلاق الأكثر تحررًا. وفي ذلك الوقت، اعتبرت الدولة الزواج، شأنًا خاصًا بالكنيسة، ولم تكن لتأتي أية حركة دون موافقة الكنيسة. كان فيشر يوضح أن مثل هذه الموافقة لن تأتي.

وحدث مثل هذا الاستحسان الشديد مرة أخرى سنة ١٩٦٠م، عندما قررت دار

بنجوين للنشر، وعلى الرغم من الادعاءات القضائية حديثة العهد التى نتج عنها حكم بالسجن على بائع كتب، أن تنشر طبعة لم تخضع للرقابة من رواية «عشيق الليدى شاترلى ـLady Chatterleys Lover» . كانت الرواية سيئة السمعة التى كتبها د. هـ. لورنس تتضمن، فضلاً عن وصفها لممارسة الجنس، كلمة دارجة ذات حروف أربعة (هى كلمة Fuck التى وردت ما لا يقل عن ثلاثين مرة فى صفحات الرواية) وهى أكبر إساءة.

وقد أيدت المؤسسة، بما فيها كبير أساقفة انجلترا، الادّعاء بقوة، كما أن سير ريجينالدماننجهام ـ بوللر، المحامى العام، منح تشجيعه الأخلاقى والمعنوى من خلف الكواليس. وفى فقرة تم إيرادها كثيراً ضده فيما بعد، قام المدعى العام ميرڤين جريفيث چونز بتوجيه كلامه إلى المحلفين «اسألوا أنفسكم هذا السؤال: هل توافقون على أن أبناءكم الشباب، وبناتكم الشابات ـ لأن البنات يمكن أن تقرأ مثل الأولاد تمامًا ـ يقرأون هذا الكتاب؟ هل هو كتاب يمكنكم اقتناؤه فى المنزل؟ هل هو كتاب تريد لزوجتك أو خادمتك أن تقرأه؟

وقد سُمح للدفاع باستدعاء خبراء أدبيين ودينيين؛ لكى يبينوا أن فى الكتاب أوجه جدارة تفوق البذاءة الواضحة، وإن كانت سطحية، وبرّأه المحلفون بالإجماع. وشكا كبير الأساقفة فيشر من أن الادّعاء لم يكن صلبًا بما فيه الكفاية وكان عليه أن يقارع «أستاذًا بأستاذ وأسقفًا بأسقف» فى استدعاء الخبراء للشهادة. والسبب فى أن حذف الكلمة التى تبدأ بحرف«F» من مفردات اللغة الإنجليزية كان يحظى بهذه الأولوية القصوى بالنسبة لكنيسة انجلترا، يمكن تفسيره فقط إذا ما كانت الكنيسة المؤسسة تشعر بأنها مسئولة عن مجمل النغمة الأخلاقية فى البلاد، وليست فقط مسئولة عن المعتقدات الدينية لأعضائها. والحقيقة أن عقلية فيشر السهلة والطبيعية كانت تجرى وفق هذه الخطوط بالضبط؛ إذ كانت الكنيسة والدولة هما الجانبين الروحى والزمنى لنفس الكيان الوطنى الإنجليزى (وكلمة «روحى» فى هذا السياق كانت تعنى «أخلاقيّا» إلى حد كبير).

كانت محاكمة رواية «عشيق الليدى شاترلى» علامة فارقة، ليس لمجرد أنها

جرت في سنة ١٩٦٠م الرمزية ـ بداية ثورة الستينيات في الأسلوب والسلوك التي أزاحت الكثير من المحرمات، التي أضفت على سنوات ما بعد الحرب مثل هذه الشخصية الخانقة.

وكان سيبدو كما لو أن شخصية بريطانيا كأمة مسيحية قد بدأت تتعثر. وكانت الصدمة الثانية للنظام الأنجليكاني هي نشر كتاب «Honest To God» سنة ١٩٦٣م الذي كتبه أسقف وولويتسن، الدكتور چون روبنسون. فقد كان قد قدم الدليل للدفاع في محاكمة رواية «عشيق الليدي شاترلي»، وبدا الآن وكأنه ينشر الشكوك حول حقيقة المسيحية. وثمة ملخص متقدم في جريدة «The Observer» أعد المشهد بعنوان رئيسي: «أسقف يقول إن الرب هناك في الأعالي أو هناك في الخارج يجب أن يذهب».

كان فيشر في ذاك الحين قد تقاعد من كانتربوري، ولكن خليفته ميخائيل رامزي، لم يكن أقل حرصًا على دخول الشجار بالاستنكار والإدانة. وقال إنه «حزن بشكل خاص من جراء المنهج الذي اختاره الأسقف لطرح أفكاره على العامة» وهو «ما سبب إثارة العامة وسبب ضررًا كثيرًا. وكثير منا ممن قرأوا المقالة ونداءاتها ربما لم تكن لديهم الفرصة أو العقول اللازمة لقراءة الكتاب الذي تشير إليه». وكان كتاب روبنسون مسحًا لبعض اللاهوت البروتستانتي المتحرر المكتوب باللغة الألمانية بأقلام باحثين من أمثال رودلف بولتمان، وبول تلليخ، وديتريخ بونهويفر (الذين أعدمهم النازي).

فقد انطلقوا، وكذلك فعل هو، لتحديث ما رأوا أنه مفاهيم خاطئة بدائية وطفولية عن المسيحية شائعة بين العامة. ومن الواضح أن رامزي كان يخشى من أنه بدلاً من تحويل هذه الأفكار إلى شيء أكثر عقلانية، وبالتالي أكثر قدرة على الوقوف بوجه روح الشك السائدة في ذلك العصر، فإن الناس سوف يستنتجون ببساطة أن المسيحية «ليست ديانة حقة بالمرة». ومثل هذه التأملات كان من الأفضل أن تنحصر في نطاق مجالس العموم الراقية؛ حيث تعرف أفضل العقول كيف تتعامل معها. وكانت تلك مقاربة لا تختلف كثيرًا

عن خط الادّعاء فى محاكمة رواية «عشيق الليدى شترلى» : «هل هذا كتاب تود أن تقرأه زوجتك أو خدمك؟» كان كبير الأساقفة رامزى محقًا فى جانب واحد؛ إذ كانت بعض الأفكار التى طُرحت فى كتاب روبنسون الذى لم يكن مكتوبًا بصورة جيدة، مجردة بشكل يربك العقل، وأظهرت كافة دلائل أنها قد ترجمت حرفيًا وبصورة خرقاء عن الكلمات الألمانية المركبة متعددة المقاطع.

ومن الناحية الفلسفية كانت البروتستانتية الليبرالية تبدو وكأنها تتلمس طريقها عائدة إلى نوع ما من الغيبيات، بعد أن كانت قد أدارت ظهرها لتلك المدرسة فى اللاهوت فى زمن الإصلاح الدينى. وفى داخل الآفاق الفكرية للمحررين الصغار فى جرائد التابلويد، ظهر روبنسون وكأنه يقول: إن الرب غير موجود وأن يسوع ليس ابنه. وإذا كان ذلك هو ما سُمع يقوله، فإن قادة كنيسة انجلترا شعروا أن من واجبهم أن يوقفوه. ولا شك فى أن ما جعل المشاجرة صاخبة هو حقيقة أن هذا بدا وكأنه هجوم على ديانة المؤسسة الحاكمة، من الملكة إلى أصغر موظف، ومن ثم كان من الناحية السياسية والاجتماعية مخربًا وهدّامًا بقدر ما كان كذلك من الناحية الدينية. وإذا كان ما يزال هناك اعتقاد قوى باق فى أن انجلترا هى «الشعب المختار»، فإن أى اقتراح إذن بأنه ليس هناك رب، أو على الأقل لا يوجد رب مثل ذلك الذى تتطلبه نظرية الشعب المختار، سيكون تهديدًا خطيرًا للهوية الوطنية، وكان رد فعل المؤسسة بالتالى يثبت هذه النقطة. ومن المثير للسخرية أن قصد روبنسون الحقيقى لم يكن إضعاف الإيمان الدينى وإنما تقويته؛ إذ إنه شعر أن المسيحية لم تكن تُقدّم بطريقة يمكن أن يستجيب لها الأذكياء من الناس. إذ كان يشارك ناقديه فى الرأى بأن المجتمع السليم يحتاج إلى المسيحية لكى تجعله يعمل.

وقد أرسى كتاب «Honest To God» بوضوح مدى ما كان عليه معظم أعضاء الكنيسة من جهل باللاهوت؛ إذ إن هذه المسائل، وليس أقلها رفض المعجزات وغيرها من العناصر الغيبية فى الدين، كانت مطروحة فى مجال الاهتمام العام منذ زمن چورچ إليوت على الأقل، إذا لم تكن مطروحة منذ زمن الربانيين «Deists» .

ومن ثم فإن ارتباك العامة منذ ذلك الحين كان ينبغى أن يكون علامة تحذير على نقص العمق فى الاعتقاد الدينى الإنجليزى العادى، والذى كان موجوداً حتى فى قلب أعضاء الكنيسة. ومن الواضح أن الغالبية العظمى من الكبار كانت لديهم أفكار عن المسيحية لم تتقدم منذ أيام المدرسة الابتدائية، وقد وضع هذا علامة استفهام ضخمة ضد استثمار الكنيسة فى التعليم الدينى، فقد كانوا قادرين على أن يأخذوا أفكار روبنسون، دون أن يوافقوا عليها بالضرورة، لصالحهم، بدلاً من أن يحولوها إلى فضيحة. لقد تم إرسال هذه الإشارة، لكن أحداً لم ينتبه إليها. والجهل الدينى بين مرتادى الكنيسة العاديين قد خلق إمكانية التعرض للضغوط الثقافية وأنماطًا فكرية، إذا لم تتم معالجتها، سيكون لها نتائج وخيمة فى العقود القادمة.

وتشترك هذه القصص فى شىء واحد؛ ذلك أنها أوضحت كيف أن القوى التى يراد لها أن تتحكم فى الكيفية التى يتصرف بها الناس ويفكرون، مهتمة بالدرجة الأولى بالزواج والعلاقات الجنسية، ويأتى اهتمامها بالعقيدة الدينية فى المرتبة الثانية. لقد كانت نظرية تساقط بطىء عن الدين والأخلاق، كانت بها أصداء قوية من الافتراض الذى ساد فى القرن السادس عشر بأنه عندما يحبذ الملك الطلاق، فعلى كل من عداه أن يحبذ الطلاق، وعندما يتغير دين الملك، فعلى كل واحد سواه أن يغيّر دينه أيضًا.

لقد شهدت الفترة منذ خمسينيات القرن العشرين صعوداً تدريجيًا للأفكار المعارضة، أى أن الناس العاديين كانت تزداد مقاومتهم لأن تكون معتقداتهم ومستوياتهم الأخلاقية محددة لهم من أولئك الذين فوقهم فى السلم الاجتماعى والسياسى. كان هذا ـ جزئيًا ـ رفضًا للطبقة الاجتماعية والمفهوم الفيكتورى القديم عن «التنشئة»، وعدم ترحيب بالاعتراف بعد ذلك بأن أولئك الأعلى فى المنظومة الاجتماعية أفضل على نحو ما أخلاقيًا من أولئك الذين فى الطبقات الأدنى، كما كان ـ فى الحقيقة ـ رفضًا حتى للتفكير فى لغة الطبقات «الأدنى» و«الأعلى». بيد أنه كان أيضًا ـ جزئيًا ـ رفضًا لمكانة انجلترا كشعب مختار، وكل ما كان مسلمًا به نتيجة لتلك الفكرة على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون. وفى الظاهر، كانت الفكرة قد

اختفت منذ زمن طويل تحت السطح . أما من الناحية الضمنية فإنها استمرت فى المساعدة على تشكيل مفهوم الشعب الإنجليزى عن مكانهم الخاص الصحيح فى العالم حتى اليوم الحالى . ولكنها كانت تتضاءل على الدوام بمرور السنين ، وهذا الاضمحلال فى فكرة الاختيار يطرح مشكلات ضخمة حول هوية الأمة الإنجليزية ومصيرها . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فما هو ؟ إذ إن كونها «أفضل أصدقاء أمريكا» لا يكفى .

ربما كانت تلك غلطة هارولد ماكميلان. فبعد أزمة السويس، رأى بوضوح إلى أين انتقل رداء الاختيار. وعلى الرغم من أن العبارة كانت موجودة من قبل فإن إسهامه فى مستقبل البريطانيين على المدى البعيد تمثل فى رفع مصطلح «العلاقة الخاصة» تقريبًا إلى مستوى التعريف الوطنى البديل. وإذا لم يكن بمقدور بريطانيا أن تكون أقوى قوة فى العالم، فإنها يمكن على الأقل أن تكون أقرب حلفائها. وما تزال أمريكا تبدو فى مظهر الشعب المختار، وتؤمن فى قرارة نفسها أنها كذلك، حتى ولو أن المفهوم عادة ما يتوارى فى ظل شعارات عاطفية مثل «بلاد الرب» أو التعبيرات الفكرية الرقيقة مثل «الاستثنائية الأمريكية». كان هناك (وما يزال) فريق من السياسيين الأمريكيين الذين يمثلون التيار العام لا يرون أبدًا أى سبب للشك فى أعمال أمتهم التى يرعاها الرب، أو للتساؤل حول الرؤية القائلة بأن الأمة لها «قدرها الواضح» فى جعل بقية العالم مثل أمريكا بقدر الإمكان، كما أنهم لا يتساءلون عن أن العناية الإلهية هى التى تحركهم إلى الأمام.

وربط هذه العقيدة فى أمريكا بالمسيحية كان أوضح بكثير فى الجانب الجمهورى ، على الرغم من أن بعض الديموقراطيين مثل الرئيس چيمى كارتر يشاطرونهم ذلك . ومجموعات المهاجرين الذين وصلوا منذ الحرب الأهلية ، والذين كانت لهم خلفيات غير الأنجلوسكسون ، وديانات أخرى غير البروتستانتية ، اكتشفوا أن الارتباط بهذه الأيديولوچية يختلط بالولاء للعلم . وكانوا شغوفين بأن يجتازوا الاختيار . وهكذا فإن التدفق اليهودى الكبير أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، اعترف بسرعة بموضوع الشعب المختار بأنه يشبه موضوعهم ، وشعروا أنهم فى وطنهم تمامًا لهذا السبب .

وكمـا رأينا فى ثنايا هذا الكتاب، فـإن السيـاسيين الأمـريكيين المـعاصـرين، ما يزالون لا يخجلون من الكلام بـهذه المصطلحات. وقـد اقتبـسنا عن الرئيس ريجان وچورج بوش الابن هذه النـزعة، كـمـا اقـتـبـسنا أيضًـا عن العـمـدة چويليـانى فى نيـويورك. وكنا نـسـتطيع أيضًـا أن نقـتـبس عن وزيـر العـدل فى إدارة بوش، چون أشكروفت، وزعـيم الأغلبيـة فى الكونجرس هويب توم ديلاى، أو غـيرهمـا كثـير. فعلى اليسار، فإن الإيمان بالمصـير الأخلاقى الفريد لأمريكا ليس أقل رسوخًا ،على الرغم من أن التعـبير عنه لا يتم كـثيراً فى مصطلحـات دينية. وهو يتجلى، مـثلا، فى عدم ترحيب اليسار، وهو أمر يميز اليـسار واليمين الأمريكى على السواء، بالاهتمام بالانتقادات الخارجـية؛ لأنهم يعتقدون أن بقية العالم تمـثل الماضى على حين تمثل أمـريكا المسـتقـبل ؛ ومن ثم أن العـالم الجـديد ليس لديه شىء يتـعلمه من العـالم القديم.

* * *

(١٠)

أوسع وأكثر اتساعًا

يا أرض الأمل والمجد يا أم الحرية

كيف يمكن أن نبجلك، نحن الذين ولدتنا

سوف تتسع حدودك أكثر فأكثر

فالرب الذى جعلك عظيمة سوف يجعلك أكثر عظمة(*)

إن مثال الشعب المختار ليس مجرد تعبير مجازى؛ إذ إنه كان يصف كيف كان الناس يتصرفون فى الماضى، ولكنه أيضًا يوصى بكيفية ما يجب أن يكون عليه تصرفهم فى المستقبل. وقصيدة «أرض الأمل والمجد» توضح هذا المثال فى أدائه. فقد كانت القصيدة مكتوبة لتكون نشيدًا وطنيًا لانجلترا، ولا بد أنها كانت ستبدو مناسبة مثل - وربما أكثر فى أيامنا هذه - نشيد وطنى للولايات المتحدة الأمريكية؛ إذ إن تاريخ انجلترا على مدى ما يزيد على أربعة قرون، وتاريخ أمريكا على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون، هما قصة مجتمعين يعيشان تحت تأثير هذه الفكرة الهادية القوية. ولم يكن مصدرها البروتستانتية وحدها، ولكن الوطنية البروتستانتية، والرغبة فى تعريف مجتمع وطنى بأنه جاء إلى الوجود؛ لأن الرب أراد له أن يفعل ذلك؛ لأنه كان له غرض لهذا المجتمع. وإذا كان البروتستانت قد رفضوا سلطة الكنيسة فى أمور الدين، فإنهم استقوا تعاليمهم الدينية من الاتجاه

(*) كلمات إيه. سى. بنسون.

الآخر الوحيد المتاح أمامهم، صفحات النصوص المقدسة. وفيها وجدوا تاريخ الإسرائيليين القدماء الذين صاروا أمة مقدسة بإرشاد الرب، وعدّلوا تلك القصة بحيث تناسبهم. هكذا فعلت أول دولة وطنية مستقلة تمامًا فى التاريخ الحديث، وهى مملكة انجلترا تحت حكم هنرى الثامن سنة ١٥٣٥م.

وعلى مدى زمن طويل كان هذا الشكل من الوطنية البروتستانتية يُؤخذ على أنه شىء ليس أقل من المسيحية نفسها. إلا أنه مع نهاية القرن العشرين كان معظم المتحدثين باسم التيار الرئيسى فى المسيحية البروتستانتية فى كل من البلدين، قد توصلوا إلى اعتبار الوطنية البروتستانتية - كما وصفناها - انحرافًا عن نقاء الحقيقة المسيحية. وبقدر ما كان هناك أى شىء على كوكب الأرض يحظى بالاعتراف بأنه «الجيل المختار والقساوسة الملكيون، والأمة المقدسة، وشعب مخصوص» حسبما فى رسالة بطرس الأولى، فإنهم كانوا سيقولون: إنها تلك الكتلة الخفية عديمة الشكل من المؤمنين المسيحيين من جميع الجنسيات والمذاهب التى انضمت لبعضها البعض. ولكن تلك نظرة حديثة نسبيًا يرجع تاريخها بقدر كبير إلى تلك الفترة التى طورت المسيحية البروتستانتية فيها بناءات عالمية مثل مجلس الكنائس العالمى (الذى تأسس سنة ١٩٤٨م)، والطائفة الأنجليكانية (كان أول مؤتمر فى لامبث قد عُقد سنة ١٨٦٧م). وقبل ظهورهما، كان السائد عمومًا أن على كل طائفة بروتستانتية أن تكون لها جذورها فى بلادها. وكان هذا أحد الموضوعات التى ميزت البروتستانتية عن الكاثوليكية.

ويتضح من التاريخ أن الأفكار الدينية عمومًا ثابتة وأن تحولها لا يتم سوى بصورة بطيئة. فهى تتصرف مثل تيارات المحيط العميقة الخفية التى تنقل ملايين الأطنان من الماء إلى مسافات هائلة، تصل فى بعض الأحيان إلى نصف كوكب الأرض، ولا تصدر عنها سوى إشارة صغيرة إلى وجودها عند السطح، إلا أنها تسيطر على المناخ، كما أن الاضطراب الدائم فى نموذج تدفقها قد يغير مصير قارات بأسرها ويغيّر الظروف المعيشية لأمم بأكملها. فما هو مرأى على السطح هو الموجات والانكسارات الصغيرة التى ترجع إلى حد كبير لتأثير الرياح

والطقس، ولكنها قد تعطى انطباعًا مضللاً بما يحدث فى الأعماق البعيدة. وهذا تعبير مجازى مفيد بالنسبة للأفكار الدينية، ومثال الشعب المختار فى الوطنية البروتستانتية يمكن اعتباره أحد التيارات فى أعماق المحيط، فربما لا تكون مرئية عند السطح. وحتى العواصف العنيفة قد لا تؤدى إلى اضطراب هذه التيارات، ولكن يحدث أحيانًا، ولأسباب غامضة، أن تتغير هى بنفسها. ويصدق هذا أيضًا على الدين، فمن ذا الذى يعرف السبب فى أن الاسكتلنديين المحليين اعتنقوا حركة الإصلاح البروتستانتية، وأن الأيرلنديين الوطنيين لم يفعلوا؟

ومبدأ ماكس ڤيبر بأن القناعات الدينية الواضحة لجيل بعينه عادة ما تصير هى الفروض الضمنية غير المختبرة للجيل التالى، يعنى أن مثال الشعب المختار ربما يستمر فى تشكيل عادات الفكر ونماذج السلوك، بعد أن يكون الناس قد فقدوا اتصالهم بأصول هذه المؤثرات بزمن طويل. فهى، على حد تعبير المشاة البريطانيين فى الجبهة الغربية «هناك لأننا هناك لأننا هناك لأننا هناك .. إلخ». ونادراً ما يكون هناك انكسار حاد فى المعتقدات أو الممارسات الدينية بين جيل ما وجيل آخر يليه. وعلى العكس، فإن المعتقدات ستبقى غالبًا مستمسكًا بها حتى بعد أن تكون قد فقدت أى علاقة لها بالواقع. وهناك مناطق من الريف الإنجليزى ما تزال تلح فى طلب قسيس ليقوم بالصلاة عندما يعانى شخص ما سكرات الموت؛لأن «هذا ما تفعله» حتى على الرغم من أن كنيسة انجلترا ليست لديها طقوس خاصة بسرير الموت، ولكن هذا ما كانوا يفعلونه قبل حركة الإصلاح الدينى، وتستمر العادة حيةً. ويوم الجمعة يوم مزدحم فى محلات «السمك والبطاطس ـ Fish and Chip» فى انجلترا، حتى على الرغم من الامتناع الإجبارى عن أكل اللحم فى يوم الجمعة قد ألغته حركة الإصلاح الدينى. ومرة أخرى، كان هذا ما يفعلونه قبل حركة الإصلاح الدينى، ومرة أخرى تستمر العادة حيةً.

وربما كان الأمر يبدو واضحًا أن شرطًا ضروريًا للإيمان بأن الأمة التى ينتمى المرء لها هى الأمة المختارة، مثل اليهود فى العهد القديم، هو الإيمان بالرب، إذ لا يمكن أن يكون المرء مختاراً من الرب إذا لم يكن هناك رب. بيد أن هذا ليس

كذلك بالضرورة؛ إذ إن الكائنات البشرية ليست منطقية هكذا. فتوماس هكسلي، مثلاً، الذي كان واحداً من كبار العلماء في القرن التاسع عشر وكان طوال حياته مدافعًا وداعية لنظريات تشارلز داروين، كان يؤمن بأنه مكلف بمهمة أن يستبدل المسيحية بالعلم، أو بتحديد أكثر أن يحرم المؤسسة الأنجليكانية من وضعها المختار في المجتمع الإنجليزي ويستبدلها بكنيسة علمية، على حد تسميته. كانت نغمته إنجيلية، بل إن التنميط البروتستانتي كان ضمن قضيته. وفي محاضرة ألقاها سنة ١٨٥٥م وبَّخ سامعيه (أو الجماعة المسيحية)؛ لأن «عصر الأوثان هذا» كما قال «ينصت إلى صوت الرب الحي يرعد من سيناء العلم، وينسى مباشرة كل ما سمعه؛ لكي يتمسح في خرافاته الخاصة، ولكي يعبد العجل الذهبي للتقاليد، ولكي يصلي ويصوم حيث ينبغي أن يعمل ويطيع، وأن يضحي بأولاده للإله بعل اللاهوتي كما كان يحدث قديمًا». وتمادى إلى درجة خلق المعادل لمدارس الأحد، حيث يغني الأطفال الترانيم العلمية المعادلة للترانيم الدينية، وأسس متحف الفن الطبيعي في لندن باعتباره المعادل العلمي للكاتدرائية. وصك مصطلح «اللاأدرية - Agnostic»، الذي يعني الفرد الذي لا يدري إذا ما كان هناك رب أم لا، ولكن إذا حكمنا بالآراء الدينية التي عبر عنها فعلاً، فقد كان ملحداً حقًا. وملحد يؤمن بالقدر قد يبدو أمراً متناقضًا، بيد أن ذلك لم يكن يزعجه. وفكرة أن انجلترا لها قدر أن تكون الأمة الرائدة علميًا في الدنيا، وهي فكرة مستمدة من إسحاق نيوتن، كانت تبدو طبيعية تماماً بالنسبة له. قُيِّض لكليهما أن يكون رئيس الجمعية الملكية، التي كان يسرها أن تعتبر نفسها المنظمة العلمية الأولى في العالم.

كان نيوتن واحداً من أبطال مذهب التوحيد في الألوهية الذي كان يؤمن بأن الكون، ربما يكون قد شُيد كما لو كان على يد صانع ساعات إلهي - أداره ثم تركه يعمل. هذا الرجل العلمي الممتاز كان خبيراً بتصميم الساعة الإلهية، إلا أن تلك كانت طريقة واحدة فقط لقضاء أمسياته في القرن السابع عشر، وكانت الأمور الأخرى التي تستحوذ عليه هي التأمل في أسرار نبوءات الكتاب المقدس، بما في

ذلك محاولة معـرفة نهاية الزمان من فقرات غامضـة فى سفر دانيال. وأى وقت زائد كان يقـضيه فى التآمـر وتدبير المكائد إما لإقـصاء الكاثوليك عن كامبـريدج (وكان واحد منهـم يرغب فى أن يسجل لدرجـة البكالوريوس)، أو كيف يبـعد دوق يورك عن عرش انجلترا. وكان نيوتن مقتنعًا بأن قدره هو أن يقود انجلترا لكى تصبح الأمة الأولى فى البحث العلمى، ومن ثم تكون الأمة الأولى فى حضـارة العالم، وتنبأ بهذا المصير فى صـفحات العهد القديم والعـهد الجديد. كان شخصـًا مختاراً فى وسط الشعب المختار، وكان على قناعة أيضًا بأن قدره الشخصى والوطنى سوف يلحق به الدمار إذا تسامحت انجلترا مع الكاثوليكية.

وفى اتسـاق مع الرأى العلمى المحتـرم، رأى أن البـابا مثـل المسـيح الدجال، وتاريخ العالم الذى كان يقبله شخصيًا، والذى أبعده قليلاً عن رفاقه من البيوريتان، هو أن الفسـاد الكاثوليكى قد بدأ، على حد قـوله، بإدانة البابوية للهرطقة الآريوسية (على اسم آريوس، منشق مسـيحى من القرن الثالث). وسمّى نفسـه آريوسيا ومن ثم لم يقبل ألوهية المسيح، والواقع أنه لهذا السبب كان عليه أن يحصل على إعفاء ملكى من القسم قبل أن يتولى كرسى الأستـاذية فى كـامبريدج. كـان رجل القـدر هذا، على مدى ثلاثمائة سنة فى انجلترا وأمريكا، النموذج الراسخ للعالم السـوبر (كان تـوماس چيفرسون، الموحِّد الشكاك، وثالث رئيس لأمريكا، متأثرًا بكتاب نيوتن حول التطبيق الحقيقى للأدب المعلق برؤيا دانيـال ونهـاية الدنيـا على العـالم الحديث لدرجة أنه أمر بطباعة طبعة جديدة على حسابه).

وهكذا فإن الإيمـان بالرب المسيحى ليس ضروريًا، على الرغم من أنه يسـاعد. ومن ثم، فـإنه ليس هناك سـبب واضح فى أن الليبـراليـين اللاأدريين فى الولايات المتـحدة لا يستطيعون تصديق أن الأمريكيين هم شعب الله المختار، على الرغم من أنهم، كما لاحظنا فعلاً، ربمـا يفضلـون وصف هذه العقيدة بالمصطلح الأكثر أكاديمية واحترامًا وإيحاء بالحياد، وهو الاستثنائية الأمريكية. وينطبق هذا أيضًا على الاشتراكيين الإنجليز قبل وبعد الحرب العالمية الثانية والذين أرادوا أن يبنوا ما يسـميـه كـوريللى بارنيت فى كـتابه المسـمى« The Audid Of War »، القـدس

الجديدة. وكان بعضهم «لا أدريين» أو ملحدين، ولكنهم كانوا يشتركون فى الرؤية اليوتوبية والألفية، فى الواقع، للاشتراكيين المسيحيين. وربما يمكن أن نعدهم، من ثم، جزءًا مكملاً من مشروع الشعب المختار حتى ولو لم يكونوا يؤمنون بإله يقوم بمثل هذه الاختيارات.

ولكن إذا لم تكن أيديولوچية الشعب المختار تستند بصرامة على العقيدة الدينية، فإنها تعتمد بالتأكيد وبدرجة أكبر كثيرًا على نمط بعينه من الوطنية. وخصائص الشعب المختار الكاملة التى حددها العهد القديم تصف أمة أو شعبًا يلقى المكافأة حين يبقى على إخلاصه، ولكنه إذا انحرف فعليه أن يتوقع العقاب بالفشل أو بالهزيمة (ربما يكون ذلك أصل «الدروس المستفادة للمرء» بعد الجلد الشديد بالسياط). ومن ثم فإن الأمة التى لا تبدى سوى القليل فى سبيل إرضاء الرب ستكون تافهة غير مقنعة إذا ما ادّعت أن الرب يقف إلى جانبها. ومن ناحية أخرى فإن الأمة التى تتمتع بالنجاح يمكن أن تقنع نفسها بسهولة أنها تستدفئ بالعناية الإلهية الرحيمة.

ذلك ما كان بالتأكيد مزاعم قابلة للتصديق من جانب الإنجليز (أو البريطانيين حتى يكون الأمر أكثر كمالاً) حتى الحرب العالمية الأولى. وكان ذلك عندما زحف أول شك كبير إلى الداخل. وليست هناك مقاييس إحصائية يمكن من خلالها رسم خارطة التدهور فى الثقة الوطنية بتعريف الهوية الإنجليزية على أساس فكرة الشعب المختار. بيد أنه ربما يفترض أن مثل هذه الإحصائيات، إن وُجدت، كان لا بد أن تضمحل سنة بعد أخرى منذ نهاية الحرب العالمية الأولى؛ لأن الدليل على عمل العناية الإلهية الرحيمة كان يضعف باطّراد سنة بعد أخرى. وقد يُفترض أيضًا أن مثل هذه الإحصائيات سوف تتخذ نموذجًا مشابهًا جدًا لإحصائيات عضوية كنيسة انجلترا التى أوردها آلان ويلكنسون فى كتابه الذى يحمل عنوان: «The Church of England and The First World War»، وبعبارة أخرى: «تدهور مطرد قاس على مر السنين». ومن الواضح أن هناك علاقة وطيدة تربط بين الاثنين. فقد حدث شىء فى تلك الحرب، حسبما يستنتج ويلكنسون، لم تشفَ منه كنيسة انجلترا أبدًا.

والواقع، أن السلطة التى تحتاجها كنيسة وطنية لكى تكون قادرة لكى تبشر بالإنجيل بطريقة إجبارية، لا تقوم على مجرد خصائصها الخاصة، ولكن على خصائص الأمة التى ترتبط بها (والتى تزعم أنها تمثل الوجه الروحى لها). والأمة القوية لا بد أن تكون لها عقيدة قوية؛ وسوف يبدو المزيج صلبًا بما يكفى لأن يكون مقنعًا. والأمة الإنسانية الخالصة ستكون لها كنيسة إنسانية خالصة، ولن تمر الكثير من المساندة بينهما فى اتجاه دون الآخر. ووفقًا لاستطلاع أجراه «المركز الوطنى للبحث الاجتماعى ـ National Centre for Social Research»، نشر سنة ٢٠٠٠م، زعمت نسبة ٤٨ فى المائة فقط من الناس فى المملكة المتحدة أنهم ينتمون إلى أية ديانة، مقارنة بـ ٨٦ فى المائة فى الولايات المتحدة. ونسبة الحضور فى صلوات كنيسة انجلترا يوم الأحد نقصت عن مليون علامة للمرة الأولى أواخر التسعينيات من القرن العشرين. وليست مصادفة أن كنيسة انجلترا قد سعت، فى الفترة التى يشملها البحث، إلى أن تدعم ثقتها بنفسها عن طريق تعظيم دورها ككنيسة أم للطائفة الأنجليكانية وكذلك عن طريق لعب دور «أحسن صديق» للقوة الروحية العظمى فى العالم الحديث، أى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، تمامًا مثلما أفادت السياسية الخارجية البريطانية كثيراً مما يسمى «العلاقة الخاصة» مع القوة العظمى المادية عبر الأطلنطى. وأولئك الذين لاحظوا رئيس الوزراء تونى بلير يقف إلى جانب الرئيس بيل كليتون فى احتفالات الأمم المتحدة بالألفية الثانية فى نيويورك سنة ٢٠٠٠م، ربما يكونون قد لاحظوا أيضًا كبير الأساقفة چورچ كارى يقف إلى جوار البابا يوحنا بولس الثانى فى احتفال مماثل فى روما ـ وبكلمات الپروتوكول فى مثل هذه الأحداث، هو فى موضع تشريفى، ولكن فى كلمات الحقيقة يلعب دوراً ثانويًا ـ أو، لكى نكون صرحاء، يستدفئ بانعكاسات المجد. وهل هناك أى عجب فى أن الشكلين الصريحين للانحياز اللذين يواجههما الإنجليز عمومًا وإلى الآن والذين تعلموا مراعاة الحرص فى لغتهم بالنظر إلى المجموعات العرقية أو العنصرية أو الدينية الأخرى، هما نزعة معاداة الأمريكيين ونزعة معاداة الكاثوليك؟ هل هذا هو الحصرم الذى يتذوقه من جاء البديل ليحل محله؟

أمـا أمريكـا ، فعلى النقيض ، مـا تزال تحكى قصـة تحظى بالتصـديق عن أنهـا «الشعب المختار» ، ويكاد يكون العامل الوحيد الذى يحول بيننا وبين إسباغ ذلك اللقب عليها مباشرة هو الشك المؤرق بأنه فى الحقيقة لا يوجد شعب مختار على الإطلاق ، وأن الرب (إذا ما اتفقنا على أن هناك ربًا) لا يعمل بهذه الطريقة . وربما لا يهم كثيرًا إذا ما كان الأجانب يوافقون على أن أمريكا هى الشعب المختار ، أما ما يهم من حيث العائد فهو ما إذا كان الأمريكيون أنفسهم يصدقون ذلك ؛ إذ إن الاختيار إلى حد كبير حالة يضع المرء نفسه فيها وتحقيق ذاتى للنبوءة . ومن الواضح أنهم يصدقون ، إذا لم يكن بالطريقة التنميطية البروتستانتية التقليدية المستمدة من الكتاب المقدس التى عرفتها الأجيال السابقة ، فإنها مستمدة إذن منها بشكل وثيق (و ربما بعد أن جردوها من بعض التزاماتها غير المريحة) .

ويتصل مثال الشعب المختار إلى درجة عالية بمشكلة العلاقات العنصرية والاندماج العنصرى فى كل من البلدين . والعنصر ليس حقيقة علمية من حقائق الحياة ولكنه بناء إنسانى ؛ فهناك عنصر واحد فقط بالمعنى البيولوچى ، وهو «الجنس البشرى» . وكان «العنصر» يستخدم بصورة تكاد تكون تبادلية مع «الشعب» فى القرن التاسع عشر ، وكان يشير لا إلى مجرد الخصائص الچينية المتوارثة فقط ولكن إلى الثقافات المشتركة ، والمعتقدات والذكريات . وقد أخذ العنصر معناه الحديث فقط تحت تأثير الداروينية الاجتماعية والنظرية الچينية الباكرة ، عند مطلع القرن العشرين . وهكذا ، فإن الشعب كمصطلح يصف الجماعة الوطنية ، هو الفكرة الأقدم ، وأولئك الذين ينظرون إلى العهد القديم بحثًا عن نموذجهم الاجتماعى سوف يجدون وفرة من الأمثلة لمفهوم «الشعب» المستخدم للتفرقة بين «نحن» و«هم» ، وفى معظم الأمثلة التفرقة بين العبرانيين ومختلف قبائل الكنعانيين - حتى إلى حد القول بأن «نحن» ربما نجعل «هم» عبيدًا لنا . وفى اللغة المعاصرة ، وبسبب النسب الأموى - (يكون الفرد يهوديًا إذا كانت أمة يهودية) فإن هذا التحديد لـ «نحن» هو أيضًا تحديد عنصرى .

ومن ثم فإن مفهوم «الشعب المختار» يمثل مخاطر عظيمة على العلاقات

العنصرية، ومن المؤكد أن هذا هو أصل الشكوك الإنجليزية حول ما إذا كان الشخص الأسود أو الآسيوى يمكن أن يكون إنجليزيًا حقًا. ومجرد الاعتراف بأنهم بريطانيون ليس يكفى؛ لأن هذا تعريف ردىء بأكثر مما يجب، كما أنه ليس دالاً بما يكفى (خاصة حين يقلل الاسكتلنديون والويلزيون وغيرهم كثير فى شمال أيرلندا من أهمية العنصر «البريطانى» فى هويتهم، ويؤكدون على العنصر الاسكتلندى والويلزى والأيرلندى). والإنجليز يرغبون حقًا فى أن تكون لهم علاقات عنصرية طيبة، والحقيقة أنهم سيفضلون أن يكونوا مثالاً للأمم الأخرى فى هذا المجال؛ ولذلك فإنهم كلما تعلقوا أكثر بماضيهم كشعب مختار، كلما كان ذلك أصعب. ويطرح هذا تحديًا قويًا أمام مؤسستين إنجليزيتين على وجه الخصوص، الملكية وكنيسة انجلترا؛ لأن هويتهما الماضية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمثال الشعب المختار عن الإنجليزية، وإذا لم تكونا حريصتين، فإن وجودهما سيكون عنصريًا من الناحية الدستورية. وبينما حرص هذا الكتاب على أن يبقى بعيدًا عن الصراع فى الشرق الأوسط، فإن بعض الاستنتاجات التى توصل إليها عن عواقب نظرية الشعب المختار على العلاقات العنصرية سوف تنطبق على الموقف الإسرائيلى من العرب.

وفى الوقت نفسه، حاولت أمريكا أن تتجاوز الطبيعة المفردة والأحادية للهوية الوطنية الأمريكية، كما كانت منذ نهاية الحرب الأهلية، مثلاً. وقد فعلت هذا دون أن تتخلى عن رؤية نفسها كأمة مختارة. والإنجاز العظيم لـ «مارتن لوثر كنج»، كان أنه أوضح كيف يمكن للتصميم العظيم لأمريكا كأمة مختارة مفردة أن يحتوى داخله على روافد أخرى، جماعات أصغر ترتدى هى الأخرى عباءة المختارين، ولكنها تفعل ذلك بطريقة لا تنكرها على الكل. إنه نموذج للتلاقى فى نقطة واحدة، أو «شعب الشعوب». وهناك نموذج من الكتاب المقدس لهذا أيضًا؛ إذ كان الإسرائيليون القدماء فى الأصل اثنتى عشرة قبيلة، ولكنهم جميعًا كانوا تحت ميثاق واحد.

و«المشكلة الأمريكية»، إذ حقَّ للمرء أن يصوغ مثل هذا المفهوم، هى أنه بينما

كان مطلوبًا من هذه القبائل الاثنتى عشرة أن تعامل بعضها البعض بصورة عادلة وبلطف حسب الشريعة الموسوية، لم يكن مطلوبًا منها أن تتعامل مع القبائل غير اليهودية، أى القبائل الكنعانية التى تشاطرها العيش فى نفس المكان، بهذه الطريقة. حقًا إن أخلاقيات العهد القديم تبدأ تكتسب صبغة عالمية - وتطبق على اليهود وغير اليهود بالمثل - فى بعض الأنبياء اللاحقين. ويمكن الحكم على مدى عدم توفيقهم من خلال الحقيقة القائلة بأن يسوع كان ما يزال يرى ضرورة التبشير بمثال السامرى الطيب، الذى كان موجهًا بالضبط للسؤال القائل «من هو جارى؟» وتجاه من، غير «الناس الذين مثلى»، أتحمل مسئوليات أخلاقية؟ ومن الواضح أن يهود ذلك الزمان لم يكونوا يفكرون فى أن عليهم مسئوليات أخلاقية تجاه السامريين، وصدمتهم إلى حد ما قصة تقول إن السامريين يشعرون بأن عليهم مسئوليات أخلاقية تجاه اليهود.

وهكذا بينما يحتمل أن تكون أمريكا تحاول أخيرًا أن تتعامل بنزاهة مع الجماعات العرقية الثانوية بها، فإنها أمة ما تزال شديدة الوعى بالحدود التى تحدد «مفهوم الشعب» فيها. ويمكن تبسيط هذا بسهولة فى الاقتناع بأن بقية العالم موجود لمصلحة أمريكا. وهذا يختلف عن الدافع وراء الإمبراطورية البريطانية، التى كانت قائمة على أساس الرؤية - مهما كانت عدم كفاءتها فى الواقع - بأن بريطانيا موجودة لمصلحة بقية العالم. وقد يكون هناك بعض العزاء فى أن نعرف أن الشعب المختار الأصلى كان يناضل ضد نفس الصعوبة بالضبط. كانوا شعبًا مختارًا، ولكن لمصلحة مَن؟ ومنذ زمن مبكر، كان من الواضح أن هذا لمصلحتهم، ولكن بمرور الزمن، أشرقت الحقيقة القائلة بأن ذلك كان لمصلحة الإنسانية. وتحتاج أمريكا موعظة السامرى الطيب فيها، وهى سوف تستمع لها من شخص ما.

أعراض الشعب المختار، كما حددناها، تفترض أن الأمم التى يخضع تاريخها لذلك النموذج سوف تمر بدورة. فالإيمان والإخلاص سوف يتبعهما التراخى، ثم عبادة الأصنام والكفر (بالمعنى الدينى على الأقل)، وسوف يؤدى هذا إلى المعاناة

وسوء المصير ؛ لأن العناية الإلهية تتدخل لتوقيع العقاب التصحيحى ، (وليس هذا لجعل الرب مسئولاً عن سوء المصير ؛ فكل ما يفعله هو رفع حمايته) . وسوف ينهض الأنبياء لشرح ما جرى مجرى الخطأ ويحضون الشعب المختار على الرجوع إلى طاعتهم السابقة ، وعندما يفعلون ذلك ، يعودون مرة أخرى (بعد خلاصهم) لحالة النعمة التى كانوا فيها من قبل .

وسواء كانت لهذه النظرية فى التاريخ أية قيمة تنبؤية أم لا ، فهذه نقطة فيها نظر . فهل سمح الرب حقًا لشعبه المختار (البريطانيين) أن يفقدوا مستعمراتهم الأمريكية عقابًا لهم على تجارة الرقيق؟ وإذا كانت تلك خطة الرب ، كيف أمكنه فى الوقت نفسه أن يحرر شعبه المختار (الأمريكيين) من الطغيان البريطانى مكافأة على الإخلاص الأمريكى؟ إن القصتين لا تتماشيان سويًا فإذا ما كان الرب يريد لتجارة الرقيق أن تنتهى ، لمَ منح الأمريكيين النصر فى حربهم من أجل الاستقلال؟

ويؤدى هذا إلى صعوبة أوسع تتعلق بالتعامل مع نظرية الشعب المختار ، كما لو كانت نظرية حقيقية . وأحد الملامح الرئيسية فى التنميط الپروتستانتى من وحى الكتاب المقدس ، حسبما تم تطبيقه فى انجلترا وفى أمريكا على السواء ، تمت المبالغة فيه إلى درجة الخيال ؛ إذ لم يكن هناك حقًا مؤامرة بريطانية دفينة لحرمان الأمريكيين من حريتهم سنة ١٧٧٤م ، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك تخطيط دفين لفرض ملكية مستبدة ، بل وبدرجة أقل ، فرض الكاثوليكية الرومانية . وأساءت أمريكا قراءة الإشارات ، كما أساءت بدرجة من التعمد إعادة طرحها ، وكان الدليل فى متناول الجميع . وقصة التطور الدستورى فى كندا وغيرها كانت قصة تقدم ثابت صوب الديموقراطية والحرية تحت حكم الملكية ، والواقع أن كندا كانت هى الأرض الموعودة بالنسبة للعبيد فى أمريكا ؛ حيث كانوا يجدون الأمان بين ذراعى الملكة ڤيكتوريا . بل إن الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين اعترفوا بأنهم كانوا سيحصلون على اتفاق أحسن فى كندا .

و«الهروب من الطغيان» على النمط الوارد فى الكتاب المقدس بالنسبة لانجلترا ، أثناء معظم القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، كانت

تحركه أشباح الكاثوليكية الرومانية، التى نُظر إليها على أنها الإمبراطورية الطاغية للمسيح الدجال. ولكن مفهوم أن الكاثوليكية كانت شيطانية فى الأصل كان قد أسقط بشكل يكاد يكون تامًا عند بداية القرن التاسع عشر، وكان أحد المؤثرات فى ذلك وصول آلاف من اللاجئين الكاثوليك الفرنسيين إلى انجلترا هربًا من الرعب. ولم يشعر الإنجليز فقط بالأسف من أجلهم، ولكنهم وجدوهم متحضرين، ومثقفين، ومتعلمين، ومسيحيين بشكل واضح، بكل وسيلة يمكن للپروتستانتى أن يعرف بها مهما كان تطرفه. وربما كان لديهم نظام سياسى أدنى، بيد أنه من الواضح أنهم لم يكونوا أعوان الشيطان. إلا أن الكاثوليكية فى فرنسا أواخر القرن الثامن عشر لم تكن تختلف كثيراً عن الكاثوليكية التى برزت من إصلاح مجمع ترنت حتى قبل عهد الملكة إليزابيث الأولى؛ إذ كان هذا المجمع قد بدأ لكى يكون حدثًا محدداً، كان «مجمعًا لإنهاء المجامع»، والحقيقة أنه لم يتم عقد المجمع التالى حتى سنة ١٨٧٠م. وإذا كانت الكاثوليكية عند بداية القرن التاسع عشر لم تكن تجسيداً للشر، فإنها إذن لم تكن كذلك قبل قرنين من الزمان.

واستمر كتاب فوكس الشهير «Book of Martyrs»، والذى أعيدت طباعته بانتظام طوال تلك الفترة، فى نشر رسالته المؤذية. وقد تحرر الكاثوليك سنة ١٨٢٩م، ولكنهم لم يكونوا محل ثقة حتى ذلك الحين. وعندما تم تكوين السلك الكهنوتى الكاثوليكى فى انجلترا سنة ١٨٥٠م، كانت هناك عاصفة من الاحتجاج ولقاءات جماهيرية حاشدة فى جميع أرجاء البلاد. ولكن دونما أن يقدم الكاثوليك تنازلاً واحداً، سرعان ما مرت موجة البارانويا المعادية للكاثوليكية وتم إعادة نوع من التسامح الفاعل وإن لم يكن كاملاً. ولا شىء من هذا يبرهن على أن الكاثوليكية نظام مكتمل، ولكنه يوضح بالفعل أن المخاوف المتطرفة التى حكمت السياسات الإنجليزية والمشاعر الدينية الإنجليزية فترة تزيد على ثلاثة قرون- وترددت أصداؤها بإخلاص على الجانب الآخر من الأطلنطى- كانت مبالغة إلى درجة جنون الاضطهاد (البارانويا)، ولعبت نظرية الشعب المختار دوراً رئيسيًا فى الدفاع عن انجلترا ضد البابوية- المؤامرة المزعومة بين الكنيسة الكاثوليكية وأعداء انجلترا الأوروپيين- ليس أقله ما حدث زمن خلع چيمس الثانى و«الثورة المجيدة»

سنة ١٦٨٨م، وفى التمرد التالى من جانب أنصار المذهب اليعقوبى الذين شكّلوا مصدر تهديد مستمر. ولكن هل كان الأمر سيصبح كارثيًا حقًا إذا ما سُمح لچيمس الثانى أن يُكمل عهده؟ هل كان خلعه حقًا هو النقطة الفارقة فى التاريخ الإنجليزى حسبما قالت أجيال من مؤرخى الهويج الذين ساروا على درب ماكولى؟ أم أن سلخ الكاثوليكية كان ببساطة شرطًا ضروريًا لكى تؤتى أسطورة الشعب المختار سحرها، بكل ما فاض وتدفق من جراء هذا؟ هل كانت عظمة انجلترا مبنية حقًا على مثل هذه الأسس الخيالية؟

وبذلك فإن استنتاجنا النهائى عن نظرية الشعب المختار ينبغى أن يكون أنه بينما ما تزال هذه النظرية مؤثرة، فإنها ببساطة ليست حقيقية ـ ولم تكن أبدًا ـ والدليل التاريخى وحده يفندها، مهما نفخنا فى الموضوع اللاهوتى. وبينما حققت حيوية قوية فى حيازة الأمتين اللتين آمنتا بها عن أنفسهما، فإن هذه النظرية جعلتهما يعتقدان أيضًا أن من حقهما السعى وراء مصالحهما الخاصة حتى لو تعارضت مع مصالح الآخرين.

مثل هذه الأمم مصدر تهديد محتمل للأمم الأخرى، بيد أنها سوف تشعر شعورًا مكثفًا بأنها على حق، وتقتنع بأن التبرير الأخلاقى لأفعالها يكمن فى وضعها الفريد، كما أنها لن تسمح للآخرين بمحاسبتها. إذا كان «ملاك يركب فى الريح الدوارة ويوجه هذه العاصفة» كما كتب چون بيج إلى توماس چيفرسون، فإن استنتاج چورچ بوش(*) إذن، يكون صحيحًا: أن الوقوف فى وجه أمريكا هو مقاومة لإرادة الرب.

وبينما، لو كانت نظرية الشعب المختار حقيقية، كان يمكن الاعتماد على الرب لعقاب أمة أساءت استغلال وضعها المختار، كما عاقب العبرانيين القدماء فى بعض الأحيان، فإن مثل هذه التصحيحات لا تحدث فى العالم الحقيقى. وسفر الأمثال (١٦ : ١٨) قد يحذر من أن «قبل الانكسار الكبرياء، وقبل السقوط غطرسة الروح»، وقد يصدقه الأمريكيون وقد يكونوا حذرين بشأنه. وهذه قليلة، بيد أن

(*) قال ذلك فى خطاب تنصيبه رئيسًا للولايات المتحدة.

هذا ليس قانونًا عالميّا؛ إذ إن تأثيرات أمة قوية مقتنعة بأن الرب إلى جانبها لا يمكن أن تكون محدودة بذاتها. فهى يمكن غالبًا أن تعمل، صوابًا أم خطأ، وهى متمتعة بالحصانة. والحقيقة، أنه فى الحالة المتطرفة، يمكن لحالة الشعب المختار أن تتحول إلى نزعة وطنية دينية حماسية يمكن أن تتحول إلى فاشية.

....

....

وأفضل طريقة لضمان ألا يتحول هذا الاحتمال إلى واقع هى أن نكون مدركين له، وأن نتخذ الخطوات لمقاومته. وذلك أمر ضرورى للأمريكيين أنفسهم مثلما هو ضرورى لبقية العالم. ولكن ما إذا كانت لدى أمريكا وبقية العالم الشجاعة والحكمة المعادلة لهذه المهمة الرهيبة أمر آخر.

* * *

الفهـــرس

رقم الإيداع ٣٩٤٠/ ٢٠٠٣

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-0932-7

مطـــابــع آمــــون

٤ الفيروز من ش.إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦